ابن الرومي

حياته من شعره

بقلم

عباس محمود العقاد

الثمن ٢٠ قرشا

م. مصر شركة مساهمة مصرية
٢٠٠٠/٣١/٣٨٩٠

ابن الرومي

حياته من شعره

بقلم

عباس محمود العقاد

منشورات المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

تمهيد

هذه ترجمة وليست بترجمة

لأن الترجمة يغلب أن تكون قصة حياة ، وأما هذه فأحرى بها أن تسمى صورة حياة . ولأن تكون ترجمة ابن الرومي صورة خير من أن تكون قصة . لأن ترجمته لا تخرج لنا قصة نادرة بين قصص الواقع أو الخيال ، ولكننا اذا نظرنا في ديوانه وجدنا مرآة صادقة ووجدنا في المرآة صورة ناطقة لانظير لها فيما نعلم من دواوين الشعراء، وتلك مزية تستحق من أجلها أن يكتب فيها كتاب .

ان مزايا الشعر كثيرة تتفرق بين الشعراء ويتفرق الاعجاب بها بين القراء . وقد يحرم الشاعر احداها أو أكثرها وهو بعد شاعر لا غبار عليه ، لأنه يحسن نمطاً من الشعر تصح به الشاعرية : كالجمال فى الحسان يروقنا فى كل وجه بلون وسمة وهو فى جميع الوجوه رائق جميل ، وكاللمحة الواحدة من ملامح الجمال تحلو فى هذا الوجه وتحلو في ذاك ولا تشابه بينهما في غير الحلاوة . ففي العيون ألف عين جميلة لاتشبه الواحدة أختها ولا تتفق اثنتان منها فى معاني النظرات ومحاسن الصفات وليس هناك الا جمال واحد عند الكلام على جوهر الجمال .

وكذلك الشعر . يعجبنا فى كل شاعر بطراز مختلف وهو شعر سائغ مستملح فى كل طراز . فالذى يعجبنا من المتنبى غير الذى يعجبنا من البحترى ، والذى يعجبنا من هذين غير الذي يعجبنا من الشريف الرضى أو من أبى العلاء أو من أبي نواس أو من ابن زيدون ، والذى يستحق به كل واحد منهم صفة الشاعرية غير الذى يستحقها به البقية!

فقد تفرقت مزايا الشعر كما قلنا أيما تفرق ؛ وامتنع الاعجاب بها جميعا على الحصر والتعريف .

غير أن المزية التي لاغنى عنها والتي لايكون الشاعر شاعرا الا بنصيب منها هي مزية واحدة ، أو هي مزية نستطيع أن نسميها باسم واحد : وتلك هي الطبيعة الفنية .

نتعمد أن نقول أنها تسمى باسم واحد لأنها في الحقيقة أشياء شتى تدخل في عموم هذه التسمية .

فالطبيعة الفنية هي الطبيعة التي بها يقظة بينة للاحساس بجوانب الحياة المختلفة . وهنا ينتهى بنا الاجمال الى كلمة كأنها كلمات ، أو كأنها معجم كامل من المصطلحات . أليست جوانب الحياة علميا لا حد لها في العدد ولا في الصفة ؟ ثم أليست أنواع التيقظ لتلك الجوانب أشتاتا وأخلاطا لا تجتمع في حصر حاصر ؟ بلى ! فمن المتيقظين لجوانب الحياة من هو ضيق الشعور بها ومن هو متوفر الشعور أو مهتاجه أو مستفيضه أو محصوره أو مستقيمه أو منحرفه ؛ الى غير ذلك من أنواع الشعور ودرجاته . فالذي تجمعه كلمة اليقظة هنيهة لاتلبث أوصاف اليقظة أن تفرقه كل مفرق . فهل من سبيل الى اسلاس المعنى وتقريب مفاده للتعريف والتوضيح ؟ نعم ! وسبيل ذلك غير عسيرة ، فنحن نقول موجزين ان الطبيعة الفنية هي تلك الطبيعة التي تجعل فن الشاعر جزءا من حياته أيا كانت هذه الحياة من الكبر أو الصغر ومن الثروة أو الفاقة ، ومن الألفة أو الشذوذ . وتمام هذه الطبيعة أن تكون حياة الشاعر وفنه شيئا واحدا لاينفصل فيه الانسان الحي من الانسان الناظم ؛ وأن يكون موضوع حياته هو موضوع شعره وموضوع شعره هو موضوع حياته ، فديوانه هو ترجمة باطنية لنفسه يخفى فيها ذكر الأماكن والأزمان ولا يخفى فيها ذكر خالجة ولاهاجسة مما تتألف منه حياة الانسان ، ودون ذلك مراتب يكثر فيها الاتفاق بين حياة الشاعر وفنه أو يقل . كما يلتقى الصديقان أحيانا طواعية واختيارا ، أو كما يلتقى الغريبان في الحين بعد الحين على كره

واضطرار . فالانسـان والشـاعر فى هذه الحالة شخصان يلتقيان فى المواعيد ثم يذهب كل منهما لطيته الى أن يتاح لهما اللقاء مرة أخرى بعد زمن طويل أو قصير ، وكأن الشعر عند هؤلاء الشعراء روح من تلك الأرواح التى تلبس صاحبها وتفارقه ثم تلبسه كلما استحضرها له مستحضر من الحوادث والأهواء ، فهو اذا لبسته شاعر يأخذ عنها ماتحسه وينقل عنها ماتقول ، وهو اذا فارقته فرد من هذا الملأ الذى لايوحى اليه ولا يكشف عنه الحجاب .

ابن الرومى واحد من أولئك الشعراء القليلين الذين ظفروا من الطبيعة الفنية بأوفى نصيب . فمن عرف ابن الرومى الشاعر فقد عرف ابن الرومى الانسان حق عرفانه ولم ينقص منه الا الفضول ، والغريب مع هذا أن ابن الرومى الشاعر هو ابن الرومى الذى لم يعرف بعد وان عرفت له مزايا ونالت حسنات له حقها من الاعجاب

***

ليس من الصدق للتاريخ أن يقال ان ابن الرومى كان خاملا فى زمانه أو بعد زمانه بهذا المعنى الشائع من الخمول الذى يراد به سقوط المكانة الأدبية ونسيان الأثر بين المتأدبين ، فلعله اذا قيس الى الشعراء الهجائين خليق أن يعد سعيد الحظ موفور الجزاء . فقد ذهب شعر بشار الا أقله وذهب شعر دعبل الا أقله وبقى ديوان ابن الرومى كله فلم يذهب منه الا أقله ! وهذه محاباة من الشهرة لم يرزقها فى العربية شاعر هجاء ولم يرزقها قبل عصر الطباعة الا أفراد معدودون بين سائر الشعراء . ثم جاء عصر الطباعة فلم يكن الخمول هو الذى جنى على ابن الرومى وأخر طبع ديوانه بعد الدواوين التى فى طبقته لأنه ذكر فى كل كتاب متداول من كتب الأدب وحفظت له مختارات كثيرة فى حيثما وردت مختارات الشعراء المبرزين والذين أهملوه — كصاحب الأغانى — انما تعمدوا ذلك حنقا عليه لا اصغاراً لشأنه ، فتأخر طبعه فى العصر الحديث لأسباب غير الخمول والاهمال : تأخر لأن ديوانه أطول ديوان محفوظ فى اللغة العربية من جهة ، ولأن نسخته — من

جهة أخرى — لم تكن ميسورة فى البلاد السورية حيث طبعت بعض الدواوين ، وربما كان الاقذاع فى الهجاء سببا ثالثا مضافا الى ذينك السببين .

فليس من الصدق للتاريخ اذن أن يقال ان ابن الرومى كان خاملا بذلك المعنى الشائع من الخمول ، ولكنه مع هـذا كان خاملا وكان خموله أظلم خمول يصاب به الأدباء ، لأنه الخمول الذى يحفظ ذكر الأديب ولكنه يخفى أجمل فضائله وأكبر مزاياه ، وهذا هو الحيف الذى أصاب ابن الرومى ولا يزال يصيبه عنـدنا بين جمهرة الأدباء والمتأدبين .

قال ابن خلكان يصفه ويقـدره : « هـو صاحب النظم العجيب والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكامنها ويبرزها فى أحسن صورة ، ولا يترك المعنى حتى يستوفيه الى آخـره ولا يبقى فيه بقيـة » .

وهذا وصف صادق كله ، ولكنه ليس بكل الوصف الذى ينبغى أن يوصف به ويتمم به تعريفه ، فهو تعريف ناقص . والناقص فيه هو المهم وهو الأجدر بالتنويه . اذ هو هو المزية الكبرى فى الشاعر وهو هو الطبيعة الفنية التى تجعل الفن جزءا لاينفصل من الحياة .

ما الغوص على المعانى النادرة ؟ وما النظم العجيب والتوليد الغريب ان لم يكن ذلك كله مصـحوبا بالطبيعة الحية والاحسـاس البالغ والذخيرة النفسـية التى تتطلب التعبير والافتنان فيه ؟ ان كثيراً من النظامين ليغوصون على المعانى النادرة ليستخرجوا لنا أصدافا كأصداف ابن نباتة وصفى الدين أو لآلىء رخيصة كلآلىء ابن المعتز وابن خفـاجة واخوان هـذا الطراز ، وان الغوص على المعـانى النـادرة لهـو لعب فارغ كلعب الحـواة والمشـعوذين ان لم يكن صـادق التعبير مطبـوع التمثيل والتصـوير . وعلى الأوراق الماليـة رسـوم ونقوش وأرقـام وحـروف ، ولـكنها برسـومها ونقوشها وأرقامها وحروفها لاتساوى درهما ان لم يكن وراءها الذهب

المودع في خزانة المصرف ! فالاحساس هو الذهب المودع في خزانة النفس وهو الثروة الشعرية التي يقاس بها سراة الكلام ، أما الرسوم والنقوش والأرقام والحروف فعلامة لا أكثر ولا أقل . وقد تغني عنها علامة أخرى برقم ساذج وتوقيع بسيط !

نعم ما النظم العجيب والتوليد الغـــريب واستغراق المعنى حتى يستوفي الى آخره ولا تبقى فيه بقية ؟ ان هذا بقضه وقضيضه ان هو الا أدوات التعبير وليس هو التعبير المطلوب في لبابه . فاذا لم يـكن عند الشاعر ما يعبر عنه فكل معانيه وتوليداته ونوادره لغو لا حـاجة بنا اليه . واذا كان عنده ما يعبر عنه واستطاع التعبير بغير توليد ولا اغراب ولا استغراق فقد أدى رسالته وأبلغ في أدائها أكمل بلاغ . وهذه هي الرسالة المقصودة وهذا هو الشعر الجيد وهذه هي الطبيعة الفنية : أما المعاني والتوليدات فهي وسائل الى غاية لاقيمة لها الا فيما تؤديه وتنتهي اليه ، ويستوى بعد ذلك من أدى اليك سريرة نفســه بتوليد واغراب ومن أداها اليك بكلام لا اغراب فيه ولا توليد .

وابن الرومي شاعر كثير التوليد غواص على المعاني مســتغرق لمعانيه ؛ ولكننا لو سئلنا ما الدليل على شاعريته لكان غبنا له أن نحصر هذا الدليل في التوليد والغوص والاستغراق . فقد نحذف منه توليداته ومعانيه ولا نحذف منه عناصر الشاعرية والطبيعة الفنية : فهو الشاعر من فرعه الى قدمه والشاعر في جيده ورديئه والشاعر فيما يحتفل به وفيما يلقيه على عواهنه. وليس الشعر عنده لباسا يلبســه للزينة في مواسم الأيام ولا لباسا يلبســه للابتذال في عامة الأيام . كلا ! بل هو اهابه الموصول بعروق جسمه المنسوج من لحمه ودمه . فللرديء منه مثل ما للجيد من الدلالة على نفسه والابانة عن صحته وسقمه . بل ربما كان بعض رديئه أدل عليه من بعض جيده وأدنى الى التعريف به والنفـــاذ اليه ؛ لأن موضوع فنه هو موضوع حيـاته . والمرء يحيا في أحسن أوقاته ويحيا في أسوأ أوقاته ، ولقد تكون حياته في الأوقات السيئة أضعاف حياته في أحسن الأوقات .

هذا الجانب من شاعرية ابن الرومى هو الجانب الخامل المجهول، وهو الجانب الذى وقفنا على التعريف به صفحات هــذا الكتاب .
وعندنا أننا ننصف كل شاعر ــ ولا ننصف ابن الرومى وحــــده ــ بتوضيح هذا الجانب من الشاعرية ، أو بتوضيح ما نسميه الطبيعــة الفنية . لأنه هو المقياس الذى لايتم لنا أن نقدر شاعراً بغيره ، والذى نجهل الشعر كله والشعراء كلهم اذا نحن أغضينا عنه والتفتنا الى سواه مما لا يستحق كبير التفات .

♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦♦

الفصل الأول

عصر ابن الرومي

او القرن الثالث للهجرة

« كان أحسن الأزمان وكان أسوأ الأزمان ، كان عصر الحكمة وكان عصر الجهالة ، كان عهد اليقين والايمان وكان عهد الحيرة والشكوك ، كان أوان النور وكان أوان الظلام ، كان ربيع الرجاء وكان زمهرير القنوط : بين أيدينا كل شيء وليس بين أيدينا شيء قط ، وسبيلنا جميعا الى سماء عليين وسبيلنا جميعا الى قرار الجحيم . تلك أيام كأيامنا هذه التي يوصينا الصاخبون من ثقاتها أن نأخذها على علاتها ، وألا نذكرها الا بصيغة المبالغة فيما اشتملت عليه من طيبات ومن آفات » .

هذا هو عصر الثورة الفرنسية ، وهكذا استهل وصفه الكاتب الانجليزي « شارلس دكنز » في بداية قصة المدينتين ، الا أنك قد تنقل هذا الوصف الى أمة غير الأمة الفرنسية وعصر غير القرن الثامن عشر للميلاد وأنت لاتخرج به عن زمانه ومكانه وفحواه ، اذ هو وصف صادق لكل عصر من العصور في تواريخ الانتقال والاضطراب ، ومن تلك العصور القرن الثالث للهجرة في دولة الاسلام الشرقية ، وهو القرن الذي لا يوصف في جملته الا بمثل هذا الوصف الغامض الجلي الذي كأنما يصف لك عصرين مختلفين لا عصراً واحداً متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه في الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفات ، وان اجتمعت في نطاق واحد من الزمان .

ان كان لكل دولة أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد فالقرن الثالث للهجرة كان أوان النماء للدولة العباسية جاء بعيد التمهيد وقبيل

النضـــج والذبول . ففيه نما وأزهر كل ما بذره مؤســـو الدولة من جراثيم الخير والشر وعناصر الصلاح والفساد . وكانت الدولة فى ابانه أشبه شيء بالمرج الأخضر الذى ينمو فيه الحب والفاكهة والشـــوك والعشب المسموم : خضرة زاهية نضرة ولكنها وسيمة شائهة ومصلحة مهلكة ومرجوة مخشية ، ومختلط فيها الغذاء والسم اختلاطا لا سبيل الى التنقية والتمييز فهو العصر الذى بلغ كل شيء فيه أقصاه وأثمر كل عمل فيه نتاجه المحتوم ، أثمر فيه الخطأ كما أثمر فيه التوفيق وظهر فيه ما قدموا صالحا أو طالحا على السواء . فبدأ التمام وبدأ النقص فى حين واحد ، واجتمع الخليط من حضارات العرب والفرس والروم الى الخليط من عوامل القوة والضعف والبشارة والانذار . فكان نسيجا من ألوان الزمان لاتشبع منه عين الفنان ولا روية الحكيم .

وليس بنا أن نسهب فى وصف هذا القرن واستقصاء تاريخه فانما يعنينا منه ما يحيط بفرد واحد هو الشاعر الذى نترجم لحياته. فحسبنا من تاريخ ذلك العصر ما نوضح به نواحى تلك الحياة ، والقليل الوجيز من ذلك التاريخ كاف لتوضيح ما نريده فى هذا المقام .

◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆◆

حالة الحكومة والسياسة

ولد ابن الرومي في سنة احدى وعشرين ومائتين وتوفي في سنة أربع وثمانين على قول بعض الرواة . فهو قد أدرك في حياته ثمانية خلفاء هم : الواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدي والمعتمد والمعتضد الذي توفي بعد ابن الرومي ببضع سنوات . فاذا أردنا أن نحيط بالحالة التي كانت عليها الحكومة وسياسة الدولة يومذاك فلعلنا لانستطيع أن نعرض لذلك ببيان هو أوجز من الالمام بالمصير الذي صار اليه بعض أولئك الخلفاء . فمنهم واحد قتل وهو المتوكل وثلاثة خلعوا وقتلوا بعد خلعهم وهم: المستعين والمعتز والمهتدي، وقيل ان من الآخرين من مات مسموما . والبقية الذين ماتوا على سرير الملك لم يخل عصر أحدهم من فتنة أو انتقاض أو غارة خارجية ، ولم يكن حظ ولاة العهود والأمراء والوزراء بخير من حظ الخلفاء ولا مصير أكثرهم بأسلم من هذا المصير . فقل بين هؤلاء من نجا من الخلع والسجن والتعذيب واستصفاء الأموال .

وكان الخلفاء عرضة للغضب والكيد من الجند والوزراء ونساء القصور ، أما الأمراء والوزراء فكانوا عرضة للغضب والكيد من جميع هؤلاء ويزيد عليهم الخلفاء كلما قدروا على البطش وأمنوا على أنفسهم دسائس المشاغبين والمنافسين .

ان اطراد البطش بالخلفاء والوزراء لايدل على أمان أو انتظام في سير الأمور ، ولكن هذا كله لايزال ضعيف الدلالة على ما كانت عليه حقيقة الحال في حكومة تلك الأيام . فقد يعوزنا أن نعلم كيف كان المقتولون يقتلون والمخلوعون يخلعون لنعلم كيف كان الفساد يجري في خلائق النفوس كما كان يجري في سياسة الدولة وأعمال الدواوين. فقصاري[1] مايدل عليه اطراد العدوان أن شريعة الحكم لاترعى وأن الحكام لاتتقى ، الا أن الحكومة قد تهزل هيبتها وتبطل شريعتها ثم تبقى للناس بعد ذلك حرمات أخرى يتقونها وآداب أخرى يحرصون

عليها . تبقى لهم حرمات المروءة وآداب العرف والدين أما فى ذلك العهد فقد بلغ التنكيل والتبشيع فى بعض حوادث الفتك مبلغا لاحرمة معه لشرع ولا لدين ولا لمروءة .

فمن أمثلة ما كان يصيب الخلفاء ما حدث للمعتز حين طالبه الجند الأتراك بأرزاقهم فلم يجدوا عنده ولا عند كتابه ووزرائه مالا : قال الطبرى فى أخبار سنة خمس وخمسين ومائتين : « فلم يرعه الا صياح القوم من أهل الكرخ والدور واذا صالح بن وصيف وبايكباك ومحمد ابن بغا المعروف بأبى نصر قد دخلوا فى السلاح فجلسوا على باب المنزل . . . ثم بعثوا اليه أن اخرج الينا فبعث اليهم أنى أخذت الدواء أمس وقد أجفلنى أثنتى عشرة مرة ولا أقدر على الكلام من الضعف: فان كان أمر لابد منه فليدخل الى بعضكم ، فدخل اليه جماعة من أهل الكرخ والدور من خلفاء القواد فجروا برجله الى باب الحجرة . قال: وأحسبهم كانوا قد تناولوه بالضرب بالدبابيس فخرج وقميصه مخرق فى مواضع وآثار الدم على منكبه فأقاموه فى الشمس .. فجعلت أنظر اليه يرفع قدمه ساعة بعد ساعة من حرارة الموضع الذى أقيم فيه . ورأيت بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده فذكر أنه لما خلع دفع الى من يعذبه ومنع الطعام والشراب ثلاثة أيام فطلب حسوة من ماء البئر فمنعوه ، ثم جصصوا سردابا بالجص السخين ثم أدخلوه فيه وأطبقوا عليه بابه فأصبح ميتا ، وكانت وفاته لليلتين خلتا من شعبان فى هذه السنة . فلما مات أشهد على موته بنو هاشم والقواد وأنه صحيح لاأثر فيه » .. ومن أمثلة ما كان يصيب الوزراء ماحدث لمحمد بن عبد الملك الزيات فى أيام المتوكل وذكره الطبرى فى أخبار سنة ثلاث وثلاثين ومائتين . قال بعد أن ذكر مصادرة الأموال ونهب الدور وضم الضياع: « لم يزل أياما فى حبسه مطلقا ثم أمر بتقييده فقيد وامتنع من الطعام وكان لايذوق شيئا ، وكان شديد الجزع فى حبسه كثير البكاء قليل الكلام كثير التفكر ، فمكث أياما ثم سوهر ومنع من النوم : يساهر وينخس بمسلة . ثم ترك يوما وليلة فنام وانتبه فاشتهى فاكهة وعنبا فأتى

به فأكل ثم أعيد الى المساهرة ثم أتى بتنور من خشب فيه مسامير حديد ... وكان هو أول من عمل ذلك فعذب به ابن أسباط المصرى حتى استخرج منه جميع ما عنده ثم ابتلى به فعذب به أياما . وذكر عن الدنداني عن الموكل بعذابه أنه قال : كنت أخرج وأقفل الباب عليه فيمد يده الى السماء جميعا حتى يدق موضع كتفيه ثم يدخل التنور فيجلس ، والتنور فيه مسامير حديد وفى وسطه خشبة معترضة يجلس عليها المعذب اذا أراد أن يستريح ، فيجلس على الخشبة ساعة ثم يجىء الموكل به فاذا هو سمع صوت الباب يفتح قام قائما كما كان ثم شدوا عليه ، قال المعذب لى : خاتلته يوما ورأيته أنى أقفلت الباب ولم أقفله . انما أقفلته بالقفل ثم مكثت قليلا ثم دفعت الباب غفلة فاذا هو قاعد فى التنور على الخشبة ، فقلت أراك تعمل هذا العمل ؟ فكنت اذا خرجت بعد ذلك شددت خناقه فكان لا يقدر على القعود واستلت الخشبة حتى كانت تكون بين رجليه فما مكث بعد ذلك أياما حتى مات ، واختلف فى الذى قتل به فقيل بطح فضرب على بطنه خمسين مقرعة ثم قلب فضرب على ظهره مثلها ، فمات وهو يضرب وهم لايعلمون . فأصبح ميتا قد التوت عنقه ومتغت لحيته ، وقيل مات بغير ضرب ، وذكر عن مبارك المغربى أنه قال : ما أظنه أكل فى طول حبسه الا رغيفا واحداً ، وكان يأكل العنبة والعنبتين قال : وكنت أسمعه قبل موته بيومين أو ثلاثة يقول لنفسه يا محمد يا ابن عبد الملك ! لم تقنعك النعمة والدواب الفره والدار النظيفة والكسوة الفاخرة وأنت فى عافية حتى طلبت الوزارة ! ذق ما عملت بنفسك ! فكان يكرر ذلك على نفسه ، فلما كان قبل موته بيوم ذهب عنه عتاب نفسه فكان لايزيد على التشهد وذكر الله » والذى روى عن التمثيل بالمذنبين — ولاسيما فى أيام المعتضد — أفظع من هذا وأعنف . وكأنما كان التقطيع بهم فرجة يتفننون فى ابتداع أشكالها وأساليبها ليلهوا بها النظارة ويذكروها فيما يذكرون من مشاهد المجون والفكاهة !

أساس هذا الشر كله سببان غالبان هما القطيعة بين بنى العباس

والعرب : ونظام الاقطاع الذى تمادى فيه بنو العباس حتى انتهى الى تصدع العالم الاسلامى وتشعبه فى مدى قرنين اثنين بضع عشرة شعبة .

فبنو العباس كانوا قوما موتورين طال عليهم الظلم واحتمال المكاره وكانوا ينقمون على العرب أنهم خذلوا آل النبى فى نضالهم مع بنى أمية وباعوهم بيع السماح لما استمالهم الأمويون بالعطايا والوعود فلبثوا زمانا يسامون الذل ويلعنون على المنابر ويشهدون قتل رجالهم وسبى نسائهم وهم آل النبى الذى لم يسأل قومه على الهداية أجرا الا المودة فيهم ، وابتلوا بكل محنة فى دولة الأمويين ولا من يغضب لهم أو يجنح اليهم . ولقد كان بنو العباس شركاء بنى على فى الوتر وان كان المصاب فى معظمه مصاب هؤلاء ، لأنهم كانوا جميعا من آل البيت ينالهم من الذل ما ينال كل منتم اليه . ثم لما قامت لهم آخر الأمر دولة لم تقم على أيدى العرب وهم أولى الناس أن ينصروهم وتأخذهم الغيرة لهم ، وانما قامت على أيدى الفرس الذين كانوا ينقمون مثلهم على الدولة العربية . فامتلأت نفوسهم حفيظة على العرب وانقطع مابينهم وبينهم من صلة المودة والطمأنينة وشعروا لهم فى نفوسهم بما يشعر به المظلوم لمن ظلموه أو أعانوا عليه ظالميه ، والموتور اذا خاب ظنه في انصاف الناس وساء رأيه فى أمانتهم واخلاص طويتهم لم يعرف لهم حقا ولم يرع لهم ذمة ولم يجر الأمر بينه وبينهم الا على المنفعة والرهبة دون الثقة والمودة، ومن هنا كانت تلك السياسة النفعية الفاتكة التى اشتهر بها أساطين بنى العباس ومضى عليها خلفاؤهم من بعدهم ، وجاء اتصالهم بأجلاف الأعاجم من قبائل الترك والديلم فنقلوا عنهم ضروبا من المثلات التى تعودها هؤلاء الأعاجم فى وحشية البداوة .

قيل ان العباسيين انما قربوا اليهم الفرس والأعاجم واتخذوا منهم الأعوان والقواد مكافأة لهم على نصرهم اياهم وتأييدهم لهم على أعدائهم ... والحقيقة أن بنى العباس كانوا يتوجسون من العرب

قبل أن تقوم لهم دولة وتنتظم لهم عقدة ، وكان ابراهيم بن محمد بن علي صاحب الدعوة قبل السفاح يكتب الى أبي مسلم : « ان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربياً فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » فهو الحذر من العرب الذى أبعد هؤلاء وأخملهم فى دولة بنى العباس ، وليست مكافأة الفرس ومن اليهم ، ثم توالت الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة ، فلما كان الخلاف بين الأمين والمأمون ذهب العرب مع الأمين لأن أمه عربية وذهب الفرس مع المأمون لأن أمه فارسية ، وقتل الأمين وانتصر المأمون فحفظها للعرب وأمعن فى اقصائهم وتقريب الأعاجم على تعدد أجناسهم ، ثم جاء المعتصم — وكانت أمه تركية — فاعتمد على جنود الترك وكثر اختلاف الأجناس فى جيش الدولة وولاة أمرها فضلا عن اختلاف الأجناس بين نساء القصور وأمهات الأمراء ، وتفاقمت أسباب الدسائس بين الملوك والأمراء والقادة والوزراء وحاشية القصور من رجال ونساء ، وبلغ من تفاقمها أن أشفق منها الجند والقواد الذين هم مساعير نيرانها فشغب الجند على قوادهم وتنازع القواد أمرهم فودوا جميعا لو يملكهم خليفة قوى يخيفهم ويحسم أسباب النزاع بينهم كما قال بغا الكبير : «نجيء بمن نهابه ونفرقه فنبقى وان جئنا بمن يخافنا حسد بعضنا بعضا فقتلنا أنفسنا » ثم اشتد اشفاقهم من تحاسدهم حتى طلبوا أن يتولى القيادة أمير من بيت الخلافة ولا يتولاها أحد منهم ، ولكن أسباب الشقاق كانت أكبر وأوسع من أن يحسمها مثل هذا التدبير العاجل الذى لا يطول الاستقرار عليه .

كان أمر الدولة اذن قائما على سوء الظن والدسيسة ، وقد ألف المؤرخون أن يذكروا اخلاص الفرس لبنى العباس حتى خيل الى بعض قراء التاريخ أن بنى العباس كانوا خليقين أن يطمئنوا الى جهة واحدة على الأقل من جهات الدولة ، وأن يسكنوا الى شعب واحد من شعوبها الكثيرة ، وما كان الأمر كذلك الا فى الظاهر الذى لاينخدع به رجال

من المحنكين المنحذرين كرجال الدولة العباسية ، فما نظن أبا مسلم نصير الدولة الأكبر الا كان طامعا فى الخلافة متربصا بأوليائه الدائرة ، ولهذا طمح الى مصاهرة بيت الملك وارتقى بنسبه الى العباس وبدأ باسمه فى مخاطبة الخليفة وأراد أن يؤم الناس فى موسم الحج واستعد للملك استعداده الذى لايخفى على أوليائه ، وما نظن البرامكة الا كانوا يفعلون فعل أبى مسلم فى شيء من التبصر وطول الأناة .

ولم لا يطمع هؤلاء وغيرهم وما كانت تعوز العظماء فى أمة الفرس أسباب الدعوة والانتقاض ؟ فان كان الأمر أمر الطمع والقوة فهاهم الفرس أصحاب القوة التى وصل بها العباسيون الى الخلافة ، وان كان أمر الدين والغيرة على آل البيت فها هم أبناء على عندهم يدعون لهم اذا شاءوا ويجدون من الناس مستمعا ومجيبا بعد ما أصاب العلويين على أيدى بنى العباس من قسوة وتنكيل وما أصاب العرب فى دولتهم من اهمال واطراح .

كان حكم بنى العباس حكم الموتور المستريب ولا يكون الا هكذا حكم الموتور المستريب . وأطبق نظام الاقطاع على هذه الآفة فتمت به البلية وتشعبت المقاصد حتى فشا سوء الظن ولم يبق موضع لثقة بين انسان وانسان من العاملين فى الحكومة .

نظـام الاقطـاع :

فنظام الاقطاع نظام معيب ولكنه يبقى مستور العيون ما بقيت هيبة الدولة وسطوة القائمين عليها . فاذا ضعفت وضعفوا فهو الشر المستطير يشقى به الحاكم والمحكوم وينخر فى أركان الملك فلا يدعه الا وهو مفكك الأجزاء معتور بأسباب الفناء .

فكان الولاة — والخلافة العباسية مرهوبة الجانب والأمور مستقرة فى عنفوانها — يؤدون المال الذى عليهم ويتعهدون الأرض والمرافق بالاصلاح لتغزر عندهم موارد الجباية وتدوم لهم وللناس منابع الثروة . فلما تقلقلت الخلافة وارتاب الولاة فى أمرها وفى أمرهم أهملوا الاصلاح وتهافتوا على جمع المال وحبسوا أرزاق العمال وأغفلوا مرافق الرعية ، فخربت الأرض وعم السخط وفسدت طاعة الجند على ما بها من فساد الشقاق والدسيسة ، ولجأ الخلفاء الى اغتيال الولاة والكتاب وكل من بأيديهم مال الجباية . فأعملوا فيهم القتل واستصفاء الأموال واستخراج الدفائن والمخبآت ، وأصبحت الكتابة والوزارة وما اليهما من وظائف الدولة كأنما هى رخصة بالظلم والغصب ريثما يحتاج الخلفاء الى ما جمعه الوزراء والكتاب فيحصلوا على المال من هذه الطريق ! وبلغ من شيوع الاختلاس أن الذين كانت بأيديهم خزائن الدولة شاركوا العمال وأصحاب الوظائف فى أرزاقهم فكانوا لايؤدون رزق عامل أو صاحب وظيفة الا اذا اقتطعوا منه اتاوة لأنفسهم واستكتبوه توقيعه باستيفاء رزقه ، غير مستثنين من ذلك أحداً حتى اخوة الخليفة وأهل بيته . بل قد بلغ من شيوع الاختلاس أن أصبح سراً مذاعا لا يكتم فى حضرة الخليفة نفسه ولا يبالى الوزير أو الكاتب أن يجهر بين يديه بفعله : فلما عرض الخليفة المهتدى لسليمان بن وهب بما كان يأخذه هذا من العمال « معجلا ومؤجلا » قال له سليمان : « يا أمير المؤمنين ! هذا قول لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا ، فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله، وان كان حقا وقد علمت أن الأصول محفوظة فما يضر من يساهمنى

من عمالى على بعض مايصل اليهم من غير تحيف للرعية ولا نقص للأموال ؟ » .

وراجت تجارة الارتشاء من العمال وعمال العمال حتى بلغت أقصى ماعساه أن تبلغه في أواخر أيام الدولة ، فقيل عن الخافاني فيما رواه الفخرى أنه ولى فى يوم واحد تسعة عشر ناظراً على الكوفة وقبض من كل واحد منهم رشوة ! فان كان قد بقى لحسن الظن بين ولاة الأمر بقية فهذه السرقات والرشاوي والمصادرات والنكبات قد أتت على هذه البقية ، فلم تدع بينهم الا علاقات الحذر والمساومة والتربص وفساد الطوية . ولا جرم تبيض الفتنة وتفرخ فى بيئة كهذه بين جند يشغبون وعمال يدلسون وعرب يحنقون وعلويين يتحفزون ورعية تمزقها براثن الرعاة وملوك لا يؤمنون على الملك ولا على الحياة .

وقد حضر ابن الرومى فى زمانه بعض هذه الفتن وسمع بما تقدمه وترك لنا فى شعره مثلا مما حدث في واحدة منها وهي فتنة الزنج التى اختلطت فيها الأسباب السياسية والدينية والاجتماعية ، فقال يصف ما حل بأهل البصرة على أيدى الثائرين .

كم أغصوا من شارب بشراب	كم أغصوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى	فتلقوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعاً	ترب الخد بين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه	وهو يعلى بصارم صمصام
كم مفدى فى أهله أسلموه	حين لم يحمه هنالك حام
كم رضيع هناك قد فطموه	بشبا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر	فضحوها جهراً بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها	بارزاً وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم	طول يوم كأنه ألف عام

ودرجت الأحوال على ذلك فلم يكن يهونها على الناس الا اتساع أرجاء البلاد الاسلامية وتفرق الفتن فى تلك الأرجاء ، والا فترات من

القوة يتاح فيها للدولة فى الحين بعد الحين خليفة حازم الرأى نافـذ العزيمة فتسكن غوارب الفتنة بعض السكون ويستقيم الولاة والعمال بعض الاستقامة وتعلو هيبته فيخشـاه المغيرون على الدولة من داخلها وخارجها وتفىء الرعية الى ظله زمناً حتى يحم أجله فتعود الأمور الى ما كانت عليه .

الحـالة الاجتماعية :

تنتهى الفوضى السياسية ـ اذا تطاول بها الزمن ـ الى الخراب والعسر ونضوب الأرزاق بين جميع الطبقات عاليها وهابطها على السواء. ولكن الفوضى لاتمنع الترف اذا هى جاءت فى البـداءة أو ترددت فى الفترة بعد الفترة ولم يطل بها زمن التخريب والافساد . فلا يندر أن يجتمع الترف والفـوضى فى طبقات من الدول المتـداعية التى ورثت السلطان القديم والثروة الواسعة ومظاهر الحضارة وأفانين المعيشـة الفاخرة . بل كثيرا ما تكون الفوضى من أسباب الترف والمغريات به ، لتعويدها النفـوس أن تخلد الى الدعة واغتنـام اللذة وأن تحجم عن المساعى الجليلة والآمال الرفيعة يأسا من كل غاية وشكا فى مصير كل نعمـة ، وعلما بأن الحيـاة لا تجرى على وتيرة ولا تنتظم فى سياق .

وكذلك كان القرن الثالث للهجرة قرن الفوضى والترف أو قرن الخطر و « التسلية » . بلغ فيه كلاهما مبلغه وسرت الى العصر جرائر العصور الأولى فجنى ثمارها خللا فى السياسة وبذخا فى المعيشة وحياة كحياة الجند ليلة الحرب كلها قصف وكلها استـسلام .

ورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم وأسـاليب اللهو فى هـذه الأمم وفى الأمم التى اتصلت بها من ترك وهند وصين، وتجمعت الأموال المستجيرة فى أيدى الأمراء وجباة الخراج وأصحاب التجارب الغادية الرائحة فى البر والبحر بما تستدعيه ضرورات العيش ونوافل الشهوات : فكثر المترفون المنعمون وشاعت فنون الخـلاعة والمجون وأصـبح لكل ضرب من ضروب اللهو علم يعرفه علمـاؤه ويقرب أهله الى الخلفاء وذوى الرئاسة حتى الرقص وما اليه فضلا عن الغناء والسماع . نقل المسعودى فى مروج الذهب أن الخليفة المعتمد قال لبعض من حضر من ندمائه : « صف لى الرقص وأنواعـه والصفة المحمودة من الرقاص واذكر لى شـمائله . فقال المسـئول : يا أمير

المؤمنين ! أهل الأقاليم والبلدان مختلفون في رقصهم من أهل خراسان وغيرهم . فجملة الايقاع في الرقص ثمانية أجناس : الخفيف والهزج والرمل وخفيف الرمل وثقيل الثاني وخفيفه وخفيف الثقيل الأول وثقيله، والرقاص يحتاج الى أشباء في طباعه وأشياء في خلقته وأشياء في عمله .. فأما ما يحتاج اليه في طباعه فخفة الروح وحسن الطبع على الايقاع وأن يكون طالبه مرحا الى التدبير في رقصه والتصرف فيه ، وأما ما يحتاج اليه في خلقته فطول العنق والسوالف وحسن الدل والشمائل والتمايل في الاعطاف ودقة الخصر وحسن أقسام الخلق .. ومخارج النفس والاراحة والصبر على طول الغاية ولطافة الأقدام .. ولين المفاصل وسرعة الانفتال في الدورات ولين الأعطاف ، وأما ما يحتاج اليه في عمله فكثرة التصرف في ألوان الرقص وأحكام كل جزء من حدوده وحسن الاستدارة وثبات القدمين على مدارهما ، واستواء ما تعمل يمنى الرجل ويسراها حتى يكون في ذلك واحداً . ولوضع القدم ورفعها واجبان أحدهما أن يوافق بذلك الايقاع والآخر أن يتثبط به . فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع فهو من الحب والحسن سواء ؛ واما ما يتثبط به فأكثر ما يكون هو فيه أمكن وأحسن فليكن ما يوافق الايقاع مترافعا وما يتثبط به متسافلا » .

وقس على ذلك سائر ضروب اللهو والترف . حتى انتهى القرن وأقبل ما بعده وللقوم في آداب المجالس وآداب المائدة مالم نسمع بمثله عن رومة وبيزنطة ، فكان من رؤسائهم من لا يأكل لقمتين بملعقة واحدة كما قيل عن الوزير المهلبي أنه «كان من ظرفه في فعله ونظافته في مأكله أنه اذا أراد أكل شيء بملعقة كالأرز واللبن وأمثاله وقف في جانبه الأيمن غلام معه نحو ثلاثين ملعقة زجاجا مجرودا ــ وكان يستعمله كثيراً ــ فيأخذ منه ملعقة يأكل بها من ذلك اللون لقمة ثم يدفعها الى غلام آخر قام في الجانب الأيسر ثم يأخذ أخرى يفعل بها فعل الأولى حتى ينال الكفاية لئلا يعيد الملعقة الى فيه دفعة ثانية »

واقتدى الأواسط والفقراء بالعلية والأغنياء فكثرت بيوت القيان والخمر وأمنت المعاقرة صبوحا وغبوقا وشاع اقتناء الجوارى والغلمان واستبيحت اللذات على أنواعها مألوفها وغير مألوفها وطيبها وخبيثها، فتكشفت الوجوه وقل الحياء وخف موقع الهجر والبذاء على الاسماع، ولا سيما حين أصبح الحكام والولاة هم قدوة الناس فى هذه الأفانين وهم موضع النعمة التى تصبو اليها نفوس المحرومين، وفى احدى قصائد ابن الرومى البائية وصف لعيش الكتاب والموسرين لا بأس بأن نلحقه بهذا الباب لدلالته على ذلك العصر وعلى موقع هذه اللذات من نفس الشاعر، وذلك حيث يقول:

أترانى دون الأولى بلغوا الآ … مال من شرطة ومن كتاب
وتجار مثل البهائم فازوا … بالمنى فى النفوس والأحباب

. . . .

خير ما فيهم ولا خير فيهم … انهم غير آثمى المغتاب
ويظلون فى المناعم واللذ … ات بين الكواعب الأتراب
لهم المسمعات ما يطرب السا … مع والطائفات بالأكواب

. . . .

من جوار كأنهن جوار … يتسلسلن من مياه عذاب
لابسات من الشفوف لبوسا … كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجوهر المضىء سناه … شعلا يلتهبن أى التهاب

. . . .

لهف نفسى على مناكير للنـ … ـكر غضاب ذوى سيوف عضاب
تغسل الأرض بالدماء فتضحى … ذات طهر ترابها كالملاب (١)
من كلاب نأى بها كل نأى … عن وفاء الكلاب غدر الذئاب
واثبات على الظباء ضعاف … عن وثاب الأسود يوم الوثاب

(١) طيب يشبه الزعفران

شرط حولوا عقــائل بيضــا   لا بأحسابهم بل الاكســـاب
من ظبـــاء الأنيس تلك اللواتى   تترك الطـــالبين فى أنصــاب
فاذا ما تعجب النـــاس قــالوا   هل يصيد الظباء غــير الكلاب؟
أصبحوا ذاهلين عن شجن النــا   س وان كان حبلهم ذا اضــطراب
فى أمور وفى خمور وسمور (١)   وفى قــاقم وفى ســـنجاب
وتهــاويل غــير ذاك من الرقـ   ـم ومن سندس ومن زرياب (٢)
فى جبــير منمنم وعبـــير   وصـــحان فسـيحة ورحــاب
فى ميـــادين يخترقن بســـا   تين تمس الرءوس بالاهـــداب
ليس ينفـك طيرها فى اصطحاب   تحت اظلال أيكهــا واصطخاب
من قرينين أصــبحا فى غنــاء   وفريدين أصــبحا فى انتحــاب
بين أفنــانها فواكه تشـــفى   من تداوى بهـــا من الأوصاب
فى ظلال من الحرور واكنـــا   ن من القــر جمة الحجـــاب
عندهم كل ما اشــتهوه من الآ   لات والاشربات والأشواب (٣)
والطــروقات والمراكب والولد   ان مثــل الشــوادن الأسراب
واليلنجوج (٤) فى المجــامر والنـ   ـد ترى نشره كمثــل الضباب
والغوالى وعنبــر الهند والمسك   على الهــام واللحى كالخضــاب
ولديهم وذائل الفضــفض البيـ   ـض تباهى ســبائك الأذهاب
لم أكن دون مالكى هذه الأملا   ك لو أنصــف الزمان المحــابى

ففى هذه القصيدةوصف وافلمناعم العيش فى بيوت الطبقات الموسرة ومعظمها من « الموظفين » . وفيها — مع هذا الوصف الوافى — تفسير واضح لتهالك الناس على العمالة والكتابة وسائر الوظائف التى يأتى رزقها من المرتبات والجبايات والرشى والاسلاب ، وفيها — مع هــذا وذاك — تفسير لنقمة الطبقات المحرومة وللثــورات التى كانت تهب

(١) أسماء انواع من الفراء   (٢) ماء الذهب
(٣) جمع شوب وهو مايخلط بغيره   (٤) عود للتبخر به

من هنا وثم لرد الظلامات وانصاف الفقراء . وأى شيء أدل على مثلب الثورة والتلهف على قلب الأحوال والتأهب لتلبية الداعين الى الشغب من قول شاعر وديع كابن الرومى :

لهف نفسى على مناكير للنب ... كر غضاب ذوى سيوف عضاب
تغسل الأرض بالدماء فتضحى ... ذات طهر ترابها كالملاب
من كلاب نأى بها كل نأى ... عن وفاء الكلاب غدر الذئاب

لاجرم يكون ذلك العصر عصر الحيرة والانتظار ، ولا جرم تتأهب فيه النفوس لدعوة الجماعات السرية وتتعلق الآمال بالمهدى المنتظر والمصلح الأكبر الذى يغسل الأرض بالدماء ... ولا جرم يكون ذلك العصر هو عصر بابك الخرمى وداعية الزنج والقرامطة وغيرهم من الثوار وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء المنزوفين بالدعوة الى المساواة والتمرد على الحكام ، وكان ذلك على أكثره فى بلاد الفرس حيث بقى الفلاحون كما كانوا فى عهد الأكاسرة يسامون سوم الأنعام ويستنزفون كما كان يستنزفهم الأمراء والملوك المؤلهون فى غابر الزمان ، ثم كان ذلك على أكثره فى المرافىء والثغور حيث تكثر الحركة ويزدحم العمال والصناع ويرتفع السعر ويشتد التنافس بين الطبقات .

على أن هذه الأحداث كانت تمر بالدولة وهى باقية سليمة منهما بعض السلامة ، لأنها — كما أسلفنا — كانت تتلقاها متفرقة فى الأماكن والأوقات ، وكان شغب الشاغبين يوصم بالكفر والافساد فى الأرض ويسمى القائم به تارة باسم الفاسق وتارة أخرى باسم المارق أو الفاجر أو الخبيث ، فينسى اسمه الأول ولا يذكر الا بهذا الاسم المنتحل : وكانت هذه الثورات بتراء ليست لها وجهة مرسومة ولا خطة معلومة . فكانت تعوزها عناصر الدعوة المشروعة المستجابة التى تلتف بها الجماهير وتستبسل فيها ، فلا توشك الثورة أن تستفحل حتى تفتر وتضمحل وتثوب الأمور الى نصاب .

هذا والقصور سادرة في غيها قلماتحس لهذه المشكلات الاجتماعية أثرا أو تتحرك لعلاج أسبابها الدفينة الا فى العهد بعد العهد والصحوة بعد الصحوة ، ولا تراها فيما عدا ذلك الا غارقة في بذخها مفتنة فى زينتها ولهوها : المهندسون والمزخرفون والمطربون والطهاة والندماء يستبقون في تجويد أساليب المعيشة وجلب ألوان المسرة . ومجالس الطرب تدخل على المجتمع العالى بعرف جديد من الآداب والأذواق، فلا يكون الأدب الا أدبها ولا الذوق الا ذوقها ولا يحسب الوزير وزيرا ولا الرئيس رئيسا ان لم يكن مع ذلك نديما يحسن المجد والمفاكهة ويصلح للمجلس قبل صلاحه لسياسة الدولة ؛ فاصبحت المنادمة باب السلوك الى الملوك وسلم الوصول الى الحظوة عندهم والدالة عليهم . والنقض والابرام فى شئون الدولة بالزلفى الى أهوائهم، واحتاج الى علم هذه الصناعة كل ذى خطر في الدولة لما كان عسى أن يحتاج اليه من الترويح عن الخليفة وحسن المدخل عليه فى ساعات صفوه وغضبه ونوبات اقباله واعراضه . وكان أعلى ما يرجوه صاحب العلم والأدب والفضل والكياسة أن يصبح نديما لملك أو مربيا لابن ملك . وهما عملان متقاربان متشابهان فى الآلة والكفاءة . ولم يكن من السهل أن يحذقهما الأديب لأنهما صناعة تجمع صناعات وفن يلم بشتى فنون ، واليك مثلا ما كان يعرفه النديم الذى كان يرتقى به الحظ الى مجالسة الأمراء والخلفاء . نقل ياقوت فى معجم الأدباء عن أمالى جحظة النديم أن يزيد بن محمد المهلبى قال : « كنت أرى على بن يحيى المنجم فأرى قبح صورته وصغر خلقته ودقة وجهه وصغر عينيه واسمع بمحله من الواثق والمتوكل فأعجب من ذلك وأقول : بأى سبب يستظرفه الخليفة وبماذا حظى عنده والقرد أملح من قباحته ؟ فلما جالست المتوكل رأيت على بن يحيى قد دخل على المتوكل فى غداة من الغدوات التى قد سهر فى ليلتها بالشرب ، وهو مخمور يفور حرارة . يستثقل لكل أمر يخف دون ما يثقل ، فوقف بين يديه وقال : يامولاى! أما ترى اقبال هذا اليوم وحسنه واطباق الغيم على شمسه وخضرة هذا البستان ورونقه ، وهو يوم تعظمه الفرس وتشرب فيه لأنه هرمزروز

(يوم هرمزد له الخير) وتعظمه غلمانك واكرتك مثلي من الدهاقين، ووافق ذلك ياسيدى أن القمر مع الزهرة فهو يوم شرب وسرور وتخل بالفرح ، فهش اليه وقال : ويلك يا علي ! ما أقدر أن أفتح عيني خماراً. فقال : ان دعا سيدي بالسواك فاستعمله وغسل بماء الورد وجهه وشرب شربة من رب الحصرم أو من متنة مطيبة ، مبردا ذلك بالثلج انحل كل ما يجد . فأمر باحضار كل ما أشار به فقال علي : يا سيدي والى أن تفعل ذاك تحضر عجلانيتان بين يديك مما يلائم الخمار ويفتق الشهوة ويعين على تخفيفه ، فقال احضروا علياً كل ما يريد . فأحضرت العجلانيتان بين يديه وفراريج قد صففت على أطباق الخلاف ، وطبخ حماضية وحصرمية ومطجنة (١) لها مريقة فلما فاحت روائح القدور هش لها المتوكل فقال له : يا علي أذقني . فجعل يذيقه من كل قدر بجرف يشرب فيها . فهش الى الطعام وأمر باحضاره ، فالتفت علي الى صاحب الشراب فقال له : ينبغي أن يختار لأمير المؤمنين شراب ريحاني ويزاد في مزاجه الى أن يدخل في الشرب فيهنئه الله اياه ان شاء الله . قال : فلما أكل المتوكل وأكلنا نهضنا فغسلنا أيدينا وعدنا الى مجالسنا وغنى المغنون فجعل علي يقول : هذا الصوت لفلان والشعر لفلان ، وجعل يغني معهم وبعدهم غناء حسناً الى أن قرب الزوال ، فقال المتوكل : أين نحن من وقت الصلاة ؟ فأخرج علي اصطرلاباً من فضة في خفة ، فقاس الشمس وأخبر عن الارتفاع وعن الطالع وعن الوقت. فلم يزل يعظم في عيني حتى صار كالجبل وصارت مقابح وجهه محاسن. فقلت لأمر ماقدمت : فيك ألف خصلة — طبيب ومضحك وأديب وجليس وحذق طباخ وتصرف مغن وفكر منجم وفطنة شاعر .. ما تركت شيئاً مما يحتاج اليه الملوك الا ملكته » .

وعلي بن يحيى هذا هو الذى ذكر ياقوت قبيل ذلك انه « كان بكركر من نواحي القفص ضيعة نفيسة لعلي بن يحيى المنجم وقصر

---

(١) يراجع كتاب الاطعمة الموجود منه نسخة فوتوغرافية بالكتبة المصرية لمعرفة معظم هذه الاصناف وطريقة تحضيرها .

جليل فيه خزانة كتب عظيمة يسميها خزانة الحكمة يقصدها الناس من كل بلد فيقيمون فيها ويتعلمون منها صنوف العلم ، والكتب مبذولة فى ذلك لهم والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى . فقدم أبو معشر من خراسان يريد الحج ، وهو اذ ذاك لايحسن كبير شيء من النجوم ، فوصفت له الخزانة فمضى ورآها فهاله أمرها ، فأقام بها وأضرب عن الحج وتعلم فيها النجوم وأغرق فيها حتى ألحد ، وكان ذلك آخرة عهده بالحج وبالدين والاسلام » .

كذلك كانت مجالس المجتمع العالية وآداب جلاسها وندمائها . والحديث الذى نقله ياقوت مظنة للزيادة والتأليف فى بعض أجزائه ولكنه يدل فى جملته على المناقب والخصال التى كانت تطلب من النديم فى ذلك الزمان . وترى من هذا الحديث كيف كانت سنة الفرس غالبة على مجالس الطرب وآدابها ومواعيدها وأدواتها ، كما ترى ذلك من أوصاف المهرجانات والنواريز وأعياد الطبيعة ومنازه الرياضة والألعاب والصيد والطرد وسائر المراسم والأزياء .

***

اذا تلخصت الحالة السياسية فى سوء الظن فقد تلخص الحالة الاجتماعية فى اغتنام الفرصة . وان هذا وذاك فى الحالتين لكالشيء وظله أو كالصوت وصداه .

الحــالة الفــكرية :

قال ابن قتيبة في مقدمة كتابه « أدب الكاتب » يصف حالة عصره من العلم والأدب :

« اني رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشيء منهم فراغب عن التعلم والشادي تارك للازدياد والمتأدب في عنفوان الشباب ناس أو متناس، ليدخل في جملة المجدودين ويخرج عن جملة المحدودين . فالعلماء مغمورون وبكرة الجهل مقموعون ، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله وصار العلم عاراً على صاحبه :والفضل نقصاً وأموال الملوك وقفاً على شهوات النفوس والجاه الذي هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق ، وآضت المروءة في زخارف النجد(١) وتشييد البنيان ، ولذات النفوس في اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان ، ونبذت الصنائع(٢) وجهل قدر المعروف وماتت الخواطر وسقطت همم النفوس. فأبعد غايات كاتبنا في كتابته أن يكون حسن الخط قويم الحروف ، وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قينة أو وصف كأس ، وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب وينظر في شيء من القضاء ومن المنطق ثم يعترض على كتاب الله بالطعن وهو لايعرف معناه ؛ وعلى حديث رسول الله بالتكذيب وهو لا يدري من نقله . قد رضي عوضا من الله ومما عنده بأن يقال فلان لطيف وفلان دقيق النظر : يذهب الى أن لطف النظر قد أخرجه من جملة الناس وبلغ به علم ما جهلوه ، فهو يدعوهم الرعاع والغثاء والغثر وهو لعمر الله بهذه الصفات أولى وهي به أليق ! لأنه جهل وظن أن قد علم فهاتان جهالتان ، ولأن هؤلاء جهلوا وعلموا أنهم يجهلون . ولو أن هذاالمعجب بنفسه الزاري على الاسلام برأيه نظر من جهة النظر لأحياه الله بنور الهدى وثلج اليقين ، ولكنه طال عليه أن ينظر في علم الكتاب وفي أخبار الرسول وصحابته وفي علوم العرب ولغاتها وآدابها فنصب لذلك

---

(١) الاثاث والفراش
(٢) جمع صنيعة وهي البر

وعاداه وانحرف عنه الى علم قد سلمه له ولأمثاله المسلمون وقل فيه المتناظرون ، له ترجمة تروق بلا معنى واسم يهول بلا جسم . فاذا سمع الغمر والحدث الغر قوله : الكون والفساد وسمع الكيان والأسماء المفردة والكيفية والكمية والزمان والدليل والأخبار المؤلفة — راعه ما سمع وظن أن تحت هذه الألقاب كل فائدة وكل لطيفة ، فاذا طالعها لم يحل منها بطائل ! انما هو الجوهر يقوم بنفسه والعرض لا يقوم بنفسه، ورأس الخط النقطة والنقطة لاتنقسم، والكلام أربعة أمر وخبر واستخبار ورغبة : ثلاثة لايدخلها الصدق والكذب وهي الأمر والاستخبار والرغبة ؛ وواحد يدخله الصدق والكذب وهو الخبر ! والآن حد الزمانين ! مع هذيان كثير .. ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام في الدين والفقه والفرائض والنحو لعد نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب .. فلما أن رأيت هذا الشأن كل يوم الى نقصان وخشيت أن يذهب رسمه ويعفو أثره جعلت له حظا من عنايتي وجزءا من تأليفي ، فعملت لمغفل التأديب كتباً خفافا في المعرفة وفي تقويم اللسان واليد يشتمل كل كتاب منها على فن وأعفيته من التطويل والتثقيل .. وليست كتبنا هذه لمن لم يتعلق من الانسانية الا بالجسم ومن الكتابة الا بالاسم ولم يتقدم من الأداة الا بالقلم والدواة . ولكنها لمن شدا شيئاً من الأعراب فعرف الصدر والمصدر والحال والظرف وشيئاً من التصاريف والأبنية وانقلاب الياء عن الواو والألف عن الياء وأشباه ذلك . ولابد له مع كتبنا هذه من النظر في الأشكال لمساحة الأرضين حتى يعرف المثلث القائم الزاوية والمثلث الحاد والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار والمربعات المختلفات والقسي والمدورات والعسودين ؛ ويمتحن معرفته بالعمل في الأرضين لا في الافاتر ؛ فان المخبر ليس كالمعاين وكانت العجم تقول : من لم يكن عالما باجراء المياه وحفر فرص المشارب وردم المهاوى ومجارى الأيام في الزيادة والنقص ودوران الشمس ومطالع النجوم وحال القمر في استهلاله واقفا له ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا

ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه وحال أدوات الصناع ودقائق الحساب كان ناقصا فى حال كتابته . ولابد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس وتحفظ عيون الحديث ، ليدخلها فى تضاعيف سطوره متمثلا اذا كتب ويصل بها كلامه اذا حاور ، ومدار الأمر على القطب وهو العقل وجودة القريحة ، فان القليل معهما باذن الله كاف والكثير مع غيرهما مقصر » .

هكذا كان حلم ابن قتيبة على عصره .

وابن قتيبة أديب لغوى فقيه ولد فى أوائل العقد الثانى من القرن الثالث ومات فى سنة ست وسبعين ومائتين ، ونشأ وعاش فى بلاد العراق . فهو معاصر ابن الرومى فى زمنه وقرينه فى وطنه وشاهد عيان لذلك العصر يحدث عنه بما اختبر ورأى من صفات أهله .

فهل أصاب ابن قتيبة أو أخطأ فى حكمه ؟

لم يصب كل الصواب ولم يخطىء كل الخطأ ، وأيا كان حظه من الصواب أو الخطأ فقد مثل عصره أحسن تمثيل ينظر اليه صاحب الأدب واللغة والفقه ، وغاب عنه ما وراء ذلك من نظر لايحيط به الذين يتحزبون لهذه العلوم على فروع العلم كافة .

فمن حسن تمثيله للعصر أنك تعرف من مقدمته كل ما كان يشتغل به أبناء عصره أو لايشتغلون به من المعارف القديمة والحديثة ، وأنك تعرف منه أن العصر لم يكن عصر العلوم القديمة وحدها ، لأن العلوم الحديثة المنقولة والموضوعة أصبحت شرطا فى الكاتب والأديب لاتتم بغيرها كتابته وأدبه . حتى رأى مثل ابن قتيبة أنه فى حاجة الى اظهار مساهمته فى هذه المعرفة وهو يدعو الى علم اللغة والكتابة ، لئلا يستجهل ويعرض عنه .

والمعاصر من بعض الوجوه أصلح الناس للحكم علىَ عصره، ولكنه من وجوه أخرى أقل الناس صلاحا لانصافه والاحاطة بجميع نواحيه .

فهناك أشياء يراها القريب ولا تدخل فى رؤية البعيد ، وهناك أشياء يحيط بها البعيد ولا يلمح منها القريب الا اليسير . كالناظر الى القمر فى المنظار يرى جزءا منه كبيراً مفصلا ولكنه لايراه كله ولا يقع نظره على ما حوله . ومثل هذا ما حدث لابن قتيبة حين كبر وصغر وتناول المقياس ليقدر فأخطأ فيما قدر .

أخطأ ابن قتيبة فى شرح حالة العلم والتفكيريين أبناء عصره لأسباب متعددة : منها أن العلم لم يكن منهجا واحداً فى ذلك العصر ولكنه كان مناهج كثيرة تشتمل على منهج أهل السنة المتشددين فى انكار البدع ، ومنهج الفرق الاسلامية التى تدخل فيها فرق الشيعة وفرق المعتزلة على اختلافها وتباعد المسافة بينها ، ومنهج العلوم الحديثة من يونانية وفارسية وهندية وغيرها من مستحدثات الترجمة والابتكار ، ومنهج المتأدبين المتظرفين الذين يقتبسون كل قبس ويستطرفون كل طرفة . الى غير ذلك من المناهج التى تتقارب وتتباعد على نحو مما نعهد فى زماننا الذى نحن فيه .

وقد كان الخلاف والتعصب بين هذه المناهج على أشده فى العراق لأنه كان مجمع العواصم وملتقى العرب والعجم ومثابة العلماء والأدباء من جميع الطوائف والمذاهب ، فرأى ابن قتيبة هو رأى المتشددين أنصار العلوم العربية لايرون غيرها الا فضولا أو كالفضول ولا يحسبون المنطق والفلسفة والرياضة وما اليها الا لغواً قصاراه أن يلغط اللاغط بالكمية والكيفية والخط والنقطة والجوهر والعرض مع « هذيان كثير » .

ولكنه مع ازدرائه هذه العلوم الحديثة لم يلبث أن فرق من تهمة الجهل بها فذكر أطرافا من مصطلحاتها ودل بذلك على خطرها الذى لايزدرى ، ولكنها كما رأى القارىء أطراف مقتضبة كالتى نعاها على الأغرار المفتونين بظواهر تلك العلوم ، فلا يقولها القائل وله علم صحيح بما وراء تلك الأطراف .

ومن الأسباب التى باعدت بين الأديب اللغوى والاصابة التامة فى

تمثيل عصره أنه كان أديباً ولغوياً ، وكان سبيل العلم بالأدب واللغة أن يتحرى الطالب ما تقدمه وأن يرتقي في تحري القدم الى أبعد عصوره . فلا ينظر الى العصور التي خلفت بعد العرب الأسبقين الا على أنها عصور نازلة منحدرة تمعن في الجهل والاسفاف بمقدار امعانها في البعد من العربية الجاهلية ! فعنده أن السلف قد ذهبوا بالخير كله ولم يبق للمتأخرين الا أن ينعوا زمانهم ويأسوا على مافاتهم ! وكل زمان هو شر الأزمنة في أوانه وخير الأزمنة — أو من خيرها — متى لحق بالماضي العريق ! وما برح ذم الانسان عصره وانتقاصه اياه ديدن كل أديب فيما غبر وديدن بعض الأدباء في هذه الأيام . فابن قتيبة انما جرى على هذه العادة التي لاتستغرب في عهد البداوة العربية وفي عهد كل بداوة طبعت على تعظيم السلف والتفاخر بالأنساب والرجوع الى القديم .

على أن الرجل لو تجرد من هذه العادة لبقي سبب آخر لعله كان يمنعه أن ينصف أبناء عصره أو يستجمع أخبارهم ويحسن المقابلة بينهم وبين من سبقهم ولحق بهم من أمثالهم . فربما كان بعض الجهابذة في أيامه متباعدين متفرقين في أقطار ذلك الملك الواسع لايسمع بهم الا لماما ، وربما كان القريبون منه في طريق العمل فلم يستووا بعد على غاية السنة ولم يلبسوا بعد هالة الخلود والشهرة ، وذلك فضلا عن الذين جاءوا بعده بقليل فهو لايعرفهم ولا يطالب بأن يعرفهم .

والحقيقة أن ذلك العصر كان من أزهى عصور العلم في بلاد الاسلام قاطبة ؛ لأنه كان أول عصر تلقى علوم الثقافة الاسلامية كلها كاملة مفروغا من وضعها وترجمتها وتحضيرها غير مستثنى منها علوم السنة والعربية التي كان ابن قتيبة يتوفر عليها .

ففي القرن الثالث تمت المذاهب الأربعة في الفقه وظهرت آثار أقطاب الحديث كالبخاري ومسلم وأبي داود وابن ماجه والترمذي والنسائي ، ونزعت السياسة الى تأييد أهل السنة أيام الخليفة المتوكل ثم انتهى القرن بظهور أبي الحسن الأشعري الذي مال من مذهب

المعتـزلة الى مذهب أهل السـنة فقيل فيه « كان المعتـزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعرى فحجزهم فى أقماع السمم » . ولم يخل علم من العلوم القديمة أو الحديثة من أعلام نبغوا فى القرن الثالث أو حضروا أوائله ؛ حتى العلوم العربية التى كان ابن قتيبة يتهم القوم باهمالها والجهل بفضائلها : وهى علوم الرواية والنحو والأدب . فمن رجالها المشهورين الذين حضروا ذلك القرن الفراء ؛ وابن السكيت، وقطرب ؛ وابن الأعرابى ونفطويه والجاحظ وأبو عثمان المازنى وثعلب والزجاج والمبرد وابن الانبـارى وابن دريد والأخفش والسجستانى والصولى والرياشى وأبو سعيد البكرى وقدامة بن جعفـر وابن أبى الدنيا وابن العلاء السكرى وكثيرون ممن يضارعون هؤلاء أو يقلون عنهم فى الطبقة والشهرة . أما العلوم الأخرى فقد تأسس فى ذلك القرن التاريخ والجغـرافية وعاش فيه من المؤرخين والجغـرافيين البلاذرى واليعقـوبى وأبو حنيفة الدينورى وأبو زيد البلخى والطبرى وابن البطـريق وابن خرداذبه وابن الفقيه وابن رسـته وبزرك بن شهريار وآخرون ، وكان من فلاسفته الكندى والفارابى وابن سـينا ؛ ومن أطبائه الرازى وابن سهل وابن ماسويه ؛ وراج علم النجوم حتى أوشك ألا يكون فى ذلك الزمن الا منجم !

ولم يقتصر الأمر على نبوغ هؤلاء الأعلام فى منـاهج العلم المختلفة بل تجاوزه الى طوائف الناس من خاصة وعامة . فتحدثوا بالعـلوم واشتغلوا بمحاوراتها ومناظراتها وأقبلوا على اقتناء كتبها ؛ فكان العصر عصر ثقافة عامة كثرت فيه المشاركة فى مسائل البحث والمطالعة وشـاع ذلك بين الناس أوسع شيوع ، حتى كان الرجل منهم يجمع بين أشتات الثقافة فى زمنه كما رأيت فيما نقلناه عن على بن يحيى المنجم أو كما ترى من قول ابن الرومى فى رجل يصفه بدعوى العلم فى معـرض الهجو والتهكم :

قـولا لطـوط أبى على ... بصرينا الشـاعر المنجم
المنـذر المضحك المغنى ... الكاتب الحاسب المعلم

الفيلسوف العظيم شأناً العائف القائف المعزم
الماهن الكاهن المعادى في نصر ابليس كل مسلم

وبلغت هذه النهمة العلمية حداً أضجر الظرفاء كما أضجر المتشددين، فكان الفتى المهذب يومئذ اما طالب علم قديم أو طالب علم حديث أو مشاركا في هذا وذاك أو ظريفا ضجراً من أكثر هؤلاء على حد وصف ابن المعتز :

قليل هموم القلب الا للذة ينعم نفساً آذنت بالتنقل
فان تطلبه تقتنصه بحانة والا ببستان وكرم مظلل
يعب ويسقى أو يسقى مدامة كمثل سراج لاح في الليل مشعل
ولست تراه سائلا عن خليفة ولا قائلا من يعزلون ومن يلي
ولا صائحا كالعير في يوم لذة يناظر في تفضيل عثمان أو علي
ولا حاسبا تقويم شمس وكوكب ليعرف أخبار العلو من اسفل
يقوم كحرباء الظهيرة ماثلا يقلب في اصطرلابه عين أحول
ولكنه فيما عناه وسره وعن غير مايعنيه فهو بمعزل

والظاهر أن علم النجوم والرياضيات على الجملة كان أروج العلوم الحديثة وأكثرها طلاباً، لطرافته وموافقته أحوال الزمن وتقلباته وشيوع الحضارة الفارسية التي كان أهلها يعبدون الكواكب وينوطون بها مقادير الخير والشر وطوالع السعود والنحوس ، ولم يكن الايمان بالسعد والنحس والزجر والقيافة غريباً عن العرب فقبلوا العلم الحديث غير متعسرين ، وأفرطوا فيه ذلك الافراط الذي لم يرض عنه ابن قتيبة ولم يرض عنه ابن المعتز ، وهما في هذا المقام طرفان !

وربما كان من تمام البيان عن آراء المتعلمين يومئذ في فنون العلوم المختلفة أن نأتي هنا على رأي « النجوميين » في أنصار القديم كما أتينا على رأي أنصار القديم في النجوميين . فقد كان هؤلاء يهزءون بالمتشددين كما كان المتشددون يهزءون بهم ، وكانت لهم في التنادر بالقوم دعابات ونكات أظرفها وضع فيما نظن على لسان أحمد بن

ثوابة الكاتب المعروف فى زمنه وجمعت فيه نكات العصر على كارهى الهندسة والرياضة وما اليها . قال أبو حيان فى كتاب الوزيرين :
« .... أن صديقا لابن ثوابة الكاتب أبى العباس يكنى أبا عبيدة قال له ذات يوم : انك بحمد الله ومنه ذو أدب وفصاحة وبراعة ، فلو أكملت فضائلك بأن تضيف اليها معرفة البرهان القياسي وعلم الاشكال الهندسية الدالة على حقائق الأشياء وقرأت أقليدس وتدبرته ! ... »

ثم نقل أبو حيان عن ابن ثوابة أنه كتب الى صديق له سأله عما حدث بينه وبين معلمه الهندسة فأجابه بعد تطويل وحوقلة واستعاذة بما يأتى :

« ... فأخذ القلم ونكت نكتة نقط منها نقطة تخيلها بصرى وتوهمها طرفى كأصغر من حبة الذر ، فزمزم عليها من وساوسه وتلا عليها من حكم أسفار أباطيله ثم أعلن عليها جاهرا بافكه وأقبل علىّ وقال : أيها الرجل ! ان هذه النقطة شيء لاجزء له ، فقلت : أضللتنى ورب الكعبة وما الشيء الذى لاجزء له ؟ فقال كالبسيط .. فقلت أنا: وما الشيء البسيط ؟ فقال كالله والنفس ! فقلت له انك من الملحدين . أتضرب لله الأمثال والله يقول فلا تضربوا لله الأمثال ان الله يعلم وأنتم لاتعلمون ؟. فلما سمع مقالتى كره استعاذتى فاستخفه الغضب فأقبل علىّ مستبسلا وقال : انى أرى فصاحة لسانك سببا لعجمة فهمك . وتدرعك بقولك آفة من آفات عقلك . فلولا من حضر والله المجلس واصغاؤهم اليه مستصوبين أباطيله ومستحسنين أكاذيبه وما رأيت من استهوائه اياهم بخدعه وما تبينت من توازرهم لأمرت بسل لسان اللكع الألكن وأمرت باخراجه الى حر نار الله وسعيره .. »

ومضى ابن ثوابة يذكر كيف جاءوا له بمعلم مسلم بعد هذا المعلم النصرانى وكيف استعظم هذا المعلم المسلم عليه أن يدرك النقطة وقال له :

---

(١) : اللكيم الذ ليل ! لنفس .
(٢) راجع معجم الادباء فى ترجمة ابن ثوابة

«وهل بلغت أنت أن تعرف النقطة؟ فقلت استجهلني ورب الكعبة!. وأخذ يخط وقلبي مروع يجب وجيبا وقال لي غير متعظم : ان هذا الخط طول بلا عرض ، فتذكرت صراط ربي المستقيم وقلت له قاتلك الله ! أتدري ماتقول ؟ تعالى صراط ربي عن تخطيطك وتضليلك ! انه لصراط مستقيم وانه لأحد من السيف الباتر والحسام القاطع وأدق من الشعرة وأطول مما تمسحون وأبعد مما تذرعون : أتطمع أن تزحزحني عن صراط ربي وحسبتني غرا غبيا لا أعلم ما في باطن ألفاظك ومكنون معانيك ؟ والله ما خططت الخط وأخبرت أنه طول بلا عرض الا فعلة بالصراط المستقيم لتزل قدمي عنه وأن ترديني في جهنم ! أعوذ بالله وأبرأ اليه من الهندسة ومما تدل عليه وترشد اليه .. اني بريء من الهندسة ومما تعلنون وتسرون . . . »

فهذا مثل بارع من السخرية التي كانوا يقابلون بها سخرية القوم من المنطق والنجوم . والكتاب على مافيه من الصورة الهزلية يدل بين سطوره على حقائق كثيرة : منها استفاضة تلك العلوم وجلالة خطرها بين المتأدبين حتى أن رجلا كابن ثوابة بلغ من المكانة والسن مبلغه يخف الى تعلمها ويحسب أن مروءته لاتكمل بين ذوي العلم بغير درسها ، ومنها أن أشياعها كانوا من الكثرة وأن أساتذتها كانوا من التجلة والهيبة بحيث كان يعز على ابن ثوابة أن يجد في مجلسه رجلا واحدا يؤازره ويرضى له أن يهين المعلم الذي جبهه بالقول الخشن واستطال عليه بالتقريع في داره . وليس يخفى ان الهزل كالغضب كلاهما مصور مبالغ موكل بالغلو في التكبير والتصغير ، فلا المتشددون كانوا كما مثلهم لنا أبو حيان في دعابته وهزله ولا المشغوفون بالحديث كانوا كما مثلهم لنا ابن قتيبة في نكرانه وغضبه ، بيد أننا اذا حسبنا كل حساب لمبالغة الهزل ومبالغة الغضب بقيت المسافة طويلة بين الفريقين والبرزخ الفاصل بينهما متعذر العبور على تقارب الجيرة في الزمان والمكان .

وسكان دار لا تزاور بينهم   على قرب بعض في المحلة من بعض

وليس يصعب على القارىء أن يتخيل هذه الحالة بجملتها لأنها

أشبه شيء بما نحن فيه الآن من تباعد وتقارب واتصال في الثقافات وانفصال ، أو لعل الفرق الوحيد بيننا وبينهم أن عصرهم كان عصر الموالي الذين يدخلون العصبية الشعوبية في هذا الخلاف ويجتهدون في درس العلوم الحديثة لأنها تنافس العلوم العربية وتضيف اليها ما ليس منها ، وهم يودون ألا يحصروا الدين والعلم والسيادة جميعاً في العرب ، وألا يستأثر العرب دونهم بكل مأثرة وفضيلة . وقد يشعرون بهذا القصد أو لايشعرون ، ولكنهم حريون أن تميل بهم ضمائرهم هذا الميل اذا وقع التنافس بين العرب والشعوبية والتمست المفاخر من الجانبين .

الشـــعر

قد تكثر دراسة الآداب والعلوم ولا شعر ، وقد يكثر الشعر ولا دراسة للآداب والعلوم . أما القرن الثالث للهجرة فقد كان جامعا لأشتات الثقافة بفروعها : كثير الآداب والعلوم كثير الشعر كثير المعنيين بالأشعار .

عاش في ذلك القرن — ولا سيما أوائله وأواسطه — نخبة من جلة الشعراء النابهين كأبي تمام والبحتري والحسن بن الضحاك وعلى بن الجهم ودعبل الخزاعي وابن المعتز وابن الرومي ، وعاش فيه مع هؤلاء مئات من قالة الشعر المحسنين وغير المحسنين والمحترفين وغير المحترفين وأوشك أن يكون كل متعلم متأدب شاعراً ينظم الأبيات والمقاطع في بعض أغراضه . فالخلفاء كانوا ينظمون للغزل والغناء ، والأمراء والوزراء سواء منهم الفرس والعرب — كانوا يتطارحون الأشعار ويحفظون منها الشيء الكثير ، والمنتمون الى الفرس والأعاجم كانوا أسبق الى المنافسة في هذا المضمار لينفوا عنهم تهمة العجمة ويدخلوا مع العرب في ميدان الفصاحة : ومن الأمراء الفرس الذين مدحهم ابن الرومي من وضع كتاباً في الشكر ضمنه مختارات مما قيل في هذا المعنى وختمه بأماديح : يطري به صديقه العلاء بن صاعد على حروف المعجم ، ونعني به عبيد الله بن عبد الله بن طاهر عميد بيته العريق الذي تخرج منه كبار القواد والولاة .

لهذا كان ابن الرومي يقول وهو يشكو :

قد بلينا في دهرنا بملوك   أدباء علمتهم شعراء

لأنه كان يشعر بالمنافسة ولا يشعر بانعطف من جانب هؤلاء الزملاء .

***

وندر في ذلك العصر من خلا شعره من آثار الحضارة التي أجملنا وصفها فيما تقدم . فمن لم تظهر في شعره المعاني الفلسفية والآراء

الطـريفة التى سرت الى المتأدبين من مذاكرة علم الـكلام والعلوم المترجمة ظهرت فيه محسـنات اللفظ والمعنى التى كشـفها البحث فى أشعار المتقدمين وأدت اليها المعارضة بين أقوال الفحول واسـتطلاع أسرار البلاغة فيما أجادوه ؛ ومن لم يظهر فى شعره هذا وذاك ظهرت فيه تفخيمات الفرس وترصيعاتهم وجاءته العدوى من أساليب الكتاب فى النثر المنمق وأسـاليب التحية فى المجالس وأسـاليب المعيشة فى القصور ، وربما عرضت الكلمة الفارسـية فى البيت العربى مـا له المرادفات بالعشرات كقول شاعرنا .

يا أيهـا الملك الذى   فى برده قمـر وشير

يعنى الأسـد ..

وربما نظموا فى أوزان الشعر الفارسية كالدوبيت والرباعية ؛ أو تفننوا فى التسـيط والتوشيح والازدواج على نحو مانراه من كلف بعض الشعراء المعاصرين باختراع الأوزان والأعاريض .

وامتاز هذا العصر والذى تقدمه بما يصح أن نسميه علم الشعـر تمييزاً له من العناية بنظم الشعر نفسه . فقد كان الشـعراء المولدون يأتون بالمحسـنات البليغة عفـوا أو محاكاة للأقـدمين أو تصرفاً فى الاختراع؛ ولا يسمون هذه المحاسن بأسمائها أو يستخرجون منها علماً مرتباً على أقسام معززاً بشواهد . وسبق فى هذا المجال أمثال بشـار ومسلم والعتابى وأبو نواس ، وتلاهم أبو تمـام وتلامذته فى أوائل القرن الثالث . ثم تسكن حب التعريف والتقسيم والتخريج والتأويل من عقول الأدباء ؛ وكتب الجاحظ وقدامة بن جعفر وابن المعتز فى هذه المعانى فاذا علم جديد مقيس على الشواهد معروف بالأسماء .

وما انتهى القرن الثالث حتى كانت لهم نظرة فى الشعر كالنظـرة التى رواها صاحب زهر الآداب عن الحاتمى اذ يقول :

« مثل القصـيدة مثل الانسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه فى صحة التركيب غادر الجسم

ذا عاهة تتخون محاسنه وتعفى معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون فى مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ويقف بهم على محجة الاحسان ، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال وتأتي القصيدةفي تناسب صدورها واعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة والخطبة الموجزة لاينفصل جزء منها عن جزء . وهذا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم ولطف أفكارهم واعتماد البديع وأفانينه فى أشعارهم ، وكأنه مذهب سهلوا حزنه ونهجوا دارسه . فأما الفحول الأوائل ومن تلاهم من المخضرمين والاسلاميين فمذهبهم التعالم عن كذا الى كذا وقصارى كل أحد منهم وصف ناقة بالعتق والنجابة والنجاء ، وأنه امتطاها فادرع عليها جلباب الليل ، وربما اتفق لأحدهم معنى لطيف يتخلص به الى غرض لم يتعمده ، الا أن طبعه السليم وصراطه فى الشعر المستقيم نضى تياره وأوقد باليفاع ناره » الى أن يقول بعد أبيات أوردها للنابغة الذبياني :

« وهذا هو كلام متناسب تقتضى أوائله أواخره ولا يتميز منه شيء عن شيء ... ولو توصل الى ذلك بعض الشعراء المحدثين الذين واصلوا تفتيش المعانى وفتحوا أبواب البديع واجتنوا ثمر الآداب وفتقوا زهر الكلام لكان معجزا عجبا » .

فهذه النظرة تريك أثر البديع فى كتابتهم وفى نقدهم القصيدة . فأما الكتابة فهذا نمط منها تكثر فيه الاستعارة مع القصد الى معنى يراد ويفهم ، وأما النقد فمذهبهم فى وحدة الأغراض واتصال الأجزاء لايخالف مذهب المعاصرين الا باستحسان التلفيق بين المديح والنسيب، وعذرهم أن المديح كان قوام حياة الشاعر يومئذ فما كان الاستغناء عنه والاعتماد على النسيب وحده بالمستطاع .

***

وغنى عن القول بعد هذا أن «التنبه» كان هو السمة الغالبة على الشعر كله فى ذلك العصر الدائب على التفتيش والانتقاد ؛ فكان

شاعرهم ينظم القصيدة وهو واع لنفسه عامد لترتيب أبياته عارف بمواضع التجويد فى لفظه ومعناه ، وتتابع الشعراء كبارهم وصغارهم على هذا فكان فيهم كل مافي هذه الطريقة من المآخذ والفضائل ومن عناصر الضعف والقوة .

***

وتغيرت أغراض الشعر فهذا الذى يقول فيه ابن قتيبة انه لا يعدو مدح قينة أو وصف كأس ..! وانما كان هذا الامام الناقد الذى درس الشعر ووازن بين أصوله وفصوله مستنكرا مستصغرا يرى الشوهة ويغض عن الحسنة . ولولا ذلك لرأى أن الشعر قد كان يعدو مدح القيان ووصف الكئوس الى أغراض كثيرة تشمل كل وصف وتدخل فى كل معرض من معارض الحياة فى ذلك الزمان ؛ ولم يقل فيها الا ماكان وقفاً على أغراض البداوة وأيام الجاهلية الأولى . لأن هذه البداوة قلت فلم يكن لها نصيب من الشعر الا القليل .

لكنا نخاله كان على حق فيما شكاه من شح الجوائز وكساد سوق أهل الأدب عامة عند الملوك والأمراء ؛ فاشتغال هؤلاء الملوك والأمراء بالشعر ونظمه وحفظه وروايته شيء واجازتهم عليه الجوائز السنية شيء آخر . انما كانوا فى عصر ثقافة يود فيه كل امرىء كامل المروءة أن يعرف كل ما يعرف من الآداب والفنون والملاهي . فاذا تعلموا الشعر فكما يتعلم الرجل المثقف التوقيع على المعازف والشعوذة وطرائق التفكهة والاضحاك فى مجالس السمر ؛ ولا يلزم من ذلك أن يكون لهذه الأشياء أو لأهلها المنقطعين لها خطر فى نفسه .

ولا عجب أن يكثر الناظمون وحافظو الشعر فى زمن كانت الوزارة فيه والكتابة — أو صناعة الأدب — فناً واحداً وشارة واحدة . وكان معظم الوزراء والولاة من الأدباء الذين ظفروا بالحظوة عند الخلفاء ولكن أموراً كثيرة طرأت فى أواخر ذلك العصر كان من جرائها تطفيف أرزاق الشعراء وابتلاؤهم بكثرة النظراء وقلة النصراء : ومنها توزع العناية بين العلوم الحديثة والشعر الذى كان مستأثراً بجل عناية

العرب فى صدر الدولة الاسلامية ، ومنها غلبة المنادمة على الشعر وترجح صفة النديم على صفة الشاعر اذا تعذر الجمع بين الصفتين ، ومنها قلة الاكتراث للمدح والذم حين استبحر العمران واستفاضت المناعم واللذات وشاعت الاباحة والمجون ، ومنها كثرة الشعر والشعراء فقد أصابه وأصابهم ما يصيب كل كثير من الرخص والبوار ، ومنها أن الدعوة السياسية خرجت كلها — أو أغلبها — من أيدى الشعراء الى أيدى الدعاة الذين تفرغوا لهذه الصناعة وبلغوا بها أيام العباسيين والعلويين شأوا من البراعة والاتقان قلما يفاق فى عهد من العهود ؛ ومنها اضطراب أمور الحكم واختلال أحوال الرعية فى أواسط القرن الثالث بين عصرين سعيدين فات السابق ولم يأت بعده أوان اللاحق : ونعنى بهما عصر الهيبة والثروة والعطايا والملك الموطد المرجو المخوف، وقد ذهب . وعصر الأمراء الذين تقسموا المملكة واستقر كل منهم على جزء منها وتنافسوا بينهم فى اجتلاب الشعراء والتشبه بالخلفاء ، ولم يأت بعد !

فكان الشعراء ضائعين من هنا وهناك ، وربما كان هذا سر خفوت الشعر وقلة الشعراء المجيدين فى الربع الأخير من القرن الثالث ، والربع الأول من القرن الذى تلاه .

الدين والاخـــلاق

اذا عرفت حالة السياسة وحالة الاجتماع وحالة التفكير فليس بالحالة الدينية ولا الخلقية خفاء .

لأن عقيدة المرء شديدة الصلة بتفكيره ومعيشته ومجرى الأحكام فى زمانه ، وظاهر بعد ماتقدم أن الدين فى القرن الثالث لم يكن «دين الفطرة» الذى يؤمن به شعب لم يعرف الترف والفساد ، ولم يشهد من ولاته الا العدل والاستقامة ، ولم يتعود أن يناقش نفسه فى عقيدته وعقيدة غيره . فنشوء المذاهب واختلاف الآراء ضرورة لامحيد عنها فى أمثال تلك الأحوال .

كتب ميسرة بن حسان الـ..رى الى أحمد بن سليمان بن أبى شيخ يسأله عن مذهبه ولم يكن أحد يقف على حقيقته :

دخلتنا الشكوك يا ابن أبى شـ ـيخ بـأى الأديان أنت تـدين
والى أيهـا تميـل أبا جعفـر كم ذا الـ..ى وذا التلوين ؟

فأجابه عنه ابن الرومى :

يا ابن حسان لا تشـكن فى د ينى . ولا تتـسمك فى الظنون
فهو توحيد ذى الجلال وتصـ ـق الذى بلغ الرسـول الأمين

....

فاعد عنى وانظر لنفسك دونى ليس يجزى سواى عما أدين

وسؤال ابن حسان له مغزاه . فما كان له من محل لو أنهم كانوا يصدقون أن الرجل فى زمانهم يبطن ما يظهر ويؤمن بالدين الـذى يؤمن به الناس كافة . فكأنما كان المفروض فى طائفة من الناس أن يخفوا سرائرهم على مذهب غير مذهب الاجماع وسر فى الاعتقاد غير الذى يبدو علانية من « توحيـد ذى الجـلال وتصـديق الذى بلغ الرسول » .

وليس بعجيب أن يكون الأمر كذلك والعهد عهد الملل والنحـل

والأحزاب والعصبيات والدعوات والبحث والتفسير . فما من نحلة كانت ولا شعبة من نحلة الا كان لها أنصـار ولأنصارها شأن مافى بعض الجهات. ولا سيما العراق ملتقى الأمم ومشتجر النزاع ومتوسط الرقعة الاسلامية ومثابة الحضارات القديمة والحديثة . وما كان أكثرها من نحل وأشده من لهج بالانتحال !! لكأنما كانت بلاد الدولة العباسية معرضا للنحل ومستبقا للمشاقة بين المنتحلين ! ! ففيه التشيع بدرجاته والاعتزال بطوائفه والسنة باختلاف أقوال المجتهدين فيها والفلسفة بمذاهبها والعلوم الحديثة بشعابها ، وفيه مابين هذا وذاك أشكال من التدين يجىء بها دخول الفرس والروم والديلم فى الاسلام عمداً أو على غير عمد . فبعضهم كان يسلم وهو فى الباطن على دين آبائه ، وبعضهم كان يخلص فى اسلامه ولكنه ينقل الى دينه الجديد موروثات دينه القديم ، وذلك فضلا عن النصارى واليهود وعباد الأوثان. وكلهم على اختلاف المذاهب والعصبيات كهذا الاختلاف ، فغير مستغرب أن يسأل المرء عن دخيلة رأيه وباطن اعتقاده فى هذا المعرض الحاشد بالطوائف والأديان .

الا أننا لا لنخطىء أشد الخطأ اذا فهمنا من هذا أن الاباحة حلت محل الدين فى تلك الفترة فتعفى أثره وبطل سلطانه . فان مداراة الآراء التى تخالف الاجماع لاتدل على ذلك بل لاتدل الا على نقيض ذلك، والمعهود فى أمثال تلك الفترة أنها تقبل الغلو فى التدين كما تقبل الشكوك وتعدد المذاهب ؛ كأن الاحساس بالخطر على العقيدة يحرك بواعث الغيرة عليها ويزعج النفوس الى المنافحة عنها ، فاذا رأيت الاباحة والترخص فى جانب لم تلبث أن ترى الغلو والتشدد فى الجانب الآخر ولا يخفى أن هذا الجانب الآخر هو الأقوى والأكبر لأنه جانب العادة الخالدة والعدد الأكثر .

وربما لاح للناس أنهم تبذلوا الدين فما يشعرون الا وهم يلبسون دعواته ويتعصبون لأهله ويظنون فى أنفسهم أنهم غير متدينين ! ولقد كان مع الترخص فى اباحة اللذات اناس غالون فى النهى عنها يثورون

على أصحابها فى الحين بعد الحين ليقوموا المنكر باليد واللسان . ومن هؤلاء فئة ببغدادخرجت — بعيد مولد ابن الرومي — تهجم علىالبيوت فتريق الخمر وتضرب القيان وتكسر العيدان ؛ وكان ينادى فى بغداد قبيل وفاته — أى فى سنة تسع وسبعين ومائتين — « ألا يقعد على الطريق ولا فى المسجد الجامع قاص ولا منجم ولا زاجر » وحلف الوراقون ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة .

بل كان ابن الرومي اذا ذكر الخمر فى مديح أمير أسرع فاستدرك قائلا انها الشراب الحلال لا الشراب الحرام :

لا المدام الحرام لكن حلال　　　سؤر نار يحثها طابخان
شارك الخمر فى اسمها ليس الا　　　أن أداموه مثلها فى الدنان
وحكاها فى اللون والريح والطـ　　　ـعم ولطف الدبيب فى الجثمان
فهو لا خمر فى الحقيقة لكن　　　هو خمر فى الظن والحسبان

ومثل هذا لا يقال الا وللدين هيبة وللفرائض رعاية .

***

وهناك الضمائر التى لاتقوى على الشك لأنها تستريح الى التسليم والاتكال ؛ فهى اما أن تهرب من الشكوك والأقاويل الى ايمان بسيط لا لجاجة فيه ؛ أو تهرب منها الى اللهو والمؤانسة وما يعنيها فى الحاضر بين يديها لحظة بعد لحظة ، كما قال ابن المعتز :

ولكنه فيما عناه وسره　　　وعن غير ما يعنيه فهو بمعزل

وأصحاب هذه الضمائر — حين يحسبون — أقرب الى المؤمنين منهم الى المتشككين .

***

وما يقال فى الدين يقال فى الأخلاق . فلا ريب فى أن السياسة القائمة على السلب والغيلة ، والآداب القائمة على اغتنام الفرص وانتهاب اللذات ، والعقائد القائمة على ما رأيت من الشك والتشعب — قلما تبقى للنفوس بقية صالحة من الأخلاق ومسكة عاصمة من الغواية . ولكننا حريون أن نذكر أن نفوس الدهماء مطبوعة على العزاء ، وان

أكبر العزاء لها في هذه الفترات أن تحسب الغواية والرذيلة من مساوىء الغنى والجاه وتعتصم هي بالصبر والرجاء ، وفي بنية الأمة أبداً مثل ما في بنية الحي من العوامل المكافحة للفساد التي لاتني تصون الجسم زمناً ولا تبرح تلهم وظائفه السداد وان ضل العقل وأنحي على الجسم بما ينهكه ويرديه . فتظل هذه العوامل ناشطة في بنية الأمة ولو تراءى للنظر من مشارفة بعض الطبقات أنها وقعت في الاضمحلال . فلا يحسن بنا أن نبالغ في تضخيم شأن الفوضى التي ابتليت بها العقائد والأخلاق في تلك الفترة الشاذة المتناقضة . فهي ولا ريب كبيرة وبيلة ولكنها ليست أكبر ولا أوبل مما قد يعتري أمماً كثيرة وتؤاتيها بعده أسباب السلامة .

***

ذلك عصر ابن الرومي بخيره وشره وزيادته ونقصه . لقائل أن يقول في أطواره ما شاء أن يقول ، وأن يختلف في أوصافه ما شاء أن يختلف ؛ ولكن وصفاً واحداً من تلك الأوصاف لايجوز فيه أقل اختلاف : ذلك أنه كان في خيره وشره عصراً حياً يصنع التواريخ وليس بالعصر الميت الذي يطويه التاريخ في ثناياه .

وقد وضعنا له حدوداً من أرقام السنين لضرورة الحصر والتقريب، ولكننا لم نرد بتلك الأرقام الا أن تكون معالم في طريق الزمن يهتدى بها الى البدايات والنهايات ؛ وليست هي البداية والنهاية ولا هي محور الابتداء والانتهاء .

الفَصْلُ الثّانِي

اخبـار ابن الرومى

العصر والرجل

فى تاريخ كل أمة عصر أو عصور اشتهرت بكثرة الذين ظهروا فيها من النوابغ والعبقريين فى الشعر والأدب والعلم والفن والصناعة ؛ فيقول الذين يرجعون الفضل كله الى العصر وحده أن أحوال العصر هى التى عليها المعول فى تكوين المواهب والعبقريات .

وفى تاريخ كل أمة أيضا نوابغ وعبقريون ظهروا فى مختلف العصور على تفاوت الأحوال بين عصر وعصر وبيئة وبيئة ، فيقول الذين يرجعون الفضل كله الى ملكة الفرد واستعداده أن العصر لا يغنى شيئا فى تكوين المواهب والعبقريات، أو أنه ــ اذا لم تسعف الموهبة والعبقرية ــ قليل الغناء .

ونحن يجب أن نحذر كل فكرة يراد بها أن تخدم فكرة أخرى ؛ فهى تفقد استقلالها كله أو بعضه كما يفقد استقلاله كل من يخدم سواه . انما تحترم الفكرة اذا أريدت لنفسها ولم ترد لتأييد فكرة هى مضافة اليها .

فيغلب على الذين يحصرون الفضل فى العصر وحده أنهم يدعون الى الاجتماعية والاشتراك فى مرافق الأمة . فيقللون من شأن الأفراد فى الوصول الى حظ من حظوظ العلم والمال بغير مساعدة المجتمع ومؤاتاة الحوادث .

ويغلب على الذين يحصرون الفضل فى الفرد وحده أنهم

ينازعون أصحاب ذلك الرأي وينظـرون الى تفنيده وتوهينه لابطال مايدعو اليه .

فهم مخطئون وأصحابهم أولئك مخطئون . ولا يرجى الاخلاص وصدق التحري في فكرة مسخرة تساق في ذيل مذهب تعتمد عليه أو يعتمد هو عليها . فلا العصر هو كل شيء ولا الموهبة الفردية هي كل شيء . والأمر الذي لا مراء فيـه هـو أن العصر لا يخلق الموهبة اذا هي لم توجد في صاحبها . وأن بعض العصور من الجهة الأخرى أصلح لاظهار المواهب والعبقريات .

ثم ان العصر اذا لم يخلق الموهبة خلقا فهو بلا ريب يوجهها ويهيىء لها اسـباب تمامها واستوائها ، بحيث يسـهل علينا أن نفهم كيف أن عبقرية من العبقريات تهتدي على وجهتها في زمن ولا تهتدي اليها في زمن آخر ، وكيف أن رجلا يكون صانعا في هذا العصر أو ذاك وهو لو ولد في غيره لكان من الأدباء أو السواس .

ولا فائدة هنـا من البحث في مصير ابن الرومي ماذا كان يلقى وماذا كان يصبح لو أنه ولد في غير القرن الثالث للهجرة . فقد ينبغ أو لاينبغ ، الا أن المحقق عنـدنا أنه في أي عصر ظهـر لايكون الا شاعراً أو صاحب عمـل فني بسبيل من الشـاعرية . فقد تتخيل أبا تمـام — مثـلا — قاضيا والبحتري عاملا والمتنبيء وزيرا والمعري فقيها والشريف خليفة أو اماما من أئمة الطرق ، وقد تتخيلهم جميعـا ظاهرين بارزين في غـير هـذه الأعمال التي يزاولها أبنـاء الدنيا ويفلحون فيها على درجات من الفلاح ، فهم يصلحون لهـا ولغـيرها بعض الصلاح وان كانوا مع هذا شعراء وذوي قدم في مناهج الشاعرية أما ابن الرومي فهو لايصلح الا للشعر وما اليـه ولا ينفعه العصر ان لم ينفعه في هذا المجال . فاذا تمهد له الشعر فقد استوى على نهجه . واذا لم يكن شاعراً فهو لا شيء .

والعصر الذي عاش فيه كان صالحاً لظهور ابن الرومي أيما صلاح: كان صالحاً لظهور ابن الرومي — الشاعر — لأنه كان عصراً حيـا

حافلا بأشتات الحياة وألوان الاحساس مشغولا بالشعر والعلم وكل ما تشغل به قريحة أو سليقة ، وكان فيما عـدا ذلك عصر الموالى أو عصراً للموالى فيه نصيب وافر من التعلم والتأدب والتربية التى تعـد صاحبها للسبق فى كل مضمار .

كان لهذا عصراً صالحاً لظهور ابن الرومى الشاعر الذى لا متقدم له فى غير الشاعرية .

ولكن أتراه كان ذلك عصراً صالحاً لظهور ابن الرومى — الرجل — الذى لم تبق منه الشاعرية بقية لمساماة ولا لتصرف ؟

لا ! لم يكن ذلك العصر صـالحاً لابن الرومى الرجل كمـا كان صالحاً لابن الرومى الشـاعر . بل لم يكن ذلك العصر الا عصرمضيعة له ولأمثاله الذين خلقوا فى هذه الدنيا وكأنهم أطفال فى حجر الفن، لا يكفلون أنفسهم ان لم تلحظهم من الدنيا كفالة سـاهرة .

فكانت قسمته تلك من غرائب القسم التى تتنازع الانسـان بين النقيضين ؛ كأنه جسم مشدود للتعذيب بين قطبين متجاذبين .

فمن جهة هو فى زمنه الذى لم يخلق لغيره ، ومن جهة هـو فى الزمن الوحيد الذى لم يخلق له ولم يتزود له بآلة : ابن الرومى الشاعر فى عصر الحيـاة والاحساس والدراسـة والموالى فهو بخير ... وابن الرومى الرجل فى عصر الدهاء والخبث والصراع الجهنمى فهو بشر ما يكون عليه مثله ... ولاسبيل الى الافتراق بين الشخصـين ، ولا سبيل كذلك الى التوفيق بينهما على حال !

لو كان ابن الرومى شاعرا وشيئاً آخر لكان قميناً أن يرضى بعصره وأن يرضى به عصره : لو كان شاعراً ورجلا يحسن الخوض فى معترك العيش بين تلك الفتن والمغامرات لاتقى بعض الاخفاق على الأقل وارتجى بعض النجاح . لكنه كان شاعراً وحسب ولم يكن له زاد آخر غـير السليقة الفنية ! فجنى الشاعر على الرجل ولم يسعد الشاعر بما جناه. ومن هنا ذلك التفاوت بين نصيب شعره ونصيب شخصه ، وذلك الخطأ

فى تقدير مكانه وسمته . فهو خامل وليس بخامل وهو نابه وليس له نصيب النباهة ! شعره نافق وقائل الشعر كاسد ... وربما عابوا شعره في حياته وأكثروا من عيبه . ولكنه بيسير من النظر قد ترى أنهم لم يقصدوا بالعيب الشعر كما قصدوا القائل .. وان كان في الشعر ما معاب !

فالذين سبق اليهم أن ابن الرومي كان مجهول القدر فى حياته وبعد مماته انما نظروا الى احدى صفحتيه ولم ينظروا الى الصفحة الأخرى . انما كان خمول الرجل انه لم ينتفع بمعرفة الناس اياه لا أنه لم يعرف ، وربما كان له خمول آخر وهو أنه لم يعرف بأحسن مزاياه . أما أنه قد عرف فذلك حق لاشك فيه .

وقد ازداد الناس معرفة به بعد موته كما اتفق كثيرا لمعظم الأدباء والعلماء . فقال العميدى صاحب الابانة المتوفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وهو يذكر المتنبي . « ولا أقيسه فى امتداد النفس وعلم اللغة والاقتدار على ضروب الكلام وتصوير المعانى العجيبة والتشبيهات الغريبة والحكم البارعة والآداب الواسعة بابن الرومى » .. وقال ابن رشيق صاحب العمدة المتوفى سنة ثلاث وستين وأربعمائة : « أكثر المولدين اختراعا وتوليداً فيما يقول الحذاق: أبوتمام وابن الرومى» .. وقال ابن سعيد المغربى المتوفى سنة ثلاث وسبعين وستمائة فى كتابه عنوان المرقصات والمطربات : « ويقولون أنه أحق الناس باسم شاعر لكثرة اختراعه وحسن توليده » .. وذكر وفاته ابن الأثير المتوفى سنة ثلاثين وستمائة فقال « ان ديوانه معروف » .. أى أن هذا الديوان كان متداولا فى أيدى الأدباء الى أيامه . ونظر الى معانيه كثير من فحول الشعراء والأدباء منهم المتنبى وبديع الزمان والمعرى والشريف ، وشاعت مختاراته فى كتب الأدب فلم يخل منها الا قليل .

أما أخباره فقد عنى بكتابتها وروايتها اثنان من أدباء عصره ، وهما عبيد الله بن المسيب وأبو عثمان الناجم . وثالث هو أحمد بن عمار

قال ابن المسيب انه لما مات ابن الرومي « عمل كتابا فى تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس »

ويظهر أن أبا عثمان سعيد بن هاشم الخـالدى من أدباء القـرن الرابع توسع فى ترجمته اما فى كتابه حماسة المحـدثين أو فى كتاب مقصور عليه ، ولكن أخباره هذه ذهبت كلها ولم يبـق منها أثر الا متفرقات فى الكتب لاتغنى فى ترجمة وافية ولا شبيهة بالوافية ، وهى على قلتها لايسعنا اغفالها ولا يسـعنا كذلك أن نعتمد عليها ونقبلها على علاتها .

فنحن ننقلها كما هى فيما يلى ثم نعقب عليها ونستخرج منها مافى الوسع أن نستخرجه من ترجمـة للرجل تدل عليه وتستحضر للذهن صورة لعبقريته ، ومثلنا فى ذلك كمثل المنقبين فى المحفورات اذ يعثرون ببعض العظام المهشمة من جسم مدثور ، فهم يقيسـون المفقـود على الموجود ويضنون بما وجدوه على الضياع ولولم يكن به قوام .

اخبار ابن الرومي :

ولد ابن الرومي كما جاء في ابن خلكان : يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة احدى وعشرين ومائتين ببغداد في الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية في دار بازاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور .

وبحثنا كثيرا في الكتب التي عثرنا على شيء من أخباره فيها، فلم نجد ذكرا لأبويه وأهله ولا لأيام حداثته وتعليمه ، وانقطعت أخباره في هذه الفترة فلم تقع لنا الا النوادر التي رويت عنه وهو شاعر لاتعرف سنه الابالنظر الىتواريخ الوقائع التي وردت في شعره. فجاءفي معجم الأدباء لياقوت الحموى أثناء الكلام على أحمد بن عبيد الله ابن محمد بن عمار .

« ... ووجدت في كتاب ألفه أبو الحسن على بن عبيد الله ابن المسيب الكاتب في أخبار ابن الرومي ؛ وكان ابن المسيب هذا صديقا لابن الرومي وخليطا له : كان أحمد بن محمد بن عبيد الله ابن عمار — هكذا قال في نسبه بتقديم محمد على عبيد الله — صديقا لابن الرومي كثير الملازمة له ، وكان ابن الرومي يعمل له الأشعار وينحله اياها يستعطف بها من يصحبه ، وكان ابن عمار محدودا مقترا وقاعة في الأحرار وكان أيام افتقاره شديد السخط لما تجرى به الأقدار في آناء الليل والنهار . حتى عرف بذلك فقال له على بن العباس بن الرومي يوما : يا أبا العباس ! قد سميتك العزير . قال له : وكيف وقعت لي على هذا الاسم ؟ قال لأن العزير خاصم ربه بأن أسال من دماء بني اسرائيل على يدى بختنصر سبعين ألف دم ، فأوحى الله لئن لم تترك مجابهتي في قضائي لأمحونك من ديوان النبوة ! وقال فيه :

وفي ابن عمار عزيرية يشارك الله بها في القدر
لم كان ما كان ولم لم يكن مالم يكن، فهووكيل البشر

الخ .. الخ ..

وكتب ابن الرومى الى أحمد بن محمد بن بشر المرثدي قصيدة يمدحه بها ويهنئه بمولود ولد له ويحضه على بر ابن عمار والاقبال عليه يقول فيها :

ولى لديكم صاحب فاضل أحب أن يرعى وأن يصحبا

الخ الخ

قال : « وصار محمد بن داود بن الجراح يوما الى ابن الرومى مسلما عليه فصادف عنده أبا العباس أحمد بن محمد بن عمار وكان من الضيق والأملاق فى النهاية ، وكان على بن العباس مغموما به فقال محمد بن داودلابن الرومى ولأبىعثمان الناجم: لو صرتما الى وكثرتما بما عندى لأنس بعضنا ببعض . فأقبل ابن الرومى على محمد بن داود فقال : أنا فى بقية علة وأبو عثمان مشغول بخدمة صاحبه — يعنى اسماعيل بن بلبل — وهذا أبو العباس بن عمار له موضع من الرواية والأدب وهو على غاية الامتاع والايناع بمشاهدته . وأنا أحب أن تعرف مثله ، وفى العاجل خذه معك لتقف على صدق القول فيه فأقبل محمد بن داود على أحمد بن عمار وقال له تفضل بالمصير الى فى هذا اليوم وقبله قبولا ضعيفا ؛ فصار اليه ابن عمار فى ذلك اليوم ورجع الى ابن الرومى فقال انى أقمت عند الرجل وبت وأريد أن تقصده وتشكره وتؤكد أمرى معه ؛ ومحمد بن داود فى هذا الوقت متعطل ملازم منزله . فصار اليه وأكد له الأمر معه وطال اختلافه اليه الى أن ولى عبيد الله بن سليمان وزارة المعتضد واستكتب محمد بن داود الجراح وأشخصه معه وقد خرج الى الجبل ورجع وقد زوجه بعض بناته وولاه ديوان المشرق ؛ فاستخرج لابن عمار أقساطا أغناه بها وأجرى عليه أيضا من ماله ؛ ولم يزل يختلف اليه أيام حياة محمد بن داود ، وكان السبب فى أن نعشه الله بعد العثار وانتاشه من الأقتار ابن الرومى ، فما شكر ذلك له وجعل يتخلفه ويعيبه وبلغ ابن الرومى ذلك فهجاه باهاج كثيرة .. قال ابن المسيب : ومن عجيب أمر عزير هذا أنه

كان ينتقص ابن الرومي في حياته ويزرى على شعره ويتعرض لهجائه فلما مات ابن الرومي عمل كتابا في تفضيله ومختار شعره وجلس يمليه على الناس » .

وجاء في الجزء الأول من العمدة لابن رشيق :

« وهجا ابن الرومي البحتري وابن الرومي من علمت فاهدى اليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب اليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه ، وأنه لم يحمله على مافعل الا الفقر والحسد المفرط .

شاعر لا أهابه نبحتني كلابه
ان من لا أعزه لعزيز جوابه

وروى المرزباني في الموشح أن عبد الله بن يحيى العسكري أخبره عن أبي عثمان سعيد بن الحسن الناجم أن البحتري قال له :

« اشتهي أن أرى ابن الرومي » قال فوعدته ليوم بعينه وسألت ابن الرومي أن يصير الى فيه ، فأجابني الى ذلك . فلما حصل ابن الرومي عندي وجهت الى البحتري فصار الى ، فقال له البحتري : قد أقرأني أبو عيسى بن صاعد قصيدة لك في أبيه وسألني عن الثواب عنها ، فقلت أعطوه لكل بيت ديناراً . ثم تحدثنا ، فقال البحتري : عزمت على أن أعمل قصيدة على وزن قصيدة ابن الرومي الطائية في الهجاء . فقال له ابن الرومي : اياك والهجاء يا أبا عبادة ، فليس من عملك وهو من عملي فقال له : تتعاون . وعمل البحتري ثلاثة أبيات ، وعمل ابن الرومي ثمانية فلم يلحقه البحتري في الهجاء . وكان اجتماعهما عندي سبباً للمودة بينهما »

وروى المرزباني أيضاً في الموشح :

« أخبرني محمد بن يحيى قال كنت يوماً عند عبيد الله بن عبد الله ابن طاهر فذكرنا قصيدة ابن الرومي في أبي الصقر التي أولها : « أجنت لك الوجد أغصان وكثبان » فقال عبيد الله : هي دار البطيخ !

فضحك الجماعة ، فقال : اقرءوا تشبيها فانظروا ، هي كما قلت! قال محمد : وقد ملح عبيد الله وظرف ، وهذه القصيدة أكثر من مائتى بيت مر له فيها احسان كثير ، ومن تشبيبها ما يدل على قول عبيد الله :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان　　فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذينك أعناب مهدلة　　سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب يلوح به　　أطرافهن قلوب القوم قنوان
غصون بان عليها الدهر فاكهة　　وما الفواكه مما يحمل البان
ونرجس بات سارى الطل يضربه　　وأقحوان منير النور ريان
ألفن من كل شيء طيب حسن　　فهن فاكهة شتى وريحان

فلما سمع أبو الصقر قوله :

هذا الذي حكمت قدما بسؤدده
عدنان ثم أجازت ذاك قحطان
قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم
كلا لعمري ولكن منه شيبان

قال : هجاني والله ! قيل له : هذا من أحسن المديح ، اسمع ما بعده :

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف　　كما علا برسول الله عدنان

فقال أنا بشيبان ليس شيبان بي : قيل له : فقد قال :

ولم أقصر بشيبان التي بلغت
بها المبالغ أعراق وأغصان
لله شيبان قوم لا يشيبهم
روع اذا الروع شابت منه ولدان

فقال « والله لا أثيبه على هذا الشعر وقد هجاني فيه . قال الشيخ أبو عبيد الله المرزباني رحمه الله تعالى . وهذا ظلم من أبي الصقر لابن الرومي وقلة علم منه بالفرق بين الهجاء والمديح » :

وجاء في الجزء الثاني من زهر الآداب أن على بن العباس الرومى كان «مفرط الطيرة شديد الغلو فيها . قال عبد الله بن المسيب : وكان يحتج لها ويقول ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة أفتراه كان يتفاءل بالشيء ولا يتطير من ضده ؟ ويقول ان النبى صلى الله عليه وسلم مر برجل وهو يرحل ناقة ويقول ياملمونة ، فقال لايصحبنا ملعون ، وأن عليا رضى الله عنه كان لايغزو غزاة والقمر فى العقرب ، ويزعم أن الطيرة موجودة فى الطباع قائمة فيها ، وأن بعض الناس هى فى طباعهم أظهر منها فى بعض ، وأن الأكثر فى الناس اذا لقى ما يكرهه قال: على وجـه من أصبحت اليـوم . فدخل علينا يوم مهرجان سنة ثمان وسبعين وقد أهدى الى عدة من جوارى القيان ، وكانت فيهن صبية حولاء وعجوز فى احدى عينيها نكتة ، فتطير من ذلك ولم يظهر لى أمره وأقام باقى يومه، فلما كان بعد مدة يسـيرة سقطت لى ابنة من بعض السطوح وجفاه القاسم بن عبيد الله فجعـل سبب ذينك المعينين المغنيتين وكتب الى :

أيها المحتفى بحـول وعـور ... أين كانت منك الوجوه الحسان؟
قد لعمرى ركبت أمراً مهينـاً ... ساءنى فيك أيها الخلصـان
فتحك المهرجان بالحول والعـو ... ر أرانا ما أعقب المهـرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحـر ... ة مصـبوغة بها الأكفـان
وتجـافى مؤمل لى جليـل ... لج فيه الجفـاء والهجـران
فلما غاب من أمورك عنـوا ... ن مبـين ، وللزمان لسـان
لاتكن بالهوى تكذب بالاخبا ... ر حتى تهـين ما لا يهـان
لا يقدك الهوى الى نصرة الاخبا ... ر حتى يقـدم البرهـان
ان عقبى الهـوى هوى وعقبى ... طول تلك المهـونات هـوان
لاتصـدق عن النبيين الا ... بحديث يلوح فيـه البيـان
خبـر الله ان مشـأمة كا ... نت لقـوم وخبـر القرآن
أفزور الحـديث تقبل أم مـا ... قالهذو الجـلال والفـرقان
أترى من يرى البشـير بشيراً ... يمترى فى النـذير ياوسـنان
فدع الهـزل والتضاحك بالط ... يرة والنصـح مثمن مجـان

وجاء في ذلك الجزء بعـد ذلك :

« وكان أبو الحسن على بن سليمان الأخفش غلام أبى العبـاس المبرد فى عصر الرومى شابا مترفا ومليحا مسـتظرفا ، وكان يعبث به فيأتيه بسحر فيقرع الباب ، فيقال له من ؟ فيقول قولوا لأبى الحسن مرة بن حنظلة ، فيتطير لقوله ويقيم الأيام لايخرج من داره وذلك كان سبب هجائه اياه .. فاعتـذر اليه وتشفع عنـده بجماعة من أهـل بغداد ، وكان الأخفش أكثر الناس اخوانا فقبل عذره ومدحه بقصيدته التي يقول فيها :

ذكر الأخفش القديم فقلنا   ان للأخفش الحديث لفضلا

الخ .. الخ ..

ثم عاد على بن سليمان الى أذاه واتصل به ان رجلا عرض عليـه قصيدة من شعره فطعن عليها فقال قصيدته التي يقول فيها

ما بلغت بى الخطوب رتبة من   تفهم عنـه الـكلاب والقـرده
ولا أنا المفهم البهـائم والطـ   ـير سـليمان قـاهر المرده
فان يقل انني حفظت فـكالد   فتر جهـلا بكل ما اعتقـده
سـأسمع النـاس ذمـه أبدا   ما سمع الله حمـد من حمـده

. . . . »

وفي الوقائع بينه وبين الأخفش يقول الزبيدى تلميذ أبى على القالى وهو صاحب طبقات النحويين المتـوفى سـنة تسع وسبعين وثلثمائة : « حدثنى أبو على قال : كان على بن العباس الرومى لايدع التطـير والتفاؤل فى جميع حركاته وتصرفه وكان على بن سليمان الأخفش قد أولع باعتراضه فى مخارجه فيما يتطير به . فربما صرفه بذلك عن وجهه وربما دق عليه الباب فاذا قال من أنت ؟ قال الشؤم والبلاء ! فلا يبرح على بن العباس يوم ذاك ، فلما شق عليه ذلك هجاه فأقذع فى هجائه، فكان الأخفش يستعمل حفظ هجائه ثم يسليه فيما يملى من الأخبـار

والأشعار على أصحابه ، فلما رأى على بن العباس أن الأخفش لا يألم لهجائه أقصر عنه » .

ويقول صاحب العمدة في هذه الوقائع بينه وبين الأخفش :

« وقد مزقه بالهجاء كل ممزق وجعله مثلة بين أصحابه . على أن الأخفش كان يتجلد عليه ويظهر قلة المبالاة به وهيهات وقد وسمه وسمة الدهر وسامه سوم الخسف والقهر » .

والأقوال في طيرة ابن الرومي كثيرة منها ما استطرد الى ذكره صاحب زهر الآداب حيث قال بعيد ما أسلفنا نقله :

« ولابن الرومي في الأخفش افحاش صنت الكتب عنه ، قال على ابن ابراهيم كاتب مسروق البلخي : كنت بداري جالساً فاذا حجارة سقطت بالقرب مني، فبادرت هاربا وأمرت الغلام بالصعود الى السطح والنظر الى كل ناحية ، من أين تأتينا الحجارة ، فقال : امرأة من دار ابن الرومي الشاعر قد تشوفت ، وقالت ، اتقوا الله فينا واسقونا جرة ماء والا هلكنا فقد مات من عندنا عطشا . فتقدمت الى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد اليها وتخاطبها، ففعلت وبادرت بالجرة واتبعتها شيئا من المأكولات ثم عادت الي فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل من ثلاث بسبب طيرة ابن الرومي ، وذلك أنه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ ثم يصير الى الباب والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب في خشب الباب فتقع عينه على جار له كان نازلا بازائه ، وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه، فاذا نظر اليه رجع وخلع ثيابه وقال لايفتح أحد الباب . فعجبت لحديثها ، وبعثت بخادم كان لي يعرفه ، فأمرته بأن يجلس بازائه وكانت العين تميل اليه ، وتقدمت الى بعض أعواني أن يدعو الجار الأحدب، فلما حضر عندي أرسلت وراءه غلامي لينهض الى ابن الرومي ويستدعيه الحضور ، فاني لجالس ومعي الأحدب اذ وافى أبو حذيفة الطرسوسي ومعه برذعة الموسوس صاحب المعتضد ، ودخل ابن الرومي فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع شسع نعله : فدخل مذعوراً ، وكان اذا

فاجأه الناظر رآى منه منظرا يدل على تغير حال . فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه، فقلت له ياأبا الحسن أيكون شيء في خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك الى وجهه الجميل ؟ فقال قد لحقني ما رأيت من العثرة لأني فكرت أن به عاهة وهي قطع أنثييه ! قال برذعة: وشيخنا يتطير ؟ قلت نعم ويفرط ، قال ومن هو ؟ قلت علي بن العباس. قال : الشاعر ؟ قلت نعم . فأقبل عليه وأنشده :

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه
بتفريق ما بيني وبين الحبائب
رجعت الى نفسي فوطنتها على
ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها
فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه
وكن حذرا من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطرح
تطير جار أو تفاؤل صاحب

فبقي ابن الرومي باهتاً ينظر اليه . ولم أدر أنه شغل قلبه بحفظ ما أنشده ثم قام أبو حذيفة وبرذعة معه ؛ فحلف ابن الرومي لايتطير أبداً من هذا ولا من غيره ، وأومأ الى جاره ؛ فقلت ؛ وهذا الفكر أيضاً من التطير ، فأمسك . وعجب من جودة الشعر ومعناه وحسن مأتاه ؛ فقلت له ليتنا كتبناه ! قال اكتبه فقد حفظته وأملاه علي .

ومن شدة حذره وعظيم تطيره قوله لأبي العباس بن ثوابة وقد ندبه الى الخروج اليه وركوب دجلة .

حضضت على حطبي لناري فلا تدع
لك الخير تحذيري شرور المحاطب
ومن يلق مالاقيت في كل محنة
من الشوك يزهد في الثمار الأطايب
اذاقتني الاسفار ما كره الغنى
الي وأغراني برفض المطالب

ومن نكبة لاقيتها بعـــد نكبة رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب
فصبرى على الاقتار أيسر مطلبا على من التغرير بعد التجـارب

***

الخ .. الخ .

وهى طويلة وفيما مر كفاية تنبىء عنه وتدل عليـه . ولو مددت أطناب الاختيـار لتتبع هذا النحو من شـعره لخـرجت عن غرض الكتـاب .

وفى الجزء الأول من العمدة أنه : « كان كثير الطيرة ربما أقـام المدة الطويلة لا يتصرف تطيراً بسوء ما يراه ويسمعه ، حتى أن بعض اخوانه من الأمراء افتقده فأعلم بحاله فى الطيرة ، فبعث اليه خـادما اسمه اقبال ليتفاءل به . فلما أخذ أهبته للركوب قال للخادم : انصرف الى مولاك ! فأنت ناقص ومعـكوس اسـمك لابقا .. وابن الرومى القائل : الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان، وله فيه احتجاجات وشـعر كثير » .

وقال على بن عبد الرحمن العباسى صاحب معاهد التنصيص المتوفى سنة ثلاث وستين وتسعمائة : « كان كثير التطير جداً وله فيه أخبار غريبة وكان أصحابه يعبثون به فيرسلون اليه من يتطير من اسمه فلا يخرج من بيته أصلا ، ويمتنع من التصرف سائر يومه ، فأرسل اليـه بعض أصحابه يوما بغلام حسن الصورة اسمه حسن ، فطرق البـاب عليه فقال من ؟ قال حسن . فتفاءل به وخـرج ، واذا على باب داره حانوت خياط قد صلب عليها درفتين كهيئة اللام ألف ورأى تحتها نوى تمر ، فتطير وقال : هذا يشير بأن لاتمر ، ورجع ولم يذهب معه ، وكان الأخفش على بن سليمان قد تولع به فكان يقرع عليه الباب اذا أصبح، فاذا قال من القارع ؟ قال مرة بن حنظلة ! ونحو ذلك من الاسماء التى يتطير بذكرها ، فيحبس نفسه فى بيته ولا يخرج يومه أجمع ، وكتب اليه ينهاه ويتوعده بالهجاء » .

وجاء في هذا الكتاب قبل ذلك : « ... حكى ابن درستويه أن لائماً لامه فقال له : لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال ألا تنشدني شيئاً من قوله الذي استعجزتني عن مثله ؟ فأنشده قوله في الهلال :

أنظر اليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له زدني ، فأنشده قوله في الآذريون الأصفر وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة ، والفرس تعظمه بالنظر اليه وفرشه في المنزل :

كأن آذريونها ... والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب ... فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه ! تالله لا يكلف الله نفساً الا وسعها .! ذاك انما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن أنظر اذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع قولي من الناس ؟ هل لأحد قط مثل قولي في قوس الغمام .

وساق صبيح للصبوح دعوته ... فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كانجم ... فمن بين منقض علينا ومنفض
وقدنشرت أيدي الجنوب مطارفا ... على الجود كناوالحواشي الأرض
يطرزها قوس السحاب باخضر ... على أحمر في أصفر أثر مبيض
كاذيال خود أقبلت في غلائل ... مصبغةوالبعض أقصر من بعض

وبعضهم ينسبها لسيف الدولة بن حمدان منهم صاحب اليتيمة.
وقولي في صانع الرقاق :

ان أنس لا أنس خبازاً مررت به ... يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرة ... وبين رؤيتها قوراء كالقمر
الا بمقدار ما تنداح دائرة ... في صفحة الماء يلقى فيه بالحجر

وقولى فى قالى الزلابية :

ومستقر على كرسيه تعب ... روحى الفداء له من منصب نصب
رأيته سحراً يقلى زلابية ... فى رقةالقشر والتجويف كالقصب
كأنما زيته المقلى حين بدا ... كالكيمياء التى قالوا ولم تصب
يلقى العجين لجينا من أنامله ... فيستحيل شبابيكاً من الذهب

وفى الجزء الثانى من زهر الآداب : « كان ابن الرومى منهوما فى المآكل ، وهى التى قتلته . وكان معجبا بالسمك فوعده أبو العباس المرثدى أن يبعث اليه كل يوم بوظيفة لاتنقطع . فبعث اليه يوم سبت ثم قطعه ، فقال :

ما لحيتاننا جفتنا وأنى ... أخلف الزائرون منتظريهم
جاء فى السبتزورهم فأتينا ... من حفاظ عليه ما يكفيهم
وجعلناه يوم عيد عظيم ... فكأنا اليهود أو نحكيهم
وأراهم مصمين على الهجـ ... ـر فلم يسخطون من يرضيهم؟
قد سبتنا وما أتتنا وكانوا ... يوم لا يسبتون لا تأتيهم

فاتصل ذلك بالناجم فكتب الى ابن الرومى ..

أبا حسن أنت من لا نزا ... ل نحمد فى الفضل رجحانه
فكم تحسن الظن بالمرثد ... ى وقد قلل الله احسانه
ألم تدر أن الفتى كالسرا ... ب اذا وعد الوعد اخوانه
فبحر السراب يفوت القلو ... ب فقل فى طلابك حيتانه!

وخرج ابن الرومى الى بعض المتنزهات وقصدوا كرما رازقيا فشربوا هناك عامة يومهم ، وكانوا يتهمونه فى شعره ، فقالوا ان كان ما تنشدنا لك فقل فى هذا شيئاً ، فقال لا تريموا حتى أقول فيه وأنشدهم لوقته .

ورازقى مخطف الخصور ... كأنه مخازن البلور

الخ .. الخ .

وفى الجزء الأول من هذا الكتاب : « وكان ابن الرومى لا يزال

معتما وكان يغضب اذ سئل عن ذلك ، وسأله بعض الرؤساء : لم تعتم ؟ فقال بديها :

يا أيها السائلي لاخبره عني : لم لا أراك متجسرا
أستر شيئا لو كان يمكنني تعريفه السائلين ما سترا

وقد بين العلة التي أوجبت اعتمامه في قوله :

تعممت احصانا لرأسي برهة من القر يوما والحرور اذا سفع
فلما دهي طول التعمم لمتي وأودى بها بعد الاطالة والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة لتستر ما جرت على من الصلع
فيالك من جان علي جناية جعلت اليه من جنايته الفزع
وأعجب شيء كان دائي جعلته دوائي على عمد، وأعجب بأن نفع!

وفي الجزء الثالث من هذا الكتاب : « قالوا : وكان الناس يتشوقون الي أوطانهم ولا يفهمون العلة في ذلك حتى أوضحها على ابن العباس الرومي في قصيدة لسليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه على رجل من التجار يعرف بابن أبي كامل أجبره على بيع داره واغتصبه بعض جدرها بقوله :

ولي وطن آليت ألا أبيعه وألا أرى غيري له الدهر مالكا
عمرت به شرخ الشباب منعما بصحبة قوم أصبحوا في ظلالكا
وحبب أوطان الرجال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفته النفس حتى كأنه لها جسد ان بان غودر هالكا

الخ .. الخ ..

وقال على بن عبد الكريم النصيبي : أتاني أبو الحسن بن الرومي بقصيدته هذه وقال : انصفني وقل الحق .. أيهما أحسن قولي في الوطن أو قول الأعرابي .

أحب بلاد الله مابين منعج الي وسلمى أن يصوب سحابها
بلاد بها نيطت علي تمائمي وأول أرض مس جلدي ترابها

فقلت : بل قولك ، لأنه ذكر الوطن ومحبته وأنت ذكرت العلةالتى اوجبت ذلك ..

وتخلف سليمان عن نصرة ابن الرومى فذاك الذى هاجه على هجائه ، فمن ذلك قوله وقد خرج فى بعض الوجوه فرجع مهزوما .

جاء سليمان بنى طاهر فاهتاج معتز بنى المعتصم
كأن بغداد وقد أبصرت طلعته نائحة تلتدم
مستقبل منه ومستدبر وجه بخيل وقفا منهزم

وقال :

قرن سليمان قد أضر به شوق الى وجهه سيتلفه
كم يعد القرن باللقاء وكم يكذب فى وعده ويخلفه
لايعرف القرن وجهه ويرى قفاه من فرسخ فيعرفه

***

وقال المعرى فى رسالة الغفران : « أما ابن الرومى فهو أحد من يقال أن أدبه كان أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة ، واستعار من أبى بكر بن السراج كتابا فتقاضاه به فقال ابن الرومى لو كان المشترى حدثا لكان عجولا ، والبغداديون يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمية . وما أراه الا على مذهب غيره من الشعراء، ومن أولع بالطيرة لم ير فيها من خيرة » .

أما وفاته ففيها يقول المسعودى فى كتابه مروج الذهب . « ومن أهلك القاسم بن عبيد الله على ماقيل بالسم فى خشكنانجة على بن العباس بن جريج الرومى ، وكان منشؤه ببغداد ووفاته بها ، وكان من مختلقى معانى الشعراء والمجودين فى القصير والطويل متصرفا فى المذاهب تصرفا حسنا ، وكان أقل أدواته الشعر .. وكان ابن الرومى الأغلب عليه من الاخلاط السوداء ، وكان شرها نهما وله أخبار تدل على

ماذكرناه من هذه الجمل مع أبي سهل اسماعيل النوبختي وغيره من آل النوبخت » .

واختلفت الروايات في قتله فقال الشريف المرتضى في أماليه :

« أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد الكاتب قال حدثني محمد بن يحيى الصولي قال حدثني الباقطاني قال : اتصل بعبيد الله بن سليمان ابن وهب أمر علي بن العباس الرومي وكثرة مجالسته لأبي الحسين القاسم ابنه ، وسمع شيئاً من أهاجيه فقال لأبي الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا . فدخل يوما عبيد الله الى أبي الحسين وابن الرومي عنده فاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلا ، فقال لأبي الحسين بينه وبينه : ان لسان هذا أطول من عقله ومن هذه صورته لاتؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر في عاقبته فأخرجه عنك ! فقال أخاف حينئذ أن يعلن مايكتمه في دولتنا ويذيعه في تمكننا . فقال يابني ! اني لم أرد باخراجك له طرده ، فاستعمل فيه بيت أبي حية النميري .

فقلت لها سرا : فديناك لايرح سليما ، وان لاتقتليه فالممي

فحدث القاسم بن فراس بما جرى ، وكان أعدى الناس لابن الرومي وقد هجاه باهاج قبيحة . فقال له : الوزير أعزه الله أشار بأن يغتال حتى يستراح منه ، وأنا أكفيك ذلك ، فسمه في الخشكنانج فمات .. قال الباقطاني والناس يقولون ماقتله ابن فراس وانما قتله عبيد الله . قال ابن الرومي لما رجع الى داره وقد دب السم في أعضائه شعرا .

اشرب الماء اذا ما تلتهب نار أحشائي لاطفاء اللهب
فأراه زائدا في حرقتي فكأن الماء للنار حطب

هذه رواية . .

واعتمد ابن خلكان رواية أخرى فقال : « توفي يوم الأربعاء الليلتين بقيتا من جمادي الأولى سنة ثلاث وثمانين وقيل سنة أربع

وثمانين ، وقيل ست وسبعين ومائتين ببغـداد ، ودفن في مقبرة باب البستان وكان سبب موته رحمه الله تعالى أن الوزير أبا الحسين القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فراش (هكذا) فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو في مجلسه ، فلما أكلها أحس بالسم فقام ، فقال له الوزير الى أين تذهب ؟ فقال الى الموضع الذى بعثتنى اليه ، فقال له سلم على والدى ! فقال له ما طريقى على النار ! وخـرج من مجلسه وأتى منزله وأقام أياما ومات، وكان الطبيب يتردد اليه ويعالجه بالأدوية النافعة للسم فزعم أنهغلط فى بعض العقاقير؛ وقال ابراهيم بن محمد بن عرفة الأزدى المعروف بنفطويه : رأيت ابن الرومى يجـود بنفسه فقلت له : ماحالك ؟ فأنشد :

غلط الطبيب على غلطة مورد عجزت موارده عن الاصدار
والناس يلحون الطبيب وانما غلط الطبيب اصابة المقـدار

وقال أبو عثمان الناجم الشاعر : دخلت على ابن الرومى أعـوده فوجدته يجود بنفسه فلما قمت من عنده قال لى :

أبا عثمان أنت حميد قـومك وجودك للعشيرة دون لومك
تزود من أخيـك فما أراه يراك ولا تراه بعـد يومك

وللناجم قصة عن وفاة ابن الرومى رواها ابن القارح فى رسالته الى المعرى وفيها يقول :

« دخلت عليـه فى علته التى مات فيها وعنـد رأسه جام فيه ماء مثلوج وخنجر مجرد لو ضرب به صدر خرج من ظهر . فقلت : ماهذا؟ قال : الماء أبل به حلقى ، فقلما يموت انسان الا وهو عطشان. والخنجر ان زاد على الألم نحرت نفسى ، ثم قال : أقص عليك قصتى تستدل بها على حقيقة تلفى أردت الانتقـال من الـكرخ الى باب البصرة ، فشاورت صديقنا أبا الفضل وهو مشتق من الافضال فقال : اذا جئت القنطرة فخذ عن يمينك وهو مشتق من اليمن واذهب الى سـكة

النعيمة وهو مشتق من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من العافية . فخالفته لتعسي ونحسي وشاورت صديقنا جعفرا وهو مشتق من الجوع والفرار فقال : اذا جئت القنطرة فخذ عن شمالك وهو مشتق من الشؤم ، واسكن دار ابن قلابة . وهي هذه لاجرم قد انقلبت بي الدنيا . وأضر ما على العصافير في هذه السدرة تصيح «سيق سيق» فها أنا في السياق . ثم أنشدني :

أبا عثمان أنت قريع قومك ... وجودك في العشيرة دون لومك
تمتع من أخيك فما أراه ... يراك ولا تراه بعد يومك

وألح به البول ، فقلت له : البول ملح بك . فقال :

غداً ينقطع البول ... ويأتي الويل والغول
الا أن لقاء اللـ ... ـه هول دونه الهول

ومات من الغد »

***

وروى صاحب زهر الآداب اتفاقا أن ابن الرومي فصد في مرض وفاته من سياق قصته عن بعض معانيه المأخوذة حيث يقول في الجزء الأول من الكتاب :

« دخل يحيى بن خالد على الرشيد وقد ابتدأت حاله في التغير فأخبر أنه مشغول فرجع ، فبعث اليه الرشيد . خنتني فاتهمتني ، فقال اذا انقضت المدة كان الحتف في الحيلة ، والله ما انصرفت الا تخفيفا. أخذه ابن الرومي فقال وقد فصده بعض الأطباء فزعم أن الفصد زاد في علته . غلط الطبيب الى آخر البيتين ... ولهذه القصة قيمتها فيما يلي من البحث في أسباب وفاته .

***

هذه أنفع الأخبار التي وردت في ترجمته . أما ديوانه فقد جاء عنه في الفهرست لابن النديم أن شعره « كان على غير الحروف . رواه عنه المسيبي ثم عمله الصولي على الحروف وجمعه أبو الطيب وراق ابن

عبدوس من جميع النسخ فزاد عن كل نسخة مما هو على الحـروف وغيرها نحو ألف بيت » .

ثم ذكر أسماء رواته وعدة الأوراق التي كتبوها من شعره وهم: مثقال غلام ابن الرومى مائة ورقة ، ورواه أبو الحسـن على ابن العصب الملحى عن مثقال عن ابن الرومى .

ابن الحاجب غلام ابن الرومي مائة ورقة ، أحمد بن أبي قر الكاتب مائة ورقة ، خالد الكاتب وعمله الصولى مائتا ورقة » .

والصولي هو أبو بكر الصولى الحافظ الراوية المشهور .

الفصل الثالث

حيـــاة ابن الرومى

كما تؤخذ من معارضة اخباره على شعره

ذلك كل ما عثرنا عليه من أخبار ابن الرومى متفرقا فى كتب الأدب والتاريخ ، لم تترك منه الا نبذا قليلة تجىء فى مواضعها من فصول هذا الكتاب ، والا الفضول الذى لاينتظم فى مادة الترجمة ولايزيدنا علما بالرجل أو بأدبه وشعره .

وكل هذا الذى عثرنا عليه وما يشـابهه فى مادته لا يجزىء فى ترجمة وافية أو فيما يقرب من ترجمة وافية . لأنه مفرط الزيادة فى مواضع ومفرط النقص فى مواضع أخرى ، وبين أجزائه فجوات بعيدة لاتترك خلوا ، ولا حيلة لنا الآن فى ملئها . فلا خبر عن صباه ولا عن دراسته ولا عن أهله ولا عن أمر مفصل موثوق به من أمور معيشته، وبغير هذه العناصر الجوهرية لاتقوم ترجمة ولا يكمل تصوير رجل . وعلى هذه القلة فى الأخبار التى بين أيدينا لانراها تسلم من الخطـأ حينا ومن المبالغة أحيانا . فنحن ــ على حد المثل الذى اخترناه ــ كمن يؤتى له بعظام ناقصة ليبنى منها بنية جسم كامل ، وفيها مع هذا عظام مدسوسة لاتدخل فى بنية الجسم الذى يراد تركيبه !

الا أن ابن الرومى يعوضنا بعض العوض من ذلك النقص الكبير بخاصة فريدة فيه ليست فى غيره من الشعراء : هى مراقبته الشديدة لنفسه وتسجيله وقائع حياته فى شعره .

فما من أحد كان له شأن فى حياته الا وجدت اسـمه فى ديوانه ممدوحا أو مهجوا أو موصوفا أو مردودا عليه ، وما عاب أحد مشيته

أو آكله أو لبسه العمامة أو طريقته فى النظم الا كان لذلك خبر مفيد فى ديوانه ، ولم يعرف عنه أنه كان يشتهى طعاما أو فاكهة الا وذلك معروف من شعره قبل أن يعرف من نوادر المتحدثين عنه ، وما خامر طويته خلق محمود أو مذموم الا شهد به على نفسه كأنه فى حرج من أمر كتمانه .

أقـــر على نفسى بعيبى لأننى ... أرى الصدق يمحو بينات المعايب
لؤمت لعمر الله فيمـا أتيتـــه ... وان كنت من قوم كرام المناصب
ولابد من أن يلؤم المـرء نازعاً ... الى الحمأ المسنون ضربة لازب

على أنه يشهد بخلة الكذب على نفسه كما يشهد لها بهذا الصدق المقرون باظهار العيوب ، فيقول فى أصرح عبارة :

وانى لـذو حـلف كـاذب ... اذامااضطررت وفىالأمر ضيق
وهل من جناح على مـرهق ... يدافع بالله ما لا يطيـق ؟ !

ويقول فى تسجيل حرصه وجبنه :

وأصبحت فى الأثراء أزهد زاهد ... وان كنت فى الأثراءأرغبراغب
حريصاً جبـاناً اشتهى ثم انتهى ... بلحظى جناب الرزقلحظ المراقب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها ... وأستار غيب الله دون العـواقب
ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى ... ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب

ويتوهم أن أناسا سيعيبون مجونه فى مجلس الشراب ويرون أنه لايليق بما يدعى من العلم والوقار فيسبقهم الى ذاك ويقول :

وأرى أن معشراً سـيقولو ... ن سخيف من الرجـال لعوب
أين عنـــه وقار ما يدعيـه ... من علوم لحامليها قطـــوب
ولعمرى أن الحـكيم وقور ... ولعمرى أن الكريم طـروب

ويحس دبيب الشـيخوخة فى مآرب نفسه وخلجات قلبه فيخشى أن يفوته تسـجيل ذلك كله كأنه محاسب عليه معـاقب على تفويته ، فيقـول لقـرائه :

اكتهلت همتى فأصبحت لا أبهـ ـج بالشيء كنت أبهــج بـه
وحسب من عــاش من خلوته خلــوة تعتـــريه فى أربه

وهكذا فى الصــغائر والكبائر ، وفى وقائع العيش وخـــواطر السريرة ، وفيما يلقى به الناس ويلقى به الله .

وقد تجد فى الشعراء من تتعرف بعض وقائعه من قراءة شعره ، ومن تستطلع خلائقه من ثنايا كلامه ، ولكن ابن الرومى لايحوجك الى التعرف والاستطلاع لأنه يعفيك من الملاحظة بمايقوم به هو من ملاحظة نفسه وتقييد شوارد فكره وهمسات فؤاده وسبحات أحلامه . فكأنما هو رقيب على بواطنه وظواهره ، وكأنما أعطى نفسه ليجربها ويقيد تجاربه فيها ! فكان ديوان شعره كناشة الرقابة أعدها ليحصى فيها كل ما يحصيه الرقيب الحسيب .

هذه الخصلة فى الشاعر تعوضنا كثيراً مما ضيعته التــواريخ من حوادثه وأوصافه. فعلى ماجاء فى ديوانه نعتمد فى تصحيح الأخبار المسطورة وتكميلها على وجه نستوفى به الترجمة جهد المستطاع ، فهو حسبك من مترجم لحياته وصافة لحقيقته ، ولولا أن الشعر لايسجل الأرقام ولايتقصى كل مافات الشاعر قبل أن يصبح شاعراً لكان هو حسبك من رواية لاتحتاج بعده الى تدوين رواية .

اصله ونشأته :

«ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى يوم الأربعاء بعد طلوع الفجر لليلتين خلتا من رجب سنة احدى وعشرين ومائتين ببغداد فى الموضع المعروف بالعقيقة ودرب الختلية فى دار بازاء قصر عيسى بن جعفر بن المنصور » .

وقد رجعنا الى كتب المضاهاة بين التــاريخ الهجــرى والتاريخين الميلادى والقبطى فوجدنا فى كتاب « التوفيقات الالهــامية » لصاحبه محمد مختار باشا أن أول رجب من تلك السنة يوافق الثلاثاء الذى يقع فى العشرين من شهر يونيو سنة ٨٣٥ ميلادية، وفى السادس والعشرين

من شهر بئونة سنة ٥١٢ قبطية . فاليوم الثاني من رجب هو يوم أربعاء وهو مما يحقق صحة تاريخ المولد الذى لم يختلف فيه مؤرخوه ..

وكان ابن الرومى مولى لعبد الله بن عيسى بن جعفر بن المنصور، وجعفر هو الابن الثانى للمنصور لم يتول الملك ولم تكن له ولاية عهد ولا كانت بعده لأحد من ولده الذين نشأ فيهم الشاعر .

ولا يدع ابن الرومى مجالا للشك فى أصله الرومى فانه يذكره ويؤكده فى مواضع شتى من ديوانه كقوله .

ونحن بنو اليونان قوم لنا حجى ومجد وعيدان صلاب المعاجم

وقوله فى مدح بعض مواليه من بنى العباس .

ومتى اختل ابن روميكم فأياديكم حرى منه قمن

وقوله فيهم :

مولاهم وغذى نعمتهم والروم، حين تنصنى، أصلى

وغير ذلك كقوله :

قد تحسن الروم شعرا ما أحسنته العريب

و : آبائى الروم توفيل وتوفلس ولم يلدنى ربعى ولا شبث

و : يابنى السرى قد لزمتكم حرمة الروم ويحكم فاحفظونى

و : اذا ما حكمت والروم أهلى فى كلام معرب كنت أهلا

و : اذا الشاعر الرومى أطرى أميره فناهيك من مطرى وناهيك من مطر

و : ان لم أزر ملكا أشجى الخطوب به فلم يلدنى أبو الأملاك يونان

بل أن تعدت فلم أحسن سياستها فلم يلدنى أبو السواس ساسان

أو كقوله وهو كما تقدم فى نسب أبيه وأمه .

كيف أغضى على الدنية والفر س خئولى والروم أعمامى

واسم جده مع هذا جريج أو جورجيس وهو اسم يونانى لا شبهة فيه . فلا معنى اذن للشك فى أصله ولا ينبغى الالتفات الى من قال انه سمى ابن الرومى لجماله فى صباه .

***

ابــوه :

ولم يرد لأبى الشاعر ذكر خاص فى ديوانه الا حيث يقــول من قصيدة بائية يذكر فيها مناقبه ومناقب آبائه .

وكم من أب لى ماجد وابن ماجد   له شرف يرسى على الشرف المربى
اذا أمطرت كفاه بالبذل نورت   له الأرض واهتزت رباها من الخصب

والا حيث يقــول :

شادلى السور بعد توطئة الأ   س أب قال : أنت للشرف

والبيتان الأولان فخر يراد به وقع الكلام واستيفاء باب من أبواب الشعر التى كان الشعراء ينظمون فيها من نسيب ومدح ورثاء وهجــو وفخر ونحوها ؛ فليس فيه خبر ولا رواية ولكنه معالجة فنية كهذه الموضوعات التى يعالجها الشاعر المعاصر لتصــوير الأطوار النفسيه ووضع الأماثيل على لسان الحال ثم لايعنى بها الأخبار عن نفسه وان جاءت بضمير المتكلم . وقد كان الشاعر القديم يأبى أن يخلو ديوانه من باب من أبواب الشعر المعروفة ويأنف أن يظن به التقصير فى واحد منها ، فهو لهذا يشبب ويفخر ويقول فى الفخر ما يهــول وقعه لا مــا يصدق خبره ! والفخر على هذا الاعتبار عمل فنى يؤخذ على هذا المعنى ولا يستمد منه التاريخ أو يرجع اليه فى تقرير الوقائع .

والبيت الثالث يلحق بهذين البيتين فى الفخر والاشادة بالنسب من ناحية «الفن» لا من ناحية «التاريخ» . الا أننا نستخلص منه أن أباه كان يتوسم فيه الذكاء ويرجو أن يشرف بعلمه وأدبه كما شرف بالعلم والأدب كثيرون من أبناء الموالى ارتفعوا الى مناصب الوزارة من طريق الكتابة والمساجلة ومعاشرة العظماء المتأدبين ، وكان أبوه صديقا لبعض العلماء والأدباء منهم محمد بن حبيب الراوية الضليع فى اللغة والأنساب، فكان الشاعر يختلف اليه لهذه الصداقة وكان محمد بن حبيب يخصه لما يراه من ذكائه وحدة ذهنه ، وحدث الشاعر عنه فقال « انه كان اذا

مر به شيء يستغربه ويستجيده يقول لي يا أبا الحسن ضع هذا في تامورك » (١)

ونرجح أنه فقد أباه وهو صغير لم ييفع ، لأنه لم يرثه حين وفاته مع أنه قال الشعر وهو صبي في المكتب (٢) ، ولأنه كان يسمى أخاه « والدا » كأنما كان له عليه فضل تربية وكفالة .

***

امه :

وقد علمنا أن أمه كانت فارسية من قوله « الفرس خئولي والروم أعمامي » وقوله « فلم يلدني أبي السواس ساسان » بعد أن رفع نسبه الى «يونان» من جهة أبيه ، ولا يخفى أن انتماءه الى ساسان لا يقصد به أنه من أبناء الملوك الساسانيين وانما هو كقول المصري اليوم أنه من أبناء الفراعنة ؛ ولا علاقة في النسب بينه وبينهم .

وربما كانت أمه من أصل فارسي ولم تكن فارسية قحا لأبيها وأمها وهذا هو الأرجح ، لأن علمه بالفارسية — كما سيأتي — لم يكن علم رجل نشأ في حجر أم تتكلم هذه اللغة ولا تحسن الكلام بغيرها .

وماتت أمه وهو كهل أو مكتهل كما يقول في رثائها :

أقول — وقد قالوا : أتبكي كفاقد
رضاعا ، وأين الكهل من راضع الحلم
هي الأم يا للناس جرعت فقدها
ومن يبك أما لم تذم قط لا يذم

---

(١) معجم الادباء الجزء السادس ص ٤٧٢

(٢) جاء في ديوانه أنه قال الابيات الآتية في هجو غلام هاشمي يسمى جعفر وهي أول ما قاله :

أجعفر حزت جميع العيو ب . فما فيك من خصلة تمدح
كلامك أكذب من يلمع يخيله بالضحى صحصح
وحلمك أطيش من ريشة وروحك من هضبة أرجح
ووجهك من وجهه يوم الفر اق في مقلتي عاشق أقبح
فما لي حياتك لي مفرح ولا في مماتك لي مترح

ونستغرب نحن أن تكون هذه الابيات أول ما قال ولكنا لا نستغرب أن يقولها في المكتب لانهم كانوا يمكثون فيه حتى يحفظوا القرآن وكان ابن الرومي شاعرا مجيدا وهو دون العشرين .

وكانت تقية صالحة رحيمة كما يؤخذ من أبياته فى رثائها :

لقد فجعت فيك الليالى نفوسها　　بمحيية الأسحار حافظة العتم
ولم تخطىء الأيام فيك فجيعة　　بصوامة فيهن طيبة الطعم
وفات بك الأيتام حصن كنافة　　دفىء عليهم ليلة القر والشيم
فلا تعدمى أنس المحل فطالما　　عكفت فآنست المحاريب فى الظلم
رجعنا وأفردناك غير فريدة　　من البر والمعروف والخير والكرم

وجزع عليها جزعاً شديداً ينم عليه قوله :

ألا من أراه صاحبا غير خائن　　ألا من أراه مؤنسا غير محتشم
ألا من تلينى منه فى كل حالة　　أبر يد برت بذى شعث يلم
ألا من اليه أشتكى ما ينوبنى　　فيفرج عنى كل غم وكل هم
نبا ناظرى يا أم عن كل منظر　　وسمعى عن الأصوات بعدك والنغم

وأصبحت الآمال ـ مذ بنت ـ والمنى
غوادر عندى غير وافية الذمم
وصارمت خلانى وهم يصلوننى
وقد كنت وصال الخليل وان صرم
وآنسنى فقد الجليس وأوحشت
مشاهده نفسى ، ولم أدر ما اجترم

وكانت لها أخت ماتت قبلها ، فهو يقول اذ يرثيها انه كان له جناحان من عطفها وعطف أمه .

أرانى وأمى بعد فقدان أختها　　وان كنت فى رفه بها وصلاح
كفرخ قطـ ... الدو بان جناحه　　فباء الى حصن بفرد جناح

***

الخوه :

ويظهر أن أبويه لم يعقبا من البنين غيره وغير أخيه محمد المكنى أبا جعفر ، وهو أكبر منه لأنه يقول « بأخى بل بوالدى بل بنفسى» وهو يتفجع بذكراه ، وشقيقه لأنه يقول فى موضع آخر .

بأخ شقيق بعد أم برة　　بالأمس قطع منهما أقرانه

ويذكره بمثل ذلك فى غير موضع .

وكل ما وصل الينا عن هذا الأخ قصة جاءت فى ديوان الشاعر نعلم منها أنه كان أديبا « وكان يكتب لرجل فعزل بعد مدة ، فعبث به آل أبى شيخ أصدقاؤه وقالوا : عزله شؤمك ، وكان بين آل أبى شيخ وابن سعدان مؤدب المؤيد مودة فخرجوا اليه فى أيام المؤيد فأقاموا مدة ، وكان من المؤيد ماكان وتشتت أصحابه فكتب اليهم أبو جعفر يولع بهم ويقول : أنا شؤمى عزال وشؤمكم قتال وسيأتيكم فى هذا نظم على بن العباس ، يعنى أخاه ؛ ومن ذلك النظم قوله :

أنا شؤمى فيما تقولون عزا ... ل ولكن شؤمكم قتال
بالذى أدرك المؤيد منكم ... وابن سعدان تضرب الأمثال
زرتموه والصالحات عليه ... مقبلات فأدبر الاقبال

. . . .

ان شؤما حلت به عقدة المـ ... ـلك لشؤم تزوم منه الجبال

ونعلم من هذه القصة أن محمدا عاش الى سنة اثنتين وخمسين ومائتين وهى السنة التى قتل فيها المؤيد ، وكان ابن الرومى فى تلك السنة قد بلغ الحادية والثلاثين . فالأرجح أن محمداً قد عاش بعدها بضع سنوات ، لأن الشاعر ذكره فى رثاء أمه حيث قال : « أقاسى وصنوى منه كل شديدة » أى ذكره وهو كهل جاوز الحادية والثلاثين لأنه كان كهلا حين ماتت أمه كما مر بنا فى رثائها ، والحادية والثلاثون ليست بسن كهولة الا أن يكون الذين لاموا الشاعر لفرط جزعه على أمه قد تعمدوا تكبير سنه لاستيجاب الملام .

ونرى فى موضعين من الديوان أبياتاً يستعطف بها الشاعر لأخيه رئيساً غضب عليه ، وكان أخاه مات وهو يعمل فى خدمة عبيد الله ابن عبد الله بن طاهر أحد أركان بيت بنى طاهر المشهور فى دولة بنى العباس . فان الشاعر يقول من قصيدة يخاطب بها عبيد الله ويذكر أخا شقيقا مات بعد أم برة :

فليحيه الملك الهمام فلم يفت ... محياه قدرته ولا سلطانه
وحياته لى أن أقوم مقامه ... وأسد من دار الأمير مكانه

فالشاعر يتكلم عن نفسه على ما نرجحه كثيراً ويطلب أن يحل في دار عبيد الله محل أخيه (١) . والمجزوم به بعد هذا كله أن محمداً مات بعد موت المؤيد وأنه كان على شيء من الأدب ومعرفة الكتابة وحب العبث والدعابة .

وقد حزن عليه ابن الرومي حزناً طويلا ملحاً بقي يعاوده الى آخر أيامه ، فلم يفتأ يذكره ويعيد ذكره في شعره اذا مدح أو عتب أو استعبر ، ومن ذاك أنه قال يرثيه :

وتسليني الأيام لا أن لوعتي ... ولا حزني كالشيء ينسى فيعزب
ولكن كفاني مسليا ومعزيا ... بأن المدى بيني وبينك يقرب

وقال لصاحب كان يحسده ويغرى به .

أيها الحاسدي على صحبتي العمـ ... ـر وذمي الزمان والاخوانا

. . . .

ليت شعري ماذا حسدت عليه ... أيها الظالمي أخائي عيانا
أعلى أنني ظمئت وأضحى ... كل من كان صاديا ريانا

. . . .

أم على أنني ثكلت شقيقي ... وعدمت الثراء والأوطانا

---

(١) نقول هذا ترجيحا لا تحقيقا لان القصيدة مبدوءة بهذا البيت :

امسى دمشق الامير ودهره ... ملق عليه بركه وجرانه

فما معنى تلقيب ابن الرومي نفسه بالدمشقي في مطلع القصيدة ؟ اكان ذلك لقبا له عند الامير ؟ يجوز . وتكون النسبة الى الدمشق وهو الرجل السريع اليدين المنجز عمله ، ولكننا لانعلم من اخباره ما يؤيد هذا التلقيب ، وهناك دمشقي صديق لابن الرومي هو الاديب « ابو العباس احمد بن القاسم بن الخليل الدمشقي » عاتبه الشاعر لتمالبه عن معونته فقال :

يا ايها المتعالي عن معونتنا ... غنى بما فيه من ذهن ومن ادب
لو استعنت بنفس غير انفسنا ... او غير نفسك قابلناك بالغضب
لكن عنيت بنفس لا كفاء لها ... في النظم والنثر من شعر ومن خطب
ولا ملام على مرتاد مصلحة ... باع اللجين بضعفيه من الذهب

فهل القصيدة موضوعة على لسان هذا الدمشقي ؟ يجوز كذلك . ولكنه جد بعيد

وقال وهو يعاتب القاسم بن عبيد الله :

أنا ذاك الـذي سقته يد السقـ ـم كئــوساً من المــرار رواء
ورأيت الحمام في الصور الشنـ ـع ، وكانت لولا القضاء قضاء
ورماه الزمان في شــقة النفـ ـس فأصمى فؤاده اصـــماء

وقد مرض واشتد مرضه بعـد موته فهو يقول حـين أجلي عن مسكنه .

فيــه عافانى الاله من الشــ ـكو وفك البلاء عنى كبوله
بعـد جهد حملت منه ضروبا ليس أثقـالهن بالمحمـوله
ومصاب بشــقة النفس منى ضمن الجسم سقمه ونحوله

ولم يبق لابن الرومى بعد موت ذلك الأخ الوحيد أحد يعول عليه من أهله أو من يحسبون فى حكم أهله ، الا أناس من مواليه الهاشميين العباسيين كانوا يبرونه حينا ويتناسونه أحيانا ، وكان هو لعهد الهاشميين الطالبيين أحفظ منه لعهد الهاشميين العباسيين كما يظهر مما يلى . أما ابن عمه الذى أشار اليــه فى قوله :

لى ابن عم يجــر الشر مجتهــدا الى قدما ، ولا يصلى له نــارا
يجنى، فأصلى بما يجنى، فيخذلنى وكلما كان زنداً كنت مســعارا

فلا ندرى أهو ابن عم لح أو ابن عم كلالة . ومبلغ ما بينهما من صلة المودة ظاهر من البيتين .

***

أولاده وزوجته :

ورزق ابن الرومى ثلاثة أبناء : هم هبة الله ومحمد وثالث لم يذكر اسمه فى ديوانه ، ماتوا جميعاً فى طفولتهم ورثاهم بأبلغ وأفجع مارثى به والد أبناءه ، وقد سبق الموت الى أوسطهم ــ محمد ــ فنظم فى رثائه الدالية المشهورة التى يقول منها .

توخى حمام الموت أوسط صبيتى فلله كيف اختــار واسطة العقد
على حين شمت الخــير فى لمحاته وآنست من أفعــاله آية الرشد

ومنها فى وصف مرضه .

لقد قل بين المهد واللحد لبثه ... فلم ينس عهد المهد أوضم فى اللحد
ألح عليه النزف حتى أحاله ... الى صفرة الجادى عن حمرة الورد
وظل على الأيدى تساقط نفسه ... ويذوى كما يذوى القضيب من الرند

ويذكر فيها أخويه الآخرين .

محمد ما شيء توهم سلوة ... لقلبى ، الا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونان للاحزان أورى من الزند
اذا لعبا فى ملعب لك لذعا ... فؤادى بمثل النار عن غير ما عمد
فما فيهما لى سلوة بل حزازة ... يهيجانها دونى وأشقى بها وحدى

فابنه محمد اذن قد مات منزوفا فى حياة أخويه الصغيرين وهو فيما بين الرابعة والخامسة ، لأنه يقول فيه « لقد قل بين المهد واللحد لبثه » ويقول « وظل على الأيدى تساقط نفسه » وانما يحمل الطفل المريض على الأيدى فى مثل تلك السن ، ولا يحتمل أن يكون أصغر من ذلك لأن أخاه الصغير كان فى سن اللعب ، وهى لاتكون قبل الثالثة ونحوها

أما ابنه هبة الله فقد ناهز الشباب على مايفهم من قوله فى رثائه.

يا حسرتا فارقتنى فننا ... غضا ، ولم يثمر لى الفنن

والبيت من قطعة مرة دفينة الحزن أشبه بالنشيج منها بالنحيب يقول فيها .

ابنى انك والعزاء معا ... بالأمس لف عليكما كفن
تالله لا تنفك لى شجنا ... يمضى الزمان وأنت لى شجن
ما أصبحت دنياى لى وطنا ... بل حيث دارك عندى الوطن

. . . .

أولادنا أنتم لنا فتن ... وتفارقون فأنتم محن

وكأنها لم تشف لوعته أو كأنه لام نفسه على حزنه الصامت . فعاد يقول وهو موزع القلب بين الصبر والجزع .

شجى أن أروم الصبر عنك فيلتوي علي ، ولؤم أن يساعدني الصبر
فيا حـزني ألا سـلو يطيعني ويا سوءتي من سلوتي ، انها غدر

وفي الديوان أبيات بائية يرثي بها ابنا لم يذكر اسمه ، وهي هذه الأبيـات :

حمـاه الكرى هم سرى فتأوبا فبات يراعي النجم حتى تصـوبا
أعيني جودا لي فقد جدت للثرى بأكثر مما تمنعـان وأطيبـا
بني الذي أهديته أمس للثـرى فلله ما أقـوى قنـاتي وأصلبا
فان تمنعاني الدمع أرجع الى أسى اذا فترت عنه الدموع تلهبـا

ويبعد أن تكون رثاء لابنه الأكبر هبـة الله ، فهي على الأرجـح رثاؤه لأصغر أبنائه الذي لم يذكر اسمه ، ولا ندري هل مات قبل أخيه أو بعده ، ولكن يخيل الينا بالمقابلة بين هذه المراثي أن الأبيات البائية آخر مارثى به ولداً لأنها تنم عن فجيعة رجل راضه الحـزن على فقد البنين حتى جمدت عيناه ولم يبق عنده من البكاء الا الأسى المتلهب في الضلوع والا العجب من أن يكون قد عاش وصلبت قناته لكل هذه الفجائع . وقد كان رثاؤه لابنه الأوسـط صرخة الضربة الأولى ففيها ثورة لاعجة تحس من خلل الأبيات ، ثم حل الألم المر محـل الألم السوار في مصيبته الثانية فوجم وسكن واستعبر ، ثم كانت الخاتمة فهو مستسلم يعجب للحزن كيف لم يقض عليه ويحس وقدة المصاب في نفسه ولا يحسه في عينيه .

ولقد غشيت غبرة الموت حيـاته كلها وماتت زوجته بعـد موت أبنائه (١) جميعاً فتمت بها مصائبه وكبر عليه الأمر وقل فيه العـزاء فهـو يقول :

عيني سـحا ولا تشـحا جل مصابي عن العـزاء

ورثاها في موضع آخر يقول فيه :

فاستفرزا درة الشـؤون على بدركمـا ، بل على قضيبكما

---

(١) نكاد نجزم بهذا لانه لم يشر في رثائه اباها الى ولد بركته مع استقصائه كل معنى يقال في موضوع ، وذلك أحق شيء بان يذكر في رثاء زوجه .

ويلوح منه أنها ماتت وهي فتية توصف بما توصف به الفتيات ويغلب أنه هجر الزواج بعدها زمناً فلم يتزوج الا فى أواخر عمره اذا صح ما استخلصناه من بعض أبياته .

ونقول ما استخلصناه لأننا لانعتمد على خبر صريح فى أمر زواجه الآخر . ولكننا لابد أن نقف فى هذا الصدد عند أبيات قالها للقاسم ابن عبد الله وهى :

وهب خادمالم يوف نعماك شكرها ... فبدل عرف عنده بنكير
فما ذنب طفل كان تسبيب كونه ... رجاؤك ، يا مرجو كل فقير
أيحسن أن جر العيال رجاؤكم ... وخاب نداكم ، وهو خير خفير
غياثكم يا آل وهب فانني ، ... وان لم أكن أعمى ، أضر ضرير

وأبيات أخرى لعل المخاطب بها هو القاسم أيضاً وهى :

منعت الكفاف الذى لم تزل ... تجود به كفك الموسعة
فان كنت مسلم ذو حرمة ... لقول أعاديه . ما أضيعه
فعجله بالسيف كى يستر ... يح، انكنت منمثله فى سعة
أتسلمنا للردى ستة ... وقد كنت ترحمنا أربعة ؟

لابدأن نقف عند هذه الأبيات ولابد أننفهممنها أنهتزوج فى أواخر عمره ورزق ولداً فأصبح أهل بيته ستة بعد أن كانوا أربعة ، ولايمكن أن تكون الاشارة فى الأبيات الرائية الى طفله الأول وزوجته الأولى. لأن الأبيات قيلت للقاسم بن عبيد الله ، والقاسم ولد حوالى سنة خمس وخمسين ومائتين ، فلا يبلغ من السن المبلغ الذى يرجى فيه ويمدح الا حوالى سنة خمس وسبعين ، ولا يعقل أن ابن الرومى بقى عزبا الى تلك السنة ثم تزوج زواجه الأول ورزق أولاده الثلاثة .

وكيفما كانت جلية القول فى هذه الأبيات فقد كانت له زوجة عندما هجا عمرو حاجب القاسم ، لأنه قال فيه :

أيركب عمرو حوله من يحفه
ويعوزنى قوت أعول به عرسى ؟

ولا يكون ذلك قبل سنة خمس وسبعين ونحوها . كذلك لاشك في أنه لما قارب الستين لم يكن متزوجا لأنه يقول في قصيدة نظمها في نحو تلك السن .

ومبيتي بلا ضجيع لدى القبـ ـر ، وللوغد شادن مخضوب

ولم يذكر أحد من مؤرخيه — ولا الناجم الذي حضر وفاته — أنه ترك ولداً بعده ، فاذا صح ما استخلصناه من أمر زواجه الثاني فهناك فجيعة أخرى أصيب بها في ولد جديد (١) قبل وفاته ، فمات ولا زوج له ولا بنون .

***

تعليمه :

ذلك كل ما استطعنا أن نجمعه من الأخبار النافعة عن نشأة الشاعر وأهله . ولا محصل للبحث في المصادر التي بين أيدينا عن أيام صباه وتعليمه ومن حضر عليهم وتتلمذ لهم من العلماء والرواة . فان هذه المصادر خلو مما يفيد في هذا المقام ، الا ماجاء عرضاً في الجزء السادس من الأغاني حيث يروى ابن الرومي عن « أبي العباس ثعلب عن حماد بن المبارك عن الحسين بن الضحاك » وحيث يروى في موضع آخر « عن قتيبة عن عمرو السكوني بالكوفة عن أبيه عن الحسين بن الضحاك » فيصح أن تكون الرواية هنا رواية تلميذ عن أستاذ ، لأن

---

(١) فقى ابن الرومي زمنا لايتزوج حتى كان يسأل « ... لم لا اتزوج » كما جاء في ابيات له جيمية ، ومن اقواله في هذا المعنى :

انا حيران ولا زوجة لي ... بل على النعمة عند ابن خلف

ومنها :

كيف ترضى الفقر عرسا لامرىء ... وهو لا يرضى لك الدنيا امه

ومنها ما كتب به صديق له يسمى ابراهيم

ياسمي الخليل اباك ادعو ... دعوة بمست سميا مجيبا

امة من اماء طولك اجمه ... ت على نقلها الى قريبا

ما تزوجتها على غير تأميـ ... ـلك لانظر اجائز ان اخيبا

وقليل النوال لي هذه الحا ... لة مما اراه شيئا عجيبا

وقد يكون بعض هذا الزمن مضى قبل زواجه الاول ، ولكننا رأينا كذلك انه قضى زمنا في اواخر عمره وهو اعزب .

ثعلبا ولد سنة مائتين فهو أكبر من الشاعر باحدى وعشرين سنة، أما قتيبة (والمفهوم أنه أبو رجاء قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفي المحدث العالم المشهور) فجائز أن يكون ممن أملوا عليه وعلموه لأنه مات وابن الرومي يناهز العشرين .

وقد مر بنا أنه كان يختلف الى محمد بن حبيب الراوية النسابة الكبير ، وسنرى هنا أنه كان يرجع اليه في بعض مفرداته اللغوية فيذكر شرحها في ديوانه معتمداً عليه : قال بعد هذا البيت :

وأصدق المدح مدح ذي حسد ملآن من بغضة ومن شنف

« قال لي محمد بن حبيب : الشنف ماظهر من البغضة في العين» وأشار اليه بعد بيت آخر وهو :

بانوا فبان جميل الصبر بعدهم فللدموع من العينين عينان

اذ فسر كلمة « عينان » فروى عن ابن حبيب أنه قال . « عان الماء يعين عيناً وعينانا اذا ساح » .

فهؤلاء ثلاثة من أساتذة ابن الرومي على هذا الاعتبار ، ولا علم لنا بغيرهم فيما راجعناه . وحسبنا مع هذا أن الرجل ـ كيفما كان تعليمه وأيا كان معلموه ـ قد نشأ على نصيب واف من علوم عصره وساهم في القديم والحديث منها بقسط وافر في شعره ، فلو لم يقل المعري أنه كان يتعاطى الفلسفة والمسعودي أن الشعر كان أقل آلاته لعلمنا ذلك من شواهد شتى في كلامه . فهي هناك كثيرة متكررة لايلم المتصفح ببعضها الا جزم باطلاع قائلها على الفلسفة ومصاحبة أهلها واشتغاله بها حتى سرت في أسلوبه وتفكيره وماكان متعلم الفلسفة في تلك الأيام يصنع أكثر من ذلك ليتعلمها أو ليعد من متعلميها . فأنت لاتقرأ لرجل غير مشتغل أو ملم بالفلسفة والقياس المنطقي والنجوم كلاما كهذا الكلام .

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانها لأرحب مما كان فيه وأرغد

أو :

سأمدح بعض الباخلين لعـــله اذا اطـــرد المقياس أن يتـــسمحا

أو :

غـــــاب تحت الحس حتى ما يـــرى الا قيـــــــاسا

أو :

إذا احتج محتج على النفس لم تكد على قـــدر يبنى لهـــا تتعتب

أو :

يا باطـــــلا أوهمتنيه مخـــايله بلا دليـــل ولا تثبيت برهان

أو :

رجوت صلاح القبل بالبعد فانبرى لنا ظلمكم فاستفسد القبل بالبعد

أو ما قاله في أصحاب الجدل .

لذوى الجدال اذا غدوا لجدالهم حجج تضل عن الهـــوى وتجور
وهن كآنية الزجاج تصـــادمت فهوت ، وكـــل كاســـر مكسور
فالقاتل المقتـــول ثم لضـــــعفه ولوهيه ، والآســـــر والمأسور

أو ماقاله في هجاء صاعد وابنه أبي عيسى ومنه .

وثنى بابنــــه الســــفيه المعنى بأســــــاطير رســـطاطاليس
والذي لم يصـــغ بأذنيــــه الا نحو ذروثوريوس أو واليس (١)
عاقداً طرفه ببهـــــرام أوكيو ان أو هرمس أو البــــرجيس
أو بشمس النهار والبدر والزه رة عنـــد التثليث والتســـديس
واجتمـــــاعاتهن في كل قيـــد وافتـــراقاتهن عن كل قيس

فهو في الأبيات الأخيرة يذكر الفـــلاسفة والرياضيين بأســـمائهم المعروفة في الكتب المنقولة، ويذكر أكثر الكواكب بأسمائها الفارسية، ويذكرها في غير هذه الأبيات بأسمائها المعروفة عند العرب وخصائصها التي كانت معروفة عند الكلدانيين والفرس الأقدمين ونقلها منهم اليونان ولا تزال مشهورة الى اليوم في آداب الغربيين . فيقـــــول في مدح أسماعيل بن بلبل وكان كاتباً قائداً : ..

---

(١) راجع اسمى ذروثوريوس وواليس في إخبار الحكماء للقفطي .

وافى عطارد والمريخ مـولده ... فأعطياه من الحظين ما اقترحـا

لأن عطارد كان رب الكتابة والحكمة والفنون عندهم والمريخ كان رب الحرب والشجاعة :

ويقول فى مدح عبيد الله بن سليمان بن وهب :

اذا صبت زهـرته صـبوة ... قال له هرمسـه : هنـدسى
وان عدا هرمسه حـده ... قالت له زهـرته : نفسى

والزهرة هى ربة الجمال واللهو ، وهرمس هو اسم عطارد عنـد الفرس وهورب الكتابة والحكمة كما تقدم . يعنى أن ممدوحه يميل مع اللهو والجمال فتهيب به الحكمة والمعرفة ، ويرهق نفسه بهذه فتدعوه الزهرة الى التنفيس :

وربما أعطاك شواهد مساهمته فى معارف زمانه كلها من أساطير مأثورة وعلوم قديمة وحديثة فى بيت واحد ، كقوله يداعب المرثدى حين أخلف وعده فى هدايا السمك:

أألحوت حوت الأرض أم حوت يونس
لك الخـير أم حـوت السـماء أروم ؟

فحوت الأرض هو الحوت الذى تزعم الأساطير أنه يحمل الثـور الكبير الذى يحمل الأرض ، وحوت يونس هو الحوت الذى ابتـلع النبى يونس وجاء نبأه فى القرآن ، وحوت السماء هو البرج المعروف باسم الحوت .

وبين أيدينا خبران عن اقتناء الكتب اذا لاحظنا قلة أخباره فى كل شأن من شئونه علمنا أنهما يدلان على شىء كثير : أحدهما أتى به المعرى فى رسالة الغفران وفيه أنه « كان يتعاطى الفلسفة واستعار من أبى بكر السراج كتابا فتقاضاه به ، فقال ابن الرومى : لو كان المشترى حدثا لكان عجـولا » .

والخبر الثانى مأخوذ من ديوانه اذ يعاتب أبا الحسين محمد بن المعلى لتضييعه كتابا استعاره منه فيقول له من قصيدة :

منحتك مصباحا فأغشـاك ضوؤه ... وقـد كان ظنى أنه سـيريكا

وخبران من هذا النوع فى حياة قليلة الأخبار يشفان ـ مع شواهد شعره الكثيرة ـ عن شغف دائم بالتحصيل ومدارسة العلوم الى مابعد سن الكهولة ، فانه لايقول « لو كان المشترى حدثا لـكان عجولا » الا وهو كهل أو شيخ جاوز الكهولة .

***

ومن الحق له وللتاريخ ألا نهمل أخباره عن نفسه فى هذا البـاب للابانة عن منزلته من العلم والدراسة كلما كانت هذه الأخبار مطابقـة لما نعرف من مجمل حاله . ففى بعض شعره يقول عن نفسه أنه أدمن الدرس ورفض المـكاسب فى سـبيل ادمانه كمـا جـاء فى هذه الأبيـات :

أن امرءا رفض المكاسب واغتدى بتعـلم الآداب حتى أحـكما
فكسا وحلى كل أروع ماجـد من حر ما حاك القريض ونظمـا
لثقـة برعى الأكرمين حقـوقه لأحـق ملتمس بألا يحـرما

وأظهر من ذلك قوله فى الهمزية الكبيرة للقاسم :

ان أكن غير محسن كل ما تطـلـ ـب انى لمحسـن أجـزاء
فمتى ما أردت صاحب فحـص كنت ممن يشـارك الحـكماء
ومتى ما أردت قارض شـعر كنت ممن يسـاجل الشـعراء
ومتى مـا خطبت منى خطيبـا جل خطبى ، ففـاق بى الخطباء
ومتى حـاول الرسـائل رسلى بلغتنى بـلاغتى البلغـاء

وأظهر من هذا وذاك أبياته التى يمدح بها أبا سـهل النوبختى ويذكره فيها مودة آل النبى واشتغالهما معا بالتفكير فى ادحاض شبهات الفلاسفة والمتكلمين ، ومنها :

ويدمج أسباب المودة بيننـا مودتنا الأبرار من آل هاشم
واخلاصنا التوحيد لله وحده وتذييبنا عن دينـه فى المقاوم
بمعرفة لا يقـرع الشك بابها ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم
واعمالنا التفكير فى كل شبهة بها حجة تعيى دهـاة التراجم
يبيت كلانا فى رضى الله ماحضا لحجته صـدرا كثير الهماهم

وهذه الأبيات أحجى أن نعتمد عليها فى هذا الباب ، مــذ كانت تتعدى فخر الانسان بنفسه الى التذكير بوقائع معهــودة ومدارسات طويلة ، جرت بينه وبين رجل من صفوة أهل العلم والدرايةفى أيامه.

وقد وردت فى أبياته الهمزية السابقة اشارة الى حذقه الكتــابة ومشاركته فى البلاغة المنثورة تعززها اشارة مثلها فى هذا البيت .

ألم تجـــدونى آل وهب لمـــدحكم
بشـــعرى ونثـــرى ، أخطلا ثم جاحظــا

فلابد أنه كان يكتب ويمارس الصناعةالنثرية . الا أن مااستجمعناه من منثوراته لايعدو نبذا معدودة موجزة ، منها رسالة الى القاسم بن عبيد الله يقول فيها متنصلا :

« ترفع عن ظلمى ان كنت بريئا ، وتفضل بالعفوان كنت مسيئا ، فوالله انى لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الاقالة مما لا أعرفه ، لتزداد تطولا وازداد تذللا . وأنا أعيذ حالى عندك بكرمك من واش يكيدها ، وأحرسها بوفائك من باغ يحاول افسادها ، وأسأل الله تعالى أن يجعل حظى منك بقدر ودى لك ، ومحلى من رجائك بحيث استحق منك ، والســـلام » .

ومنها رسالة كتبها يعود صديقا : « أذن الله فى شــفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح بيد العافية عليك ، ووجه وفد السلام اليك ، وجعل علتك ماحية لذنوبك مضاعفة لثوابك »

وكتب الى صديق له قدم من ســيراف فأهــدى الى جماعة من اخوانه ونسيه :

« أطال الله بقاءك وأدام عزك وسعادتك وجعلنى فداءك . لولاانني فى حيرة من أمرى وشغل من فكرى لما افترقنا ، وشوقى علم الله فغالب وظمئى فشديد . والى الله الرغبة فى أن يجعــل القــدرة على اللقــاء حسب المحبة ، انه قادر جواد » .

« ومكاننا من جميل رأيك أيدك الله يبعثنا على تقاضى حقــوقنا قبلك ، وكريم سجاياك وأخلاقك يشجعنا على امضاء العــزم فى ذلك، وما تطولت به من الايناس يؤنسنا بك ويبسطنا اليك . وآثار يديك تدلنا عليك وتشهد لنا بسماحتك . والله يطيل بقاءك ويديم لنا فيــك وبك السعادة » .

« وبلغنى أدام الله عزك أن سحابة من سحائب تفضلك أمطرت منذ أيام مطراً عم أخوانك بهدايا مشتملة على حسن وطيب ، فأنكرت على عدلك وفضلك خروجى منها مع دخولى فى جملة من يعتدك ويعتقدك وينحوك ويعتمدك ، وسبق الى قلبى من ألم سوء الظن برأيكأضعاف ما سبق اليه من الألم بفوت الحظ من لطفك ، فرأيت مداواة قلبىمن ظنه وقلبك من سهوه ، واستبقاء الود بيننا بالعتاب الذى يقول فيــه القائل : ويبقى الود ما بقى العتاب ، وفيما عاتبت كفاية عند من له أذنك الواعية الراعية » .

وقال فى تفضيل النرجس على الود : « النرجس يشــبه الأعين المضاحك والورد يشبه الخدود ، والأعين والمضـــاحك أشرف من الخدود وشبيه الأشرف أشرف من شبيه الأدنى ، والورد صفة لأنهلون والنرجس يضارعه فى الاسم لأن النرجس هــو الريحان الوارد أعنى أنه أبداً فى الماء . والورد خجل والنرجس مبتسم ، وانظر أدناهما شبهاً بالعيون فهو أفضل » .

هذه نماذج من منثوراته لانعرف غيرها فيما بين أيدينا ، وخليق بمن يكتب بهذا الأسلوب أن يعد فى بلغاء الكتاب وان لم يعــد فى أبلغهم . على أن ابن الرومى لم يكن يحسب نفسه الا مع الشــعراء اذا اختلفت الطوائف . فانه يقول عن نفســه وهو يمدح أبا الحسين كاتب ابن أبى الأصبع :

ونحن معاشر الشــعراء ننمى ... الى نسب من الكتــاب دان
وان كانوا أحــق بــكل فضل ... وأبلغ باللســان وبالبنـــان
أبونا عنـــد نسبتنا أبــوهم ... عطــارد الســـماوى المكان

ولاعجب في هذا . فقد كان للشعر كل ما درس الشاعر من فلسفة وعلم وأدب ، وكانت هذه المعارف عنده كالروافد للشعر لاتقع لها ان لم ينته بها المصب الي النهر الكبير . ولم يكن له عقل فيلسوف ولاعقل عالم . وقد رأيت قياسه المنطقى فى تفضيل النرجس على الورد ، فهل قياس فيلسوف هو أو قياس فنان ؟ انه لقياس فنان نظر الى الدنيا كأنها متحف للناظر ومسرح للشعور ، وقليلا مانظر اليها كأنها معمل للتحليل أو قضية مبهمة للتأمل والتفكير .

***

أما حظه من علوم العربية والدين فمن الفضول أن تتعرض لاحصاء الشواهد عليه فى كلامه ، لأنه أبين من أن يحتاج الى تبيين . وندر فى قصائده المطولة أو الموجزة قصيدة تقرؤها ولا تخرج منها وأنت موقن باستبحار ناظمها فى اللغة واحاطته الواسعة بغريب مفرداتها وأوزان اشتقاقها وتصريفها ومواقع أمثالها وأسماء مشاهيرها، وما يصحب ذلك من أحكام فى الدين ومقتبسات من أدب القرآن . فليس فى شعراء العربية من تبدو هذه الشواهد فى كلامه بهذه الغزارة والدقة غير شاعرين اثنين أحدهما صاحبنا والثاني المعرى: وقد كان يمدح الرؤساء والأدباء أمثال عبيد الله بن عبد الله وعلى بن يحيى واسماعيل بن بلبل فيفسر غريب كلماته فى القرطاس الذى يثبت فيه قصائده ، كأنه كان يشفق أن تفوتهم دقائق لفظه وأسرار لغته ، ثم يعود الى الاعتذار من ذلك اذا أنس منهم الجفوة والتغير :

لم أفسر غريبهـا لك لـكن   لامرىء يجهل الغـريب سواكا

***

لغيرك لا لك التفسير ، أنى   يفسر لابن بجدتها الغريب

وكانوا لشهرته باللغة وعلم أسرارها ولطيف نكاتها يختلقـون له الكلمات النافرة يسألونه عنها ليعبثوا به أويعجزوه ، وقصة «الجرامض» احدى هذه المعابثات التى تدل على غيرها من قبيلها . فقد سأله بعضهم فى مجلس القاسم بن عبيد الله : ما الجرامض ؟ فارتجل مجيبا :

وسألت عن خبـر الجـــر مض طالبـاً علم الجرامض
وهو الخزاكل ا والغـــوا مض قد تفسـر بالغــوامض
وهو الســلجكل شـئت ذ لك ، أم أبيت بغرض فارض

وكلها كلمات من « مادة » الجرامض لا معنى لها ولا وجود .

واذا صح استقراؤنا وكان من أساتذته أمثال ثعلب وقتيبة فضــلا عن الاستاذية الثابتة لابن حبيب فلا جرم يصير ذلك علمه بالغــريب والانساب والأخبار وهؤلاء كلهم من نخبة النخبة في هذه المطالب . ولا سيما اذا أعانهم تلميذ ذو فطنة متوقد الفهم وذاكرة سريعة الحفظ كهذا التلميذ ، فقد مر بك أنه كان يحفظ الأبيات الخمسة من قــراءة واحدة ، فهب في الرواية بعض المبالغة التي تتعرض لها أمثال هــذه الروايات فهو بعد سريع الحفظ وهذا مما يعينه على تحصيل اللغــة وتعليق المفردات .

***

أفكان مع هذا العلم بالعربية يعلم لغة غيرها ؟ ان جده كان روميا ولكن كثيراً من الناس أجدادهم غرباء عن أوطانهم وهم لايعرفــون غير لغة الوطن الذي ولدوا فيه .

وان أمه كانت تنتمي الى فارس ، ولكننا لانعلم أفارسية هي أم من أصل فارسي قد يرتفع الى الأجداد ، وفرق بين الحالتين كما لا يخفى . لأنها قد تجهل الفارسية وهي حفيدة فارسي أو يغلب أن تجهلها في هذه الحالة ، وقد تتكلمها وهي بنت فارسي وفارسية فيلقنها ابنهاوينشأ على التكلم بها من صباه .

وفي أشعار ابن الرومي كلمات فارسية غيرقليلة كالبنفشا (البنفسج) والدستبند (ضرب من الرقص) والبذبخت (سيء الطالع) والشــير (الأسد) والبرشوجة (طائر) والدستنبوية (الشمامة) والكذخذاة (القهرمانة) وأشباه هذه الألفاظ ، ولتكن العلم بألفاظ كهذهوبأضعافها لايكثر على ساكن بغداد في ذلك العصر الذي تقاربت فيه الأمثــال الفارسية والعربية وامتزجت فيه الحضارتان ونفذ فيه الفرس الى كل

فرع من فروع المعيشة الرفيعة والوضيعة . فمن أبناء القاهرة اليوم من يتلقف أضعاف هذا العدد من الكلمات الفرنسية والانجليزية والايطالية ويجريها فى مخاطباته اليومية ، وهو لايتكلم بغير لسان وطنه .

بل هناك مايكاد يدنو بنا الى الجزم بجهل ابن الرومى اللغة الفارسية وهو قوله فى هجاء اسماعيل بن بلبل يتهمه فى عربيته :

أاسماعيل من رجل تعرب بعد ما شاخا
وأصبح من بنى شيبا ن ضخم الشأن بذاخا
وصار أبوه بسطاما وكان أبوه قيباخا
وصار يقول « قم عنا » وكان يقول «قوهاخا»

فأول ما يتبادر الى الذهن أن « قوهاخا » هذه ترجمة « قم عنا » باللغة الفارسية . ولكننا سألنا من يعرفونها بيننا فلم يعرفوا للكلمة هذا المعنى ولا غيره ، وأكبر الظن عندنا أنها ليست الا حكاية صوتية لبعض المخارج الفارسية يحكيها ابن الرومى على سبيل التحكم بالعجمة فى تلك المخارج ، وقد تكون تصحيفا من « قوماخا » وهى قريبة من نطق الأعجمى لقم عنا .... ولو كان حظه من العلم بالفارسية أكثر من حظ الحكاية الصوتية لكان أحرى به أن يظهر فى هذا المقام .

***

مزاجه واخلاقه :

أى شىء من الأخبار التى تسربت الينا عن حياة ابن الرومى لاتتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به صورة لوجه الرجل وشخصه ؟ بل أى خبر من هذه الأخبار لاتتركه مختارين غير آسفين لو استطعنا أن نستبدل به وصفا دقيقا لملامح الرجل وقسماته وشارته وسائر ما يتصل بشكله ؟ فقد تعودت النفوس أن تشتاق الى رؤية من تتحدث به وتسمع عنه . ولم تتعود ذلك عبثا ، ولكنها تعودته لأن الرؤية تزيدها معرفة بمن تريد أن تعرفه ، أو لأن المعرفة لا تكمل بغير رؤية .

وليس من مجرد المصادفة ـ فيما نعتقد ـ أن تشيع الصور الشمسية والترجمة التحليلية والدراسة النفسية فى عصر واحد ، ولا أن تكون الأمم المعروفةقديماً ببراعة الترجمة وكتابةالسير أمماً معروفة كذلك بتقييد الملامح والسمات فى الصور والتماثيل . فان فراسة الظاهر جزء من فراسة الباطن . وكلتاهما لازمة لفهم السيرة واتقان الدراسة النفسية .

ونحن نؤمن بالفراسة كل الايمان ولا نشك الا فى المتفرسين أو فى بعض المتفرسين . فالذى فاتنا من ترجمة ابن الرومى بفوات صورته قسم ليس بالقليل، وتعويض هذا القسم بما بقىلنا من الوصف العرضى والأخبار المنزورة من أصعب الأمور .

فها نحن أولاء نكتب سيرة ابن الرومىولانعرف ما الفرق مثلابين سحنته وسحنة شاعر من شعرائنا الآخرين ، نعم ان ابن الرومى كان كما نعلم سليل أبوة يونانية .. وأمومة فارسية ، ولكن ألم يكن من الجائز أنه كان أقرب الى ملامح الأمومة منه الى ملامح الأبوة ؟ أو أقرب الى ملامح الأبوة منه الى ملامح الأمومة ؟ أكان له وجه فارسى أو وجه يونانى أو وجه رجل فيه مسحة من سمات الشعبين أو لامسحة فيهمن هؤلاء ولا هؤلاء ؟ ما نظن ذلك مما يستغنى عنه فى ترجمة شاعر أو صاحب ترجمة كائناً ما كان .

فاذا كنا سنرجع الى ذخيرتنا التى نعتمد عليها من شعر الشاعروالى القليل من أخباره التى تسربت الينا فلا ندحة لنا فى هذا الصدد ولا حيلة، وعزاؤنا بعض العزاء أننا قد نهتدى من شعره وأخباره الى صورة له تعين على تخيله وتمثيله وان لم تغن عن صورته الحقيقية ولا عن وصفه الدقيق كل الغناء .

***

كان ابن الرومى صغير الرأس مستدير أعلاه . أبيض الوجه يخالط لونه شحوب فى بعض الأحيان وتغير ، ساهم النظر بادياً عليه وجوم وحيرة ، وكان نحيلا بين العصبية فى نحوله ، أقرب الى الطول أو طويلا

غير مفرط ، كث اللحية أصلع بادر اليه الصلع والشيب فى شبابه ، وأدركته الشيخوخة الباكرة فاعتل جسمه وضعف نظره وسمعه ، ولم يكن قط قوى البنية فى شباب ولا شيخوخة ولكنه كان يحس القوة اليسيرة فى الحين بعد الحين كما يحس غيره العلل والسقام ، فكان اذا مشى اختلج فى مشيته ولاح للناظر كأنه يدور على نفسه أو يغربل، لاختلال اعصابه واضطراب أعضائه . وكان على حظ من وسامة الطلعة فى شبابه معتدل القسمات لا يأخذ الناظر بعيب بارز ولا حسنة بارزة فى صفحة وجهه ، أما فى الشيخوخة فقد تبدلت ملامحه وتقوس ظهره ولحق به مالا بد أن يلحق بمثله من تغيير السقام والهموم .

***

هذه خلاصة الصورة التى استخرجناها من شعر الشاعر وأخباره، وقد كان ينبغى أن نكتفى بها ونقف عندها لو كانت « الترجمة لذاتها » هى الغرض الوحيد من هذا الكتاب . ولكن « الترجمة » ليست هى كل مانقصد اليه ولا أهم مانقصد اليه ، لأن الطريق المؤدى الى الترجمة غرض كبير من أغراض الكتاب لايقل عن بيان الترجمة لذاتها ، ووسيلة الوصول الى النتيجة مطلوبة كالوصول الى هذه النتيجة ؛ والصيد مقصود هنا كما تقصد المائدة والطعام الذى على المائدة، فمن الواجب علينا أن نبين مكان هذه الترجمة من شعر الرومى وحاجة الأخبار التى بين أيدينا الى التكميل من كلامه فى وصف نفسه عامدا وغير عامد ، وأن نبين كيف أن ديوان شعره قد تجاوز حد الترجمة الباطنية الى الترجمة التاريخية ، لاشتمال وجدان الرجل عليه وفرط استيعابه لنفسه فى شعره ، وشدة الامتزاج بين حياته وفنه .

***

فأما أنه كان صغير الرأس مستدير أعلاه فيؤخذ من رده على من عاب صغر رأسه :

اذ تنقدتنى بصعلكة الرأ ... س ، سفاها واذمت غير ذميم
ما تعديت أن وصفت خشاشا ... لوذعيا كالحية المشهوم

. . . .

وقديماً ماجــرب الناس قبلى ثقل الهام فى الخفاف الحلوم
واعتبر أن أفشل الطير فى الط ير ، وفينا كروســات البوم

فهو يقول لعائبه ان صغر الرأس لا يزرى به لأن الحية المشــهوم ــ وهى موصوفة بالحكمة واليقظة ــ صغيرة الرأس ، والبومة كبيرته ، وهى مضعوفة فاشلة بين الطير والناس .

وأما أنه كان أبيض اللون فذلك غير عجيب فى رجل له جد من الفرس وجد من الروم ، وقــد قال هو يصف ديباجة وجهه فى نضرة العمــر :

ياهل تعود ســوالف الأزمان أولا ؟ فمنصرف الى السلوان
كيما أروح وللشبيبة حــبرة أرنى العيــون بفاحم فتــان
وبمشرق صافى الأديم كأنمــا فيه ائتلاق من صفيح يمــان

والاشراق والصفاء والائتلاق أشبه بالبيــــاض منها بأى لون من ألوان الوجوه .

وأما أنه كان « يخالط وجهه شحوب فى بعض الأحيان وتغــير ، وانه كان ساهم النظرة باديا عليه وجوم وحيرة » فيفهم من قوله وقد لاحظت عليه بنت صغيرة لعبيد الله بن عبد الله أنه كان كثير السكون والتفكير :

وشــقيقة قالت أراه مفــكرا حتى أراه من السكينة نائمــا
فأجبتها انى امرؤ هيـــامة فى كل واد ما أفيق همــاهما
أمسى وأصبح للشــوارد طالبا بهواجسى ، حول الأوابد حائما

وهى ملاحظة صادقة بسيطة كأكثر ملاحظات الأطفال ــ ولا سيما البنـــات ــ على الرجال الذين يرونهم عنــد آبائهم فيتفرسون فيهم ويطيلون النظر اليهم . ثم أن أناسا كانوا يعيبون عليه انقباضه كما يؤخذ من قوله فى هجاء بعضهم : « يعيب انقباضى معجبا بانبساطه » وكما قال على بن ابراهيم كاتب مسروق البلخى « كان اذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغيرحال » . ولو لم يكن هذا واضحاً فى شــعره وأخباره لتوسمناه من صحته وخيبة أمله وكثرة شكواه .

وأما نحول « العصبى » المعروق فالدلائل عليه فى شعره كثيرة منها قـولـه :

أنا من خف واسـتدق فما يثـ ـقل أرضـا ولا يسـد فضـاء

***

أنا ليث الليوث نفسا وان كنـ ـت بجسمى ضئيلة رقشاء

ومنها :

يقول القائلون ضـويت جدا ولم تنضـجك أرحام النساء
ومن انضاجها اياى، أعـرت عظامى من لحـومهم الوطـاء
اذا ما كنت ذا عود صـليب فيكفينى القليـل من اللحاء

ومنهـــا :

وزاريـة عـلى بأن رأتنى من الهزلى حقيرا فى السمان

وذلك فضلا عن مدحه النحافة فيمن كان يمدحهم وتفضيله شـأو الخماص على شأو البطان لأن العصب جعل فى الرجال قديما و « كذا الجدل فى الحبال المتان » .

ونعلم أنه كان أقرب الى الطول أو طويلا غيرمفرط من شعره وحده لا من خبر روى عنه . فقد كان شديد السخر بالقصار شديد النكاية فى هجائهم ؛ ومن قوله فى شيخوخته :

أقـول وقد شـابت شواتى وقوست
قنـاتى وأضحت كدتنى (١) تتخدد

ومنه :

وأرى قوامى لج فى تقويسـه
ولقـد يلج اللين فى تعطيفـه

والقوام والقناة والتقويس بالطـوال أشـبه ، ولا سيما حين يلج

---

(١) بنية الجسم من شحم ولحم

التقويس ولا يقف عند الانحناء اليسير . ويتوسم فيـه الطول من أبيات كثيرة كهـذا البيت :

وكم مثلها من ظبية قـد تفيأت ظلالي وأغصـان الشبيبة ميد

ومثـله :

وظبية من ظبـــاء كان مســكنها
في ظل غصني ، اذا ظل الضحى التهبا

ومثله

اذ للشبيبة صبوة تصبو بهـا وبشاشة تصبى بهـا وتروق
يهتز منك لأريحيات الصبا غصن تفيؤه الظبـاء وريق

ولا يكون الاهتزاز والتشبيه بالغصن الذى تتفيؤه الظباء الا لقوام فيه امتداد وطـول .

وقد طلب مرة ثوبا فكتب يقول ويذكر نفسه بضمير الغائب :

فأنجز الوعـد بثـوب له من الجياد المرتضاة الحسان
وفى القـوافى ثمن مربح فلا يقصر ذرعه عن ثمان

فاذا حسبنا كل حساب للطمع فلا نظن ثمانى أذرع تطلب لرجـل قصـير أو فوق القصـير بقليل .

الا أنه لم يكن مفرط الطول لأنه كان يهجو من فى طوله افراط كما قال فى عمرو بن الحاجب :

فللقـد منـه طـول نهـر معوج وللأنف منه نفخةالبوق فىالكفر

ونحسب هـذه الشواهد كلها كافية فى تخيل قوامه . وأنه لم يكن بالطويل المفرط ولا بالقصير .

***

وكان ملتحيا ولاشك فى أوائل كهولته :

رأيت جليسى لا يـزال يروعه بياض القذى فى لحيتى فيميطه

فكيف به عمـــا قليل اذا رأى قذى الشيب قد عفى عليها سفيطه(١)

فهو قد التحى فى سن يتوقع مابعدها من زيادة الشيب وعمومه الا أنه كان كث اللحية قصير شعرها كما قال :

ولم أزل سبط الأخلاق واسعها وان غدوت امرءا فى لحيتى كثث

وكأنما جعل من ذلك النقص فخراً لأنه نقص لا يد له فى استدراكه فكان يسخر من اللحى الطوال ويسميها أذناباً ومخالى ومذبات ويشك فى أدب كل غزير اللحية بل يجعل غزارتها دليلا قاطعا على نزارة أدبه حتى البحترى ! لأن

البحتـــرى ذنوب الوجه نعرفه وما رأينا ذنوب الوجه ذا أدب

ومغالطته فى هذا بادية من دخيلة احساسه بهيبة اللحية وأنهـــا علامة التذكير حيث يقول لصاحب لحية طويلة :

أرع فيهـــا الموسى فانك منهـــا ـ يشهد الله ـ فى اثام كبـــير
أيمـــا كوسج يراهـــا فيـــلقى ربه بعـــدها صحيح الضـــمير
هو أحرى بأن يشـــك ويغـــرى باتهـــام الحكيم فى التقدير

. . . .

لحية أهملت فســـالت وفاضت فاليها تشـــير كف المشـــير
ما رأتها عـــين امرىء ما رآهـــا قط الا أهـــل بالتكبـــير
روعة تســـتخفه لم يرعهـــا من رأى وجـــه منـــكر ونكير
فاتق الله ذا الجـــلال وغـــير منـــكراً فيـــك ممـــكن التغيير
أو فقصر منها فحسبك منهـــا نصف شـــبر عـــلامة التذكير

والرغبة فى غزارة اللحية معقولة من رجل أصلع كان يفرق من الصلع ويخفيه جهده ، ويود أن يداريه بغزارة الشعر فى وجهه الذى لا يستطيع مداراته كما كان يدارى رأسه .

أما الشيب والصلع فحديثه عنهما طويل وشـــهرته بما قال فيهما مضرب الأمثال بين الأدباء .

شـاب رأسه فى غضـــارة الشـباب فقال :

شاب رأسى ولات حــين مشيب   وعجيب الزمــان غــير عجيب
قد يشيب الفتى وليس عجيبــا   أن يرى النورفىالقضيب الرطيب

ولم يدع لنا أن نسأل عن السن التى شاب فيها لأنها هى الحادية والعشرون من عمره كما عينها لنا تعيينا فى قوله :

فظــلم الليــالى انهن اشــبنني   لعشرين يحدوهن حول مجــرم

ثم والى ذكر السنين مرحلة بعد مرحلة . فقال فيما دون الثلاثين

وأنى تفــرع رأسى المشــــ   ـب ولم أتفــرع ثلاثين عــاما

وبلغ الأربعين فعد نفسه من الموتى الا أحلاما تذكره الحياة :

مت الا حشــــاشة وادكار   مثــل أحلام حــالم النــوام
ومتى ما انقضت أجــارى طرف   مات الا صــيامه فى المصـــام

. . . .

وقضيت الرضــاع من درة الدّر   م لتجــريم أربعــين تمــــام

وهكذا فى الخمسين والخامسة والخمسين والستين ، كأنه عــابر طريق يحصى ما عبر منها وما بقى له أن يعبر . وما وخط الشيب شعره حتى آلى له من البداءة « يمينا لأخفينك جهدى » ووالى اخفاءه بقية عمره . وأخفى الصلع حين أصابه فى شبابه كما أخفى المشيب ، فكان لايرى فى مكان الا لابسا عمامة ، وعز عليه أن يمنى بهــذا التشويه فى نظره وهو الذى أولع بكل تشويه يتضــاحك به ويفتن فى تمثيله ويغرق أصحابه فى المزاح والدعابة . فلزم العمامة لايخلعها وأخفى سر ذلك عن جلسائه وجليساته ، فكان أثقل شىء عليه أن يتعرض متعرض لهــذا السر المصون !

يأيها السائلى لأخبـــــره   عنى : لم لا أراك معتجـــرا؟
أستر شيئاً لو كان يمــكننى   تعريفه السـائلين ما ســترا

ومن عيره هجاه وقال فيــه :

يعيرنى لبس العمامة سادرا   ويزعم لبـــسيها لعيب مكتم

وتلا ذلك مالابد منه فى هجاء صاحبنا من عوار الكلام

ثم انكشف الأمر ولم تغن الحيلة فى لجاج الفضوليين والمتشوفين فعاد الى العمامة يحيل عليها اللوم ويتهمها بجريرة الصلع ويقول انه لم يكن أصلع قبل أن يلبسها وانمـا كان يتقى بهـا البرد والحــر فدهاه طول التعمم فى لمتــه ، فهــو يلبسها الآن لستر هذا التشويه.. الحــديث !

تعممت احصــانا لرأسى برهة   من القر يوما والحرور اذا سفع
فلما دهى طــول التعمم لمتى   وأودى بها بعد الاصالة والفرع
عزمت على لبس العمامة حيلة   لتستر ماجرت على من الصلع
فيالك من جــان على جنــاية   جعلت اليه من جنايته الفــزع

ولا يبعد أن يكون هذا صحيحا بعض الصحة ، وأن خــوفه البرد والحركان من أسباب ملازمته العمامة وان لم يكن هو كل السبب ، فقد كان يكابد فى الصيف نصباً كما قال لبعض ممدوحيه « ياعليمابما أكابد فيه » ... وكان مرهف الحس جدا فكان أهون مس يهيج أعصابه ويستفز خلقه ، بل كانت الرائحة اذا قويت تؤذيه وتصــدعه، فلهذا كان يذم الورد ويمدح النرجس كما جاء فى فصل التلطف من كتاب الصناعتين . ومن بلغ منه التقزز هذا المبلغ لم يبعــد أن يلبس العمامة لاتقاء الحر والبرد ، ولم يبعد كذلك أن يكون ضعيف الشعر فطرة وأن يصيبه الشيب والصلع لأضعف سبب .

---

(١) قد مضى اكثر الشتاء وجاء الصيـ   ـف بعدو فلا تزده التظـــاء
يا عليما بمــا أكابد فيـــه   لاتصــاوله ، ان فيـــه اكتفاء

أما مشيته فقد تولى هو وصفها لنا على طريقته التى لاتدع شيئا من تمثيل الشكل والحركة ، فعلمنا أنه كان يختلج فى مشيته كأنه يحمل بين يديه غربالا يديره .

ان لى مشية أغربل فيهـا   آمنا أن أساقط الاسـقاطا

وهذه المشية معروفة تدل عليها حركة الغربلة وتكثر فيمن بهم خلل فى العصب أو العضل . وفى ديوانه أبيات يهجو بها أخا نصر الجهبـذ لأن نصراً أراد أن يزوجه بنته فمنعه من ذلك أخوه وقال له : أما تنظر الى مشيته مثل مشية المخنثين ؟

ونحسب أننا فى غنى بعد ذلك عن شـواهد أخرى على حظه من الصحة وقوة التركيب فى شبابه ومشيبه ، ولكننا لانحب أن نحـدس اذا أمكن أن نجزم ، فالرجل يقـول فى صباه :

وانى للقوى على المعالى   وما أنا بالقوى على الصراع

وكان يشكو مرض العينين قبل الشيخوخة ، ففى ذلك يقول من قصيدته الدالية فى صلح عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وأخيه سليمان، وهى مما نظم حوالى الأربعين :

شغلت عنك بعـوار آكابده   لا بالملاهى ولا ماء العناقيد
ولو قعدت بلا عذر لمهـد لى   جميل رأيك عذرى أى تمهيد
قاسيت بعدك لاقاسيت مثلهما   نهارشكوى يبارى ليل تسهيد
أمسى وأصبح فى ظلماء من بصرى   فما نهارى من ليلى بمحدود
كأننى من كلا يومى وليلته   فى سرمد من ظلام الليل ممدود
اذا سمعت بذكر الشمس آسفنى   فصعدت زفراتى أى تصعيد

وذلك الى شكاية من المتطببين واعتذارات كثيرة بالمرض تدل على بنية مصابة وحظ من العافية قليل .

فلما أدركته الشيخوخة لاجرم برحت به واشتدت وطأتها عليـه فرجفت أعضاؤه وتعـاورته الأسـقام واحتاج الى العصا وزاغ نظره وثقل سمعه .

ودب كلال فى عظـــامى ادبنى   جنيب العصـــا ، اتآد أو أتأيـــد
وبورك طرفى فالشخوص حياله   قرائن من أدنى مـــدى وهى فرد

أو كما قال فى قصيدة أخـــرى :

وأحدث نقصان القوى بين ناظـــرى
وسمعى وبين الشخص والصوت برزخا

وجمـــاع ذلك قـــوله :

أنا ذاك الذى سقته يد السـ   ـقم كئـــوسا من الســــقام رواه
ورأيت الحمام فى الصور الشـ   ـنع فكانت لولا القضـــاء قضاء

***

وقد اختلفت أقوال ابن الرومى فى حظه من القسامة قبل أن تجور عليه السن وتعصف السقام بما كان له من صباحة فى ضحوة عمـــره فهو اذا أراد أن يمـــزح أن يهـــون على نفسه فقـــد الشـــباب العزيز؛ قال :

من كان يبـــكى الشـــباب من جـــزع
فلســـت أبكى عليـــه من جـــزع
فـــان وجهى بقبـــح صـــورته
ما زال لى كالمشـــيب والصـــلع

أو قال :

جزى الله عنى قبح وجهى سعادة   كما قـــد جزاه ، والاله قـــدير
دعوت به قـــوما فأدوا أتـــاوة   كأنى عليهم عنـــد ذاك أمـــير

وهو اذا أراد أن يرثى الشباب ويتفجع عليه قال :

وكنت جلاء للعيـــون من القذى   فقد جعلت تقذى بشيبى وترمد

أو قال :

وما يرجى من البيض ابتسام   لمن أمسى لفرقه ابتســـام

كأن محاسنى لم تضح يوما　　وفى لحظاتهن لها اقتسام
كأنى لم أر اللمحات نحوى　　وفى اللمحات لثم والتزام

والمرء يبالغ اذا أراد أن يتهكم أو يتفجع ، ويبالغ اذا أراد التهوين أو التهويل ، فالصورة الأولى أدخل فى باب الصور الهزلية التى فيها ما فى جميع هذه الصور من التحريف والمسخ والمبالغة ، والصورة الثانية أدخل فى باب الصور المحسنة التى يكثر فيها التنوق والاصلاح ، ولكنا نرجح انه كان كما قلنا « على حظ من وسامة الطلعة فى شبابه معتدل القسمات لايأخذ الناظر بعيب بارز ولا صفة بارزة فى صفحة وجهه » . لأنه كان يتناول بالسخر كل عيب فى وجوه الذين هجاهم من خصومه ومازحهم من أصحابه ، فلو كان فيه مثل هذه العيوب البارزة التى لاتدارى ولا يغالط فيها لما تناولها ولا حول الانظار الى مثلها فى وجهه ، أو هو لو كانت فيه هذه العيوب وتناولها بالهجو والدعابة لتعرض له المهجوون بمثل فعله فرد عليهم شعرا كما رد عليهم حين تعرضوا له فى العيوب الأخرى من مشية أو صلع أو هزال . فالأقرب الى الترجيح أنه لم يكن ذا عيب بارز ولا حسنة بارزة ، وأنه لم يكن ظاهر الحسن ولا ظاهر التشويه . على أنه كائنا ما كان حظه من القسامة فى صباه قد فقد ولا ريب ذلك الحظ الذى كان له حين شاخ وجاوز الخامسة والخمسين ، فاننا لا نتخيل لشيخ نحيل معروق تفوس ظهره وشحب وجهه وانطفأ وميض عينيه وطال عليه السقم والغم ولم تزينه الشيخوخة بذلك التاج الفضى الذى تسبغه على رءوس الشيوخ ولا بتلك الحلية الناصعة التى تحيط بها وجوههم بالوقار والجمال .

***

على أن ضعف البنية لم يكن ليضير ابن الرومى كثيرا فى شبابه أو فى شيخوخته لو أنه اعتدل فى عيشه وقوى على ضبط نفسه ، فان ضعاف البنية يعمرون ويبلغون فوق الستين التى بلغها ابن الرومى وهم فى عيشة سوية وحالة من الصحة مرضية ، وربما نيف الهزيل على

الثمانين وهو معافى الجسد موقى من الأمراض التي لايتقيها الأقوياء ولا يحجمون عن مواقعة أسبابها ، ولكن ابن الرومى كان هزيلا وكان مع هزاله قليل التصون والاحتراس ، فجنى على بدنه فوق ماجناه عليه هزاله ولج به الحس المتوفز فتهافت على لذات الحياةوأطايبها تهـافت من لا يحب أن تفوته متعة أو تفلت من يديه نهزة ، وكبر له الخيـال لذات الحس ومباهجه فأكب على مائدة الحيـاة كالطفل على مائدة الحلوى لاتمنعه كظة ولا تقمع شهوته حمية ، وراح منهـوما كذلك بكل لذة عقلية يلتهم المعرفة كما يلتهم اللهو والنعمة التهـام من يخشى أن يذاد عنها ولما يستوف شبع شهوته منها . فجار على بنيته الضاوية وانطلق مسرفا في درسه مسرفا في اشتهائه مسرفا في طعامه وشرابه ، وروى له الشعر حتى في أصناف الطعام والشراب بل روى له الشـعر في هذه الأغراض حيث لايروى له شعر غيره قال محمـد بن يحيى الصولى فيما نقله المسعودى في مروج الذهب .

« أكلنا يوما بين يدى المكتفي بعد هذا بمقدار شهر — أي بعـد أكلة روى فيها شعر لابن الرومي — فجاءت لوزينجة فقال : هل وصف ابن الرومى اللوزينج ؟ فقلت نعم . فقال انشدنيه ، فأنشدته :

لايخطئنى منـك لوزينج — اذا بـدا أعجب أو عجبـا
لم تغلق الشـهوة أبوابهـا — الا أبت زلفـاه أن يحجبـا
لو شـاء أن يذهب في صحنه — لسـهل الطيب له مذهبـا

. . . .

مستكشف الحشـو ولكنه — أرق جلدا من نسيم الصبا
كأنمـا قـدت جـلابيبه — من أعين القطر الذى طنبا (١)
يخال من رقة خرشـائه (٢) — شارك في الأجنحة الجندبا

الى آخر الأبيات . فحفظها المكتفي فكان ينشدها » .

---

(١) اذا انفضى خطرة الماء كان لها قبة رقيقة هى المقصودة هنا .

(٢) الخـرشاء قشرة البيض العليا .

وأخبر نفطويه عن أحمد بن حمدون : «تذاكرنا يوما بحضرة المكتفى فقال : أفيكم من يحفظ فى نبيذ الدوشاب شيئا ؟ فأنشدته قول ابن الرومى :

اذا أخذت حبه ودبسه ثم أجدت ضربه ومرسه
ثم أطلت الأناء فى حبسه شربت منه البابلى نفسه

فقال المكتفى : قبحه الله ما أشرهه ! لقد شوقنى فى هذا اليوم الى شرب الدوشاب »

وانا لنقرأ هذه الأبيات وأمثالها الكثيرة فى ديوان ابن الرومى فيخطر لنا عصره المترف ويخطر لنا أن الاسهاب فى وصف الطعام والشراب لم يكن فى ذلك العصر معيبا ولا مخلا بالمروءة ، لأنه كان عصر الشهوات جميعا وأولها شهوة المآكل والمشارب ! بل كان عصرا يصح أن يسمى بعصر الموائد والولائم لأنها كانت وصلة الاجتماع فى الجد واللهو وملتقى طلاب اللقاء فى مواعد الوجبات اليومية وغير مواعدها المألوفة ، وكان من مقاييس مروءة الرجل أن ينظر الى مطعمه فى بيته وبراعة طهاته ونفقته على آكله ، فغضب المتوكل على عافية بن شبيب وأقصاه من مجلسه ونفاه الى البصرة لأنه رأى له طعاما لا يليق بمن يجالس الخليفة وينال صلاته ، ونحن لا تتصفح أخبار المجالس فى ذلك العصر الا صادفنا الحديث عن الولائم والمهارة فى اتقانها والسخاء فى النفقة عليها . فربما كان الخليفة وجلساؤه يتواعدون الى الموعد ومع كل منهم طعامه يتفكهون باستعراض ألوانه . والمقابلة بين صناعاته وطعومه ، وكان من تمام ظرف الأديب والنديم أن يحذق شأن الطعام ويخبر صنعه وما قيل فى وصفه ، فظهرت فى ذلك العصر كتب الأدباء فى فن الطهو ككتاب الطبيخ لابراهيم بن العباس الصولى وكتاب الطبيخ وكتاب فضائل السكباج لجحظة البرمكى ؛ وخفت مذمة النهم لأنه أصبح كأنه قدرة وعلم وظرف ! وكأنه فى ذلك كله أقرب الى الفخر منه الى الملامة !

يخطر لنا ذلك العصر المترف ونحن نقرأ هذه الأبيات الكثيرة فى

ديوان ابن الرومى فنسأل أنفسنا : مانصيب العصر فى تلك الأوصاف وما نصيب الرجل ؟ وما حظ العين من لون وشـــكل وما حظ المعـدة من شبع وامتلاء ؟ فمن شاء أن يحسب نهم ابن الرومى على النحــو المتقدم بابا من الأدب لابابا من الشره فله ذلك وحجته فى هذا الحسبان غير ضعيفة ! ولكنه هو لا يدعنا نحار فى خليقة كهذه الخـلائق التى تحكى عنه ويكون لها دخل فى حياته ، فاذا تطرق الشك الى جانب فلابد له من جانب آخر يقطع ذلك الشك ويردك الى اليقين فيه ، ومن شعره المحفوظ ما يروى لك كيف كان يعاب فى أكله وكيف كان رده على من يعيبونه ، فتارة يقر بالذنب ويزعم أنه هفــوة لا جريمة .

أأن اصطبغت ولقمتي معضــــوضة (١)
أنشــأت تهجــونى بذلك ظالمــا ؟
عيب لعمــــرك غــــير أن لم آته
عمدا ! فهبنى هافيــا لا جــارما

وتارة يقول لقسطنطين جارية أم حبيب وكأنها ضحكت من أكله :

ذرينى قسطنطين آكل شــهوتى   وتبشــمنى ، أنى بذلك راض
فأكثر ما ألقى من الزاد كظــة   مدى يومها واليوم أسرع ماض

ثم لا ينسى أن يعــرض كدأبه بغير ذلك ، وأن يذكر الكظة التى لا تنصرف الا بعد تسعة شهور ! .

وتارة يصف الطعام ويعقب الوصف بالتشوق اليه واللهفة عليه .

لهفى عليها وأنا الزعيم   بمعدة شـيطانها رجيم

بل هو لا يدعنا نحار حتى فى «الأصناف» التى كان يحبها ويؤثرها على سواها . فقد علمنا مثلا أنه كان يحب الموز من الفاكهة لأنه غذاء القلوب لا غــذاء المعدات !

يكاد من موقعه المحبــوب   يدفعه البـلع الى القــلوب

---

(١) اصطبغ ولقمته معضوضة ، أى : وضع اللقمة فى الطعام وفى فمه لقمة بعضها

وأنه كان يعاف المشمش لأنه دواء لا غذاء .

اذا ما رأيت الدهـر بسـتان مشمش
فأيقـن بحـق انـه لطبيب

وعلمنا أنه كان يشتهي السمك ويمعن فيه :

فياحبذا امعاننا فيـه ناضـجا   كما جاء من تنوره المتوقد

وعلمنا أن ابن أبي بشر المرثدى غلط مرة فوعده أن يوافيه أيام السبت بالهدية منه بعد الهدية . فوقع المسكين في شـباكه فما كانت تنقضى فترة الا على تذكير له ومناوشة ، وجعل ابن الرومى هـذا الوعد هجيراه ودعابته التى لايفرغ منها . وما كان يفرغ من دعابة ولا غـير دعابة وفيها بقية ، فحينا يقول انه قد تهود فى انتظار السمك ويسـأل ابن أبى بشر ! •

ما لحيتـانـا جفتنـا وأنى   أخلف الزائرون منتظـريهم :
قد أزحنا اعتـلالهم وجعلنـا   سبتهم جمعة ، فما يشكيهم ؟
جاء فى السبت زورهم فأتينـا   من حفـاظ عليه ما يكفيهم
وجعلنـا يوم عيـد عظيم   فكأنا اليهـود أو نحـكيهم
واحتملنا مقـالة النـاس فينا   ولهم كل ما احتملنا وفيهـم

. . . .

قد سـبتنا ، وانما كان قوم   يوم لا يسـبتون لا تأتيهـم

يشير الى المائدة التى كانت تأتى بنى اسرائيل يوم يسبتون .. !

وحينا يحمد الله الذى نجى السمك حين تعلقت به شـهوة ابن الرومى ووعد المـرثدى :

الحمد لله الذى نجى السمك   من الشصوص الجائلات والشبك
علمه يونس من تسـبيحه   ما كان أدناه الى تسريحه
فهـو من الصـياد فى أمان   ما دمت أبغيه ، وفى ضـمان

وحينا يسائل المرتدى مستعظماً لا بطانه :

أالحوت حوت الأرض أم حوت يونس
لك الخير ، أم حوت السماء أروم

وحينا يسأل السمك :

أيا سمكا بين السماكين عزة
الى كم يرانا الله عنك نصوم

وحينا يعلم المرتدى أن دجلة قريبة من قصره وأنه قليل العذر فى اخلاف وعده :

أعلم وقيت الجهل انك فى قصر تليه مطارح السمك

. . . .

وبنات دجلة فى فنائكم مأسورة فى كل معترك

. . . .

بيض كأمثال السبائك بل مشحونة بالشحم كالعلك
تغنى عن الزيات قاليها وتبخر الشاوين بالوردك

. . . .

فليصطد الصياد حاجتنا تصطد مودتنا بلا شرك

وهكذا وهكذا مما يغريه به حب السمك وحب الدعابة . وكلاهما شهى اليه !

وكان هذا ديدنه فى كل أمر من أموره : اسراف واستقصاء لايمسكهما ضابط ولا تعقدهما عزيمة ، اسراف واستقصاء فى النكتة وفى المعنى وفى الدرس وفى الطعام والشراب والشهوات ، لاحد لهما الا البشم والامتلاء واستنفاد مابين يديه من مادة فى ساعتها حتى لا سؤر ولا صبابة .

ان يكن عندك لى نصح فما عندى انتصاح
لا تلمنى فالهوى فيه جمساح وطماح

. . . .

ما علـى المفتـــون فى مـا غلب الصـــبر جنـــاح
كـل شىء غلب الصـــبـ ـر اليـــه فمبـــاح
انمـا الدنيـــا مـــلاه واغتبـــاق واصـطباح
والمزاح الجـــد أن فـكـ ـرت والجـــد المـزاح

وتختلف نزغات هذا الاسراف وسببها كلها واحد : سببها كلهـا توفز الحس ومطاوعة الرغبة الحـاضرة والاندفاع معها وقلة الصـبر عنها ، ولو أن هذه الأشواق الجامحة شفعت بمسكة من العـزم المتين لاعتدلت حاله ولو بعض الاعتدال وسلم جسمه ولو بعض السلامة ؛ ولكن أنى له العزيمة وهو أسير احساس اللحظة التى هـو فيها لا يترك له استغراقه فى مؤثراتها الحاضرة منفذاً الى التفكير فى قابل أو غابر، ولا يعدل بما يزينه الحس والخيال حظاً تزينه له الحكمة والحصافة ؟

وصاحب هذا المزاج اذا خلا من الاحساس الثائر والرغبة الجامحة يثوب لا محـالة الى وجوم يجثم على صدره وانقبـــاض يثقل على وجدانه . كالنشوان لايفيق من أحلام الكأس حتى يرين عليه السأم فيسرع الى النشوة ، فهو أبداً بين النقيضين من ثورة الاحساس وشدة الوجـوم .

وليس التناقض بين ثورة الاحساس والوجـــوم فى الحقيقة الا ظاهراً لايتعمق الى البواطن الدخيلة ، اذ أن فرط الاحساس كثيراً ما يؤدى بصاحبه الى فرط الوجوم اتقاء الألم أو شعوراً بالوحشة التى تنتابه حين يرى التفاوت بين شعوره وبلادة من حوله ، أو مضيا مـع عادة التفكير والخلو بالنفس التى ينميها التفات الانســان الى موارد الاحساسات المتوالية على وجدانه وحسه ، واذا لم يتوجه الاحســاس الى العمل والحـركة فسـبيله الذى لا محيد عنـه أن يتـوجه الى التأمل ومنـاجاة السريرة ، وندر أن يوجد الخجل والاحتجاز الا مع شدة الوعى والتنبه لكل حركة يتحركها الانسان وكل كلمة ينبس بها وكل أثر يكون لحركته وكلامه فى نفوس غيره ، فالسـكون أدل على الحس المتوفز فى بعض الأحيان من الحركة والاضطراب .

ولعل الأصوب أن نقول أن ابن الرومى وقع من مزاجه واسرافه فى حلقــة موبقــة لا يدرى أين طرفاها . فمزاجه أغـــراه بالاسراف والاسراف جنى على مزاجه ، فان هذا الاسراف الموكل بالاستقصاء فى كل مطلب ورغبة خليق ولا غرو أن يسقم جسمه وينهك أعصابه ويتحيف صوابه ، بيد أنه لايسرف هذا الاسراف الا وفى جسمه سقم وفى أعصابه خلل وفى صوابه شطط لايكبح جماحه ، فالعلة هى سبب الاسراف والاسراف هو سبب العلة ! وهو من هذه الحلقة الموبقـــة فى بلاء واصب ومحنة لاقبل بها للضليع الركين فضـــلا عن المهـــزول الضئيل ، وعلاقة كل ذلك باختلال الأعصاب وشذوذ الأطوار بدءاً وعودا ثم عودا وبدءا علاقة من جانب الجسد ومن جانب التفكير .

ولا تعوزنا الأدلة على اختلال أعصاب ابن الرومى وشذوذ أطواره من شعره أو من غير شعره ، فان أيسر ما نقرؤه له أو عنه يلقى فى روعك الظنة القوية فى سلامة أعصابه واعتدال صوابه ، ثم يشتد بك الظـــن كلما أوغلت فى قراءته والقراءة عنه حتى ينقلب الى يقين لاتردد فيه . وكل ما نعلمه عن نحافته وتقزز حسه وشيخوخته الباكرة وتغيرمنظره واسترساله فى الوجوم واختلاج مشيته وموت أولاده وطيرته ونزقه وشهوانيته الظاهرة فى تشبيبه وهجائه ؛ واسرافه فى أهوائه ولذاته ثم كل مانطالعه فى ثنايا سطوره من البدوات والهواجس — قرائن لا تخطىء فيها الدلالة الجازمة على اختلال الأعصاب وشذوذ الأطوار ، بل لاتخطىء فيها الدلالة على نوع الاختلال ونوع الشذوذ .

ونقول « نوع الاختلال » لأن هذه الكلمة عنوان واسع يشـــمل من الحالات النفسية والجسدية مثل ماتشمله كلمة «الصحة» أو أكثر، فهذا صحيح وهذا صحيح ولكن البون بينهما جد بعيد ، وهذا مختل الأعصاب وذاك مختلها ولكن الخلاف بينهما فى الأخلاق والمشـــارب كأبعد ما يكون بين فردين مختلفين من بنى الانسان . فتختل أعصـــاب المرء فاذا هو جسور عنيد معتسف للاخطار هجام على المصاعب لايبالى العظائم ولا يحذر العواقب ، وتختل أعصاب المرء فاذا هو وديع مطيع

حاضر الخوف متوجس من الصغائر يبالغ فى تجسيمها أو يخلقها من حيث لم تخلق ولم يكن لها وجود فى غير وهمه . وبين الحالتين — لا .. بل فى كل حالة من الحالتين — نقائض وفروق لاتقع تحت حصر ولاتطرد على قياس .

وبديهى أن ابن الرومى لم يكن من الفريق الأول فى « نوع اختلاله » ولكنه كان من الفريق الثانى الذى يستحضر الخوف ويكثر التوجس ويختلق الأوهام .

ومن أصحاب هذا المزاج من يخاف الفضاء أو يخاف الماء أو يخاف حيوانات منزلية لا قوة لها ولا ضراوة كالقطط والكلاب والجرذان فابن الرومى واحد من هؤلاء نحسب أنه كان مستعداً لهذه الهواجس طول حياته فى صحته ومرضه وفى شبابه ومشيبه . ونحسب أن استقصاءه للمعانى الشعرية والالحاح فى تفريعها وتقليب جوانبها ان هو الا علامة خفيفة من علامات هذا الوسواس الذى لايريح صاحبه ولا يزال يشككه ويتقاضاه التثبت والاستدراك ، فيمعن ثم يمعن حتى لايجد سبيلا الى الامعان .

ولكنه مع استعداده للهاجس فى شبابه ومشيبه قد تمادى به الوسواس فى أعوامه الأخيرة حتى أصبح آفة متأصلة غلبت على أقواله وأفعاله جميعا فليس له عنها محيص ، فأفرط فى الطيرة واشتد خوفه من الماء لا يركبه ولو أدقع ودعاه الى ركوبه من يمنونه الأرفاد وحسن الضيافة ، وصور لنا ما يعتريه من خوف الماء تصويراً لايدل الا على حالة مرضية ولو كان التشبيه فيه من مجاز الشعر وتهويل الخيال ، وهذا بعض ما قاله فى مخاوفه وأهوال ركوبه :

ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بغضه ولكنه من هوله غير ثائب

. . . .

أظل اذا هزته ريح ولألأت له الشمس أمواجا طوال الغوارب
كأنى أرى فيهن فرسان بهمه يليحون نحوى بالسيوف القواضب

والماء الذى يصفه هنا هو ماء دجلة لا ماء البحر ولا ماء المحيط !

هذه الوساوس هي التي عناها الذين قالوا - في رواية المسعودي - « أنه كان الأغلب عليه من الاخلاط السوداء » والذين روى عنهم المعرى أنه « كان أدبه أكثر من عقله » . وهي التي وسمته في نظر أبناء عصره بسمة الركاكة والجنون .

***

بين أصحاب هذا المزاج أناس من نوابغ الشعر والفنون عرفوا بسرعة الملاحظة وسرعة الخاطر ، أو عرفوا - على الأصح - بسرعة انتقال الخواطر وتعاقب الأفكار واستحضار المناسبات الخفية والمشابهات البعيدة التي تدركها سرعتهم ولا تدركها عقول السواد في بطئها وأخذها بالسير المألوف .

وقد تتفاقم هذه الخصلة فتصل الى الجنون الذي يقول عنه القائلون أنه يخلط بين الشرق والغرب ويقحم الأحاديث في غير مواضعها ومناسباتها لسرعة وثبه من كلام الى كلام ومن معرض الى معرض ، ولخفاء أوجه المناسبة بين موضوعات تفكيره على الذين يستمعون اليه

ولكنها اذا هي لم تبلغ حدها الأقصى المشاهد في أعراض الجنون كانت خصلة نافعة للشعراء والمصورين بما تقرب لهم من المشابهات البعيدة وتبرز لهم من فوارق الأفكار الدقيقة وظلال الأشكال المستترة ، اذ لايلزم من سرعة تفكيرهم أنهم يخطئون التفكير ويجيئون به مقتضبا أو مشوها على غير استواء . فانهم في هذه الخصلة كالآلة التي تنطلق بالصور المتحركة فتعرض لك في لمحة مايعرض في برهة ، والمناظر بعد واحدة والنسبة بينها كلها في استواء واحد . أو هم كالمجهر المكبر الذي يرى الأشياء كلها أكبر مما تراه العين المجردة وهي بعد صحيحة الأبعاد مستقيمة الأوضاع ، والعلم يحتاج الى التكبير في درس الأشياء ويحتاج الى مثل هذا التكبير في درس النفوس ، فليس كل ما

دق الشعور به عن الناس عامة باطلا معيباً ، ولا كل ما خفى على العين حقيقاً بالتجاهل والاخفاء .

انما يدرك الخطأ أصحاب هذا المزاج فى الغالب من ناحية واحدة هى ناحية ضبط الاحساس أو ناحية التفريق بين الخواطر واحساساتها التى تناسبها .

فقد زعموا فى الأساطير أن السحرة الأقدمين كانوا اذا فكروا فى جنى يريدونه حضر بين أيديهم بغير استدعاء ولا انتظار اشارة .

فلك أن تقول أن ما زعموه حقيقة لا أسطورة ، وأن السحرة الأقدمين موجودون فى كل زمان لأنهم هم بأعينهم سحرة الفن من أصحاب ذلك المزاج .

يخطر لهم أن صديقا مات فما هو الا أن يومض فى ذهنهم هذا الخطر حتى يثب معه الحزن الذى يحزنه الصديق على صديقه ، أو بعبارة أخرى ، يثب معه الجنى الملازم لخاطر الموت بغير استدعاء ولا انتظار اشارة .

وقد تسنح لأحدهم الفكرة فما هى الا أن تتراءى فى خياله حتى يقترن بها الاحساس الذى يناسبها من خوف أو غضب أو فرح أو اغتباط ، ثم لايستطيع أن يضبط حركة احساسه ولا أن يصرف عنه الخالجة النفسية التى أيقظتها فيه هذه الفكرة ، فكل شر مظنون فهو عنده كالشر المحقق على حد قول شاعرنا :

واذا ما ظننت شيئاً فخفه   رب شر يقينه مظنونه

وربما كان أحدهم على قمة جبل فيسنح له خاطر السقوط منه فسرعان مايهب فى نفسه شعور الوجل والاضطراب كأنه قد سقط فعلا، ثم لايستطيع دفع شعوره ولا يهدىء من روعه علمه بأنه مستقر على الأرض ناج من خطر الوقوع الموهوم ! وربما سنح له شبح الأفعى فتفاجئه الرهبة من سمها الناقع ولو لم يكن في موضع تطرقه الأفاعى أو يظن بها طروقه . لأن هذا التنبيه الصغير كاف لتحريك الاحساس

وجيشانه وتمثيله لخياله فى مثل لمح البصر ، ثم لاتوجد عنده القدرة على رد احساسه الى نصابه والهيمنة على حركات نفسه . فهو كأولئك السحرة فى قوة الاستدعاء لولا أنه ينسى الاشارة التى يصرف بها الشياطين فتلتوى عليه وترديه !

وهذا هو مورد الخطأ على أصحاب ذلك المزاج .

ولكنك ترى أنه ليس ثمة خطأ فى الخاطر ولا فى الاحساس الذى يلازمه ، فالخاطر صحيح والاحساس كذلك صحيح وانما الخطأ أن الاحساس يجيء قبل الأوان أو فى غير الأوان . وقد يعد ذلك عيبا فى العلم أو فى تدبير المعاش ، أما فى الفن فلا عيب فيه . لأن الفنان أحوج ما يكون الى استحضار الشعور فى غير موعده وتمثيل العاطفة كلما دعته حاجة عارضة الى تمثيلها . فهذه الخصلة قد تؤذيه فى معاشه وقد تؤلمه وتشقيه ، ولكنها لاتستلزم الخلل فى تفكيره وعاطفته الا من حيث التكبير والتجسيم ، وقد يكون التكبير والتجسيم ألزم لاظهار الخفي وتقريب البعيد من نظرة القسط والهدوء ، ولا سيما فى الفنون .

***

ومع كل هذا يجب أن نذكر ان آمن شيء فى الحكم على هذه الأمزجة وأشباهها هو ألا تركن كل الركون الى قاعدة مقررة فى تقدير أعمالها وأحوالها وألا تزال مترقبا منها للمفاجآت والغرائب فى كل لحظة فقد يجتمع العنف العصبى والوداعة العصبية فى اهاب واحد ، وقد يعنف اللطيف ويلطف العنيف حسبما يطرأ عليهما من الطوارىء ، وهذا الذى تراه اليوم يتوقد ذكاء وفطنة قد تراه فى بعض حالاته خابى الذهن كليل الفهم لايعى عنك ماتقول ، وهذا الذى يقيم القيامة للصغائر التوافه قد تراه وقتا ما وهو مستخف بالعظائم لايبالى ماكان منها أو ما يكون .. وأنت تسأل : أفى تركيبهم تناقض ؟ فلك أن تقول نعم ولك أن تقول لا . لأن التناقض موجود فى ظواهر الأفعال غير موجود فى بواطن المزاج ، فمن كانت تقيمه الهنة الضعيفة وتقعده اذا هى لمسته وبلغت منه مجرى الا

يبالى الحوادث الجسام اذا هى لم تلمسه ولم تبلغ منه ، فالمعول فى ثورته وسكينته على ما يباشر حسه ويلامس أعصابه . لا صغير الا وهو خطير مثير اذا أزعجه وملأ احساسه ، ولا خطير الا وهو هين طفيف اذا غاب عن وهمه وأعفاه من رؤيته ، فهو الدهر بين تبرم وفزع من توافه الأشياء وطمأنينة وسخر من فوادح الخطوب .

ويحتاج الأديب أحياناً الى هذا التناقض كما يحتاج الى استحضار الاحساس فى غير أوانه ، أو يحق لنا أن نقول ان شاعرنا خاصة قد استفاد من هذا التناقض مضاء وحدة فى ملكة السخر التى اشتهر بها . وبلغ فيها أوجه ، فان النقائض والمفارقات ألزم لوازم هـذه الملكة بعد دقة الملاحظة . وهاهنا معدن النقائض والمفارقات التى يعانيها الساخر فى نفسه وقد يستغنى بها عن مراقبة غيره .

كان ابن الرومى ساخراً ولا جرم . كان شاعر النقائض فى عصر النقائض ، وكان شاعر الفطنة الوحية فى عصر الرياء المفضح أو عصر الاختلاف بين الظواهر والبواطن والبعد الشاسع بين ماهو كائن وبين ما يدعى ويستوجب ، فلا جرم يسخر وعناصر السخر فى نفسه وفى زمنه ! وقدرة السخر فى قلبه وفى عقله . ولا جرم يسخر وهو مهيأ للسخر فيما عدا ذلك بتعدد أصوله وتوزع أهوائه وعصبياته . فان صاحب العصبية الواحدة خليق أن يتحيز ويتنطس ويغلو فى الجد والمرارة ، ولكن صاحب العصبيات الكثيرة لايستطيع أن يفعل ذلك ولا يسعه الا أن يستخف ويضحك من تلك الدعاوى وتلك المظاهر التى يضعها غيره من الناس موضع الجد والقداسة .

وها هنا شاعر ينتمى أبوه الى الروم وتنتمى أمه الى الفرس ويدين هو بدين العرب وينتسب فى ولائه الى أبناء النبى العربى ويتقاسم ولاءه عدوان لدودان من العباسيين والطالبيين . فأين تكون العصبية وأين تكون المطاعن والمثالب ؟ ثم أين يكون التصديق الأعمى وأين يكون التكذيب الأعمى ؟ لن يسعه هو اذا اشتجرت مفاخر الروم والفرس والعرب والطالبيين والعباسيين واختصمت بينهم العصبيات والمنافسات

الا أن يبسم فى كل صوب بسمة العطف والدعابة ، وأن يصبح على غير قصد منه عظيم الاستعداد للتسامح والفكاهة : كالذى يختصم اليه بنوه ويدعى كلهم ما يدعى من فضله وعيوب اخوته ، وكل مافيهم من فضل وعيب هو من لحمه ودمه ووشائج حبه وحنانه .

فقد اجتمع لابن الرومى اذن من عناصر السخر مالم يجتمع لأحد فى عصره : اجتمعت له دقة الملاحظة والاحساس وعمق الشعور بالمناقضات فى نفسه وفى زمنه ؟ وسعة النظر الى الفوارق وسماحة العطف التى تقابل مرارة العصبية . فهو ساخر لايبارى فى سخره، وعابث مطبوع على العبث بكل شىء حتى صحبه ونفسه . يستخدم السخر فى الهجاء والمديح والمطايبة والمعاتبة ، ويعرض لك فى متحفه الكبير تلك الصور الهزلية التى لامثيل لها فى شعر شاعر واحد من شعراء العالم كله ، ثم لا يأنف أن يريك بينها صورة له بل صوراً شتى لايعوزها حظ من العناية وأمانة الصناعة .

فهذا الوجه الذى فصل للصلاة والتعبد فى الفلاة وجه من هو؟ انه وجه ابن الرومى فيما صوره لنا حيث يقول :

شغفت بالخرّد الحسان وما يصـ
ـلح وجهى الا لـذى ورع
كى يعبد الله فى الفلاة ولا يشـ
ـهد فيها مشاهد الجمع !

ومن هذا الغائص الذى تعلم السباحة ليغوص لا ليسبح ، أو هذا الخائف المراقب الذى يمر بالماء فى الكوز مر المجانب ؟ انه هو ابن الرومى أيضاً حيث يقول عن نفسه :

وكيف ؟ ولو ألقيت فيه وصخرة
لوافيت منه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذى سباحة
سوى الغوص ، والمضعوف غير مغالب

فأيسر اشـــفاقي من المـــاء انني
أمر به في الـكوز مـــر المجـــانب
وأخشى الردى منــه على كل شـــارب
فـــكيف بأمنيـــه عـلى نفس راكب؟

وابن الرومي أيضا هو ذلك المنهوم الذي يشره الى الطعام حتى في الأحلام ، ويأسف على أن يذاد عنه ولو في المنـام :

ولقـد منعت من المرافق كلها حتى منعت مرافق الأحـلام
من ذاك اني ما أراني طاعمـا في النـوم أو متعرضاً لطعام
ألا رأيت من الشـقاء كأنني أثني وأكبح دونه بلجـام ا

وابن الرومي كذلك هو الشيخ الفاني الذي لاينسيه هم الشيخوخة أن يتهكم بنفسه ويحمد الله على زيغان بصره ، لأنه بركة تجعـل الشخص شخصين في نظره .

وبورك طرفي فالشخوص حياله قرائن من أدنى مدى وهي فرد

هذا مثاله من سخره بنفسه . أما سخره بغيره فله في أفانينه الكثيرة ومعانيه الغريبة ما يقوم بديوان كامل ، وبراعته فيه طبقة لا تعـلوها طبقة في نوعها ويندر أن يدانيها فحول الساخرين في المشرق والمغرب، فله في أحدب كان يضايقه ويترصد له أمام داره ليتطير منه :

قصرت أخادعه وطال قذاله فكأنه متربص أن يصـفعا
وكأنما صفعت قفـاه مـرة وأحس ثانية لهـا ، فتجمعـا

وهي براعة لانظير لها في وصف الشكل والحركة ولا في تضمينهما هيئة السخر التي عمل فيها الشاعر عمله المركب ليتم فيها نصيب العين والضحك والخيال . فصورة الرجل وهو يتهيأ لأن يصفع ثم يتجمع ليتقي الصفعةالثانية هي صورة الأحدب بنصها وفصها لايعوزها الاتقان الحسي ولا الحركة المهينة ولا الهيئة الزرية ولا التأمل الطويل في ضم أجزاء الصورة بعضها الى بعض حتى يتفق التشبيه هذا الاتفاق .

وله فى معلم صبيان مغن :

أبو سليمان لاترضى طريقته | لا فى غناء ولا تعليم صبيان
له اذا جاوب الطنبور محتفلا | ضرب بمصر وصوت فى خراسان
عواء كلب على أوتار مندفة | فى قبح قردوفى استكبار هامان
وتحسب العين فكيه اذا اختلفا | عند التنغم فكى بغل طحان

وله فى جحظه وكان مغنياً جاحظ العينين :

تخاله أبداً من قبح منظره | مجاذبا وترا (١) أو بالعاً حجراً
كأنه ضفدع فى لجة هرم | اذا شدا نغما أو كرر النظرا

وله فيه :

نبئت جحظة يستعير جحوظه | من فيل شطرنج، ومن سرطان
وارحمتا لمنادميه تحملوا | ألم العيون للذة الآذان

وله فى مغن :

انك لو تسمع ألحانه | تلك اللواتى ليس يعدوها
لخلت من داخل حلقومه | موسوسا يخنق معتوها (٢)

وله فى مغنية :

تضغط الصوت الذى تشدو به | غصة فى حلقها معترضة
فاذا غنت بدا فى « جيدها » | كل عرق مثل بيت الأرضة

وله فى مغنية أخرى :

صوتها بالقلوب غير رفيق | بل له بالقلوب عنف وبطش
فاذا رققته بالجهد منها | خلت فى حلقها شعيراً يجش

---

(١) وتر القوس لا وتر العود .

(٢) البيتان غير موجودين فى الديوان المخطوط .

وله في صاحب لحيـــة :

لو غاص في الماء بها غوصة صاد بهـا حيتانه أجمعـا
أو قابل الـريح بهـا مـرة لم ينبعث في خطـوه أصبعا

وله في أبي حفص :

ان أبـا حفص وعثنـــونه كلاهمـا أصبح لى ناصـبا
قد أغريا بي يهجواني معـــا وحدي وكان الأكثـر الغالبا
ان كان كفئا لى في زعمـــه فليعتـزل لحيتــه جانبا ؟ !

وله في رجل له منظر ولا أدب عنـده :

طول وعرض بلا عقـل ولا أدب فليس يحسن الا وهو مصـلوب

وله في أكول مضـاغة :

بعض أضراسه يكادم بعضـا فهي مسنونة بغـير سـنون
لا مؤب الا دؤب رحـــاها أو دؤب الرحى التي للمنون
لاتعطـل رحاك يا ابن سليما ن فليس الثواب فيهـا بدون
قـسا لو وقفتها للمســاكيـ ن لما مسهم غـلاء الطحـين
ما ظننت الانسان يجتر حتى كنت ذاك الانسان عين اليقين

وله في قصير أعور أصلع :

أقصر وعـــــور وصـــلع في واحـد
شــواهد مقبــولة ناهيك من شــواهد
تنبئنا عن رجـــل مستعمل المقـــاقد
أقماه القفـــد فأضـ حى قائما كقـــاعد

وله في قصـــير :

على أنه جمـــد البنـــان دحيـدح
اذا ما مشى مســـتعجلا قيل : يدرج

وله فيمن هجاه :

رقادك لا تسهر لى الليالى ضلة
ولا تتجشم فى هجوك القصائد
أبى وأبوك الشيخ آدم تلتقى
مناسبا فى منسب منه واحد
فلا تهجنى حسبى من الذم أننى
واياك ضمتنا ولادة والد

وله فى بخيل :

يقتر عيسى على نفسه ... وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره ... تنفس من منخر واحد

وله فى أصلع :

فوجهه يأخذ من رأسه ... أخذ نهار الصيف من ليله

وله من أمثال ذلك ما يطول بنا احصاؤه ولا نرى هنا فائدة من الاسهاب فى تكرار شواهده .

وأبرع ما يكون سخره كما ترى اذا هو شبه لك صورة محسوسة أو خلق لك من خياله صورة معنوية ، فانه يحكم التشبيه ويحكم خلق الصورة فيضحك بالمقابلة بين الشىء وشبيهه ويضحك بما تتخيله من المنظر الغريب حين يعمد الى خلق الشكوك المعنوية ، كصورة الأحدب مثلا أو كصورة الرجل « المستعمل المقافد » ... الذى يضرب فى كل مكان صالح منه للضرب ، فيصلع لقفده عن موضع شعره ويقصر لكثرة الطرق على رأسه ويعور لضربه على عينه ، وحركة الأبيات نفسها حين تتلى على عجل كحركة الصفعات ما تنى نازلة صاعدة كما أنبأ عنها فى تلك الأبيات .

أو كصورة الرجل الذى لانفع له الا أن يصلب لأنه بذاك يظهر أحسن ما فيه وهو عرضه وطوله ، أو كصورة المغنى الذى تتراءى عيناه الجاحظتان كعينى الضفدع « الهرم » فى لجة يكرر النظر ويغنى وفمه فى الماء !

وكان فضلا عن هذا لا تفوته من الأغراض فائتة فى اللفظ ولا فى المعنى ولا فى التصوير : ألق بالك مثلا الى كلمة « جيدها » فى هذا البيت :

فاذا غنت بدا فى جيـــدها　　　كل عرق مثل بيت الأرضـة

فلو أن ساخراً غير مطبوع على السخر أراد هذا المعنى لاختار كلمة غير «جيدها» للمبالغة فى التقبيح والتشويه ، ولكنك تنظر فترى أصلح الكلمات فى هذا الموضع هى الكلمة التى توهمك الحسن وتحضر لك والمناقضة التامة بين الوهم والصورة المشهودة ، فيستوى طرفا النكتة ويبدو لنا الفرق المضحك بين الجيد وبيت الأرضة ، كما نضحك من الفرق الذى يبدو لنا اذا وقف القزم الى جانب العملاق .

وتأمل كلمة « طحـان » فى هذا البيت

وتحسب العين فكيه اذا اختلفا　　　عند التنغم فكى بغـل طحـان

فليس تمام القافية وحدها بهذه الكلمة بل الصورة المعنوية هى التى تمت بها أحسن تمام ، لأن السخر لن يستوفى فى هذا التشبيه الا اذا تمثلنا فى موقف الغناء المتمم بغلا من بغال الطحانين العجاف الجياع يتنغم ويستكبر بأنغامه استكبار هامان ، ولو كان بغلا من البغال الفارهة المترفة لنقصت الصورة وفترت فيها قوة السخر وقوة التشبيه . وقس على ذلك « الشيخ » آدم ؛ أو قس عليه سائر الأبيات والصور .

وسيأتى تفصيل الكلام على ملكة التصوير فى شعره عند الكلام على عبقريته والصلة بين فنه وبين الطبيعة والحياة .

***

وليس يكفى أن نقول ان ابن الرومى كان ساخراً بارع التصوير لنعلم كل شىء نحب أن نعلمه عن سخره فان السخر يتنوع حتى لا يتفق فى الباعث الذى يوحيه ولا فى العبارة التى تؤديه وأدباء «النفسيين»

يقسمونه الى التهكم والعبث والمجانة والفكاهة ، ويجعلون كل قسم منها جميعا نوعا من « الضحك » قائما بمفرده مستقلا بصيغته وغرضه . والأقرب الى فهم الموضوع عندنا أن نوحد الضحك ونجعل الاختلاف في الخلائق والحالات النفسية . فنفرق بين ضحك الخليقة الكريمة وضحك الخليقة اللئيمة ، وبين الضحك فى حالة الرضى والعطف والضحك فى حالة الغضب والجفاء ، ثم نفرق بين العبث فى الحالين المختلفين من النفس الواحدة : فعبث النبيل الأريحى غير عبث الوضيع الخبيث ، وتهكم الصارم الأبى غير تهكم الرخو الذليل . وفى الدنيا من التهكم بمقدار مافيها من المتهكمين ، نعنى بذلك أن التهكم ليس «نوعا» واحدا من الضحك ولا شكلا واحداً من الملكات ، ولكنه أنواع تختلف باختلاف الحالات والخلائق والأساليب . فخير لنا أن نرجع الى اختلاف هذه الحالات من أن نجمع التهكم كله فى باب واحد وصبغة واحدة ؛ وهو ليس كذلك .

وما من ضاحك الا وهو قابل لجميع هذه الحالات فى مختلف الأطوار فهو متهكم حينا وعابث حينا ومازج بين هذين الشعورين فى بعض الأحيان ، كما يتفق كثيراً أن يمتزج الشعوران المتغايران .

فاذا قلنا ان ابن الرومى ساخر فقد بقى أن نعرف نوع السخر لنعرف نوع الطبيعة التى توحيه، فان المرء — كما تقدم — يكون ساخراً وهو طيب سليم الطوية وساخراً وهو خبيث مظلم السريرة . فمن أى فئات الساخرين كان ابن الرومى وأى خليقة من الخلائق كانت تهيمن على سخره ؟ أنسلكه فى الطيبين أو الخبثاء وفى الخلائق الشفافة القوية أو فى الخلائق الكدرة العوجاء ؟

اننا نسأل هذا السؤال ونبتسم .

نبتسم كما قد نرى الطفل الاعرب يعدو وراء مضحكة من المضاحك أو فرجة من الفرج ثم يسألنا السائل فى جد ورزانة : ما هى العدواة

التي يكنهـا ذلك الطفل لمن يعدو خلفهم ويلهو بمعابثتهم .. ! فأى عداوة وأى صداقة ؟ وأى خيانة وأى طيبة ؟ هنا مضحكة وكفى .. ! ولن يفهم الطفل فى منطقه الا أنه يستطيع هنا أن يضـحك ، فلم لا يضحك ؟ اى نعم لم لا والضحك لذيذ والاغراء به حاضر ؟!

فابن الرومى هو ذلك الطفل فى سخره وضحكه وتهكمه وهجائه، لسنا نفهمه حق فهمه الا اذا تمثلناه أبداً فى جدة الاحساس واخضراره على هيئة الطفولة النامية التى لا تجف ولا تشيخ وان جفت المفاصـل وشاخت الأوصال ، وستمر بنا عقد كثيرة من عاداته ومواهبه لا تدرك ولا تفسر الا على اعتبار واحد وهو أنه طفل كبير لا يفرغ من الطفولة طول حياته . فسل ما شئت عنه ولكن سؤالك عن الطفـولة النامية بمزيتها ونقصها وطيبها وخبثها ورضاها وغضبها ، وانتظر منـه سـوء الأدب اذا غضب أو احتدم غيظه واختنق صدره ولكن لاتنس أن الأدب السيىء خلة غير خلة الطبيعة السيئة ، وان ليس الكظم والسكوت علامة على الكرامة والصفح الجميل فى كل حال .

وأجهل الناس بالطبائع الانسـانية من يصف امرءا كابن الرومى بالحسد والضغينة لأنه كان يألم ويتحسر لحـرمانه ويعجب لحظـوة الجهلاء بالخير دونه ، اذ ليس الحسد أن يألم الانسان لأنه محـروم مزءود عن النعم التى يشتهيها ويتذوقها ويعرف معنى المتعة بها ، ولا أن يرى ـ مصيبا أو مخطئا فى رأيه ـ أنه أجدر وأليق بتلك النعم ممن لا يحسبهم انداده فى الفضل والذكاء وأقرانه فى المناقب والمآثر ، كلا! ليس هذا هو الحسد المذموم المعدود فى ردىء الصـفات ، وانمـا الحسـد المذموم هو خلق كريه يبتلى به المرء فلا يطيـق النعمـة عند غيره وان كانت عنـده ولا يستريح الى شـعور الناس بالسـعادة لانقطاع ما بينه وبينهم من رحم العطف والمشاركة فى الأفراح والآلام.

فالحسـد نضوب فى العاطفة وابن الرومى أبعد انسان من نضوبه العاطفة ، وتحجر فى الشعور وليس للتحجر فى خـلائق ابن الرومى وأمثاله مكان ، والحاسد لا يجعل الخـير مقرونا بالفضـل والنعمة

مرهونة بالمناقب ، و لايطلب المتعة والجاه لأنه أقدر وأجدر ممن ينعمون بهما فى الدنيا بغير حق ولا معرفة ؛ اذ التفكير على هذا النمط غريب عن جبلة الحاسد الذى انما يريد الخير لأنه يريده وكفى ! ثم لا يكلف عقله أن يدلى له بحجة فى طلبه غير حجة الأثرة الحيوانية التى لا تسأله سببا والأنانية الصماء التى لاتعقل ولا توازن ولا تدبر . ويسوؤه أن ينعم الناس لأنه يرى النعمة وقفا عليه ويرى أن كل ماسر غيره مسلوب منه ، وليكن ذلك السرور علما وهو لاينافس العلماء أو صلاحا وهو لايتشبه بأهل الصلاح أو شرفا وهو لا يطمح الى الشرف ، فحسبه أنه سرور فى عرف أحد من الناس وحظ ينعم به غيره ويتسلاه ليكون ذلك السرور ثأرا عنده ويكون تنغيص المسرور به من همه ودأبه . وهذا هو الحسد الذى ليس فى طبيعة ابن الرومى ذرة منه ، بل ليس ما عنده الا نقيضه وضده .

فقد كانت ألذ متعه التى وصفها تلك المتع التى غنمها مع صحبه وسعد بها كما سعد غيره ؛ وربما كان لايلح ذلك الالحاح فى طلب السمك الذى يحبه الا ليسرع به الى صديقه يدعوه اليه ويشركه فيه :

متى عهدك بالكرخ	وبالشبوط والفرخ
وبالبكر التى لم تشق	بالنار ولا الطبخ

وقد كان شعوره بحرمان غيره كشعوره بحرمان نفسه ولو لم تكن بينه وبين المحروم صداقة ولا علاقة . فكان يرثى للحمال المكدود اذا بصر به فيصف حاله وصف مشفق عليه يألم لجميع أله .

رأيت حمالا مبين العمى	يعثر فى الآلم وفى الوهد
محتملا ثقلا على رأسه	تضعف عنه قوة الجلد
بين جمالات وأشباهها	من بشر ناموا عن المجد
وكلهم يصدمه عامدا	أو تائه اللب بلا عمد
والبائس المسكين مستسلم	أذل للمكروه من عبد

وما اشتهى ذاك ولكنه　　　فر من اللؤم الى الجهد
فر الى الحمل على ضعفه　　　من كلحات المكثر الوغد

وما كان بينه وبين ذلك الحمال من صلة حركت فيه ذلك الاشفاق عليه والعجب من صبره الا أنه كان يؤثر مقاساة الجهد على مقاساة اللؤم ، وبرح العناء على التكسب بمدح البخلاء ، ويريح نفسه مما يعانيه الشاعر ويفتقر اليه من استجداء النوال وذل السؤال ، وهي صلة لا تتحرك بها العاطفة الا في نفس مجبولة على العطف والتأسي بأحوال الكبير والصغير والرفيع والوضيع .

« وكان هو وصديق له متصلين برجل جليل من حاشية السلطان فكان المتصل به يسرف على صديقه في الاستخفاف به » فقال ابن الرومي يلوم ذلك الرجل الجليل على استخفافه بصديقه :

أحب أن تشتمني　　　بوزن ما تشتمه
أو توقع الاكرام لي　　　وللذى أكرمه
فان ما تفعله　　　بحضرتي يحشمه

. . . . . .

وانني يظلمني　　　كل امرىء يظلمه

ولو رجل غير ابن الرومي في موضعه كان بنفسه حسد أو دخيلة سوء لسره أن يخص بالحفاوة دون زميله والتمس الزلفى عند ذلك الرجل الجليل بموافقته على مزاحه واستخفافه . لكنه كان في الواقع كأبرأ الناس من حسد وأعظمهم سروراً بعطف صديق، بل كان الصديق مقدما عنده على الحبيب .

عرج على ذكر الصديق　　　وعد عن ذكر الحبيب
كم مكثر لي مخبث　　　ومقل قول لي مطيب

لأن العطف حاجة من حاجات قلبه وضرورة من ضروراته ووقاء له مما كان يرهقه ويشتد على صبره . فكان عطف الصديق يحيى نفسه ويخلقه خلقا جديدا كما قال :

خليـــل أظـــل اذا زارني كأني أنشـــأ خلقـــا جديدا
أراني وان كثـــــر المؤنســـ ون ماغاب عني وحيدا فريدا

فما كان الرجل حاسدا ولا شبيها بالحاسد ، وما كان الا انســانا كسائر الناس يحب الخير لنفسه ولا يكرهه لغيره ، بل ما كان الا ذلك الطفل الكبير الذي كأنه في حـــدة طمعه وقلة حيلته وقد فتح عينيه وفغر فاه الى قطعة الحلوى في يد غــيره فبلع ريقــه وصــاح في براءة وصراحة لا تعرفهما طبائع الحاسدين :

لا تلومن حاســدا . ألم النفـ ـس من البخس يا أخي شديد !

وما حيلة المســكين في شــهوة قلبــه وفي قلة حيلته وحــوله ؟ وكيف الصدوف عن النعمة وما هو بزاهد فيها ولا بجاهل لقدرها ولا بغــافل عن لذتها ؟ أهـــو معصــوم من الفتنــة كمــا قــد حــرم نصيبه من النعمة ؟ لا ! بل ان فتنته لأشد وأضرى وأنه بالغبن لأحس وأدرى :

ياليت أهل العقــل اذ حرموا عصموا من الشهوات والفتن
لكنهم حــرموا وما عصــموا فقلوبهم مرضى من الأحــــن
وهـــــم أحس عــلى بليتهم من غيرهم بمــرارة الغبــن

فمبلغ القول في حسده أنه كان شــديد الرغبة في متــع الحياة قليل الحيلة في احتجانها ، فاذا سميت هذا حسدا فقل أن ابن الرومي وقل ان الطفل الذي يتطلع الى الحلوى في يد رفيقه الصغير .. حاسد . وأضف الى الحســـد بهـــذه التســـمية معنى جـــديدا لم يــكن من معاني هذا الخلق البغيض الذميم .

***

ويقال في حقده ما يقال في حسده . فقد كان ساخطا ولم يــكن حاقدا ، والبون بعيد بين السخط والحقد . وان التبست أعراض هذين الخلقين على طلاب الظواهر .

فهما خلقان متباينان وقد يكونان في بعض الأحيان متنــاقضين ، فيسخط الانسان بل يدوم سخطه وليس في قلبه من الحقد أثر ، وقد

تكون كثرة سخطه لكثرة استجابته للمؤثرات الجديدة الطارئة التي تتعاقب على حسه أي لقلة حقده وقلة اصراره على البغض القديم .

والحقد توأم الحسد في خلة الأثرة الحيوانية والأنانية الصماء، فلهذه الخلة يستكبر الحاقد الاساءة الصغيرة الى نفسه كما يستكثر الحاسد النعمة القليلة على غيره ، والسبب في الحالتين واحد . وهو أنه لغلوه في حب نفسه واستغراقه في الأثرة الحيوانية لا يريد ان يساء هو ولا أن يسر غيره ، وليس يعنيه أن يساء بالحق أو بغير الحق وأن يكون عاديا في هذه الاساءة أو معدوا عليه ، فان ذلك كله من وراء تفكيره وحسابه ، ولا فرق عنده بين أن يظلمه الناس في الاساءة اليه أو ينصفوه وبين أن يسيئوا اليه بالعدوان عليه أو بصده هو عن العدوان ، فمن الحاقدين من يحقد على الناس لأنهم أبوا عليه أن يضرهم ليستفيد من ضررهم ووقفوا بينه وبين مصلحته ولو كان وقوفهم هذا من حقهم ولانقاذ حياتهم !! وهو لايفكر بالعدل ولا يكره العدوان لأنه جور وعسف ولا يعرف من الكراهة الا أن يكره ما يسوؤه كائنا ما كان وبالغا مابلغ فيه العذر والاضطرار. وهذا غيرالشعور الذي يشعر به المرء حين يعتدى عليه بغير الحق فيسوؤه ذلك ثم يتوالى العدوان فيتوالى الاستياء ويطول السخط والامتعاض ، فان من النبل أن يغضب المرء للعدوان الذي وقع به ووقع بغيره فان لم يرتفع بغض العدوان الى مقام النبل فهو لا يهبط بصاحبه الى ما دون منزلة العذر المعقول والطبع المستقيم .

من هذا القبيل كان شعور ابن الرومي حين توالت عليه أسباب السخط فتوالى سخطه وغضبه وتواصلت شكواه وضجره ، فكل سبب كان يثيره فهو سبب « أخضر » لا مشابهة فيه لأسباب الحقد التي يطول ثواؤها بالضمير حتى تفسد وتتعفن أو تيبس وتتحجر .

وما كان لطبيعة مهتاجة كطبيعة ابن الرومي طاقة بضرب من الاحساس غير ذلك الذي نسميه « بالأخضر » لحدته وحرارة نبضه وسرعة أثره وسرعة زواله ، واني لمثل هذه الطبيعة اصرار الحقد

وتدبيره وثباته على مافيه بين تقلب الحـوادث وتجـدد المسرات والمصائب ؟ كل ما تطيقه هذه الطبيعة من الشعور هو ذلك الشـعور الذي تحضرها أسبابه وتلح عليها مؤثراته ، فاذا كانت الأسباب لاتزال مؤلمة مغضبة فالألم دائم والغضب لازم والناس يقـولون حينئـذ أنه الحقـد وأنه الضغينة وأنه خلق ذميم وطبيعة رديئة ، لأن الحقـد هو الاسم الذى يطلقه العامة على الاستياء اذا دام واتصل وتوالت موارده فتوالى وجوده ، ولأنهم ربما بلغوا من بلادة الأنانية وقلة الاحسـاس بمعنى العدل أن يسيئوا الى المستضعف المخذول ولا يتوقعوا منـه الألم والاستياء .. ولم لا ؟ ألا يسرهم أن يعبثـوا به ويتماجنـوا عليه ؟ فما باله اذن لايسر بما به يسرون ولا يضـحك هـو كما هم يضحكون ؟!

فكل ما كانت تطيقه طبيعة ابن الرومى من الشعور هو ذلك ا‍ تحضرها أسـبابه وتلح عليها مؤثراته ؛ فاذا غابت الأسـباب وفترت المؤثرات نسى شعوره فى لمحة عين وانقلب الى نقيضه ، وفى قصـته مع الأخفش عبرة لمن شاء أن يعرف ما وراء سخطه من الطيب والغفران والمودة ، فقد صـد الأخفش ما صـد من الزمن يعبث به ويثقل عليـه فى العبث حتى منعه أن يبرح بيته ويتصرف لمعاشه ، فعاتبه ابن الرومى فلم يرعو وأنذره فلم يحفل وقال له يتوعده :

لا يأمنـن الســفيه بادراتى
فاننى عـارض لمن عـرضا
عندى له السوط إن تلوَّم فى السـ
ـير وعندى اللجـام ان ركضا

وما توعد الا بعد لجاج ومحال وصلح واعتذار ، فلما لم ينفعه ذلك هجاه وأقذع فى هجائه كعادة أهل الزمان فى كل هجاء ، فعاد الأخفش اليه يسترضيه ويستعطفه فرضى وعطف ، وأسرع فنسى تثقيله ونسى الهجاء وأقبل يقرظه ويطريه ويبالغ فى تقريظه واطرائه غير تارك لنفسه بقية لوتر قديم ولا لوتر مستأنف :

ذكر الأخفش القديم فقلنا ... ان للأخفش الحديث لفضلا
واذا ما حكمت والروم أهلي ... في كلام معرب كنت عدلا
أنا بين الخصوم فيه غريب ... لا أرى الزور للمحاباة أهلا
ومتى قلت باطلا لم ألقب ... فيلسوفا ولم أسوم هرقلا
بدأ النحو ناشئا فغذاه ... أحدث الأخفشين فانقاد رسلا

. . . .

يا ظماء الى الصواب ردوه ... يسقكم بالصواب علا ونهلا
هو بحر من البحور فرات ... ليس ملحا، وليس حاشاه ضحلا

وأطنب في ذلك حتى دعاه مقسومه وخدينه :

قل له يا مقسومي وسميي ... وكنيي ومن غدا لي شكلا
قد أردت الأطناب فيك فقالت ... لي غاياتك البعيدة مهلا
ورأيت اليسير يكفي من الحـ ... لي اذا النصل كان مثلك نصلا

الا أن الأخفش لم يصف هذا الصفاء ولم يكن عابثا في صلحه كما كان عابثا في خصامه ، فعاد الى شنشنته معه وعاد ابن الرومي الى سلاحه الذي نبذه حتى حسب صاحبه أنه حطمه ، فقال يذكره :

حذار عرامي أو نظار فانما ... يظلكم قطع من الرجز مرسل
ولا تحسبن الصلح أنصل آلتي ... ولا أنني في هدنة السلم أغفل
ولكنني مستجمع الحلم مغبر ... أفوق نبلي تارة وأنصل
فان هاجت الهيجاء أو عاد عودها ... على بدئها لم يلق مني أعزل

وليس يغر الحاقد هذا الغرور ولا الناس يصنعون هذا بمن يعلمون حقده ويحذرون منه تصميم نيته .

وانقلب ابن عمار على ابن الرومي وابن الرومي كما عرفت من أخباره هو الذي أعانه بما في وسعه وقربه من الرؤساء أصحابه وجعل له سببا الى رزقه ، فجزاه انقلابا بانقلاب ومسبة بمسبة ، ولم يفعل ذلك الا بعد أن تحيل جهده على عطفه واستلال حقده وحسده فلم يفلح ، وكتب اليه يستعيده الى سالف مودته :

أيها الحاسدى على صحبتى العسـ ـر وذمى الزمان والاخـــوانا
حسدا هاجه على ثلب شعرى ولقــائى معبســا غضــبانا
وانتقاصى مع العدو وقد كــا ن يرى لى نقــائصى رجحانا
ليت شعرى ماذا حسدت عليه أيها الظالمى أخائى عيـــانا
أعلى أننى ظمئت وأضـــحى كل من كان صــاديا ريانا
أم على أننى أمشى حسـيرا وأرى الناس كلهم ركبـــانا
أم على أننى ثكلت شـقيقى وعـدمت الثـراء والأوطانا
عد كريما الى كـريم كما كنـ ـت والا لقيت منى هـــوانا
لا عقاب بمــا تقول ولــكن بجفـاء أردفتــه هجـــرانا
وتيقن أنى مقيم على العهــ ـد حياتى ، وخذ بذاك ضمانا
لا أعد الذنوب منــك ذنوبا بل هــدايا مقبـولة وحنــانا

فلم يجد ذلك فى استعطاف ابن عمار ولم يثنه عن عدائه وثلبه ... ثم تقرأ فى ديوان ابن الرومى فترى فيه قصيدة قالها قبل موته بخمسة أيام أو ستة يمدح الجراح على لسان ابن عمار هذا لتيـسير منفعة كان يرجوها لديه .

ونظن أننا فى غنية عن سرد القصــص والأمثلة على عطف ابن الرومى وغزارته وطيب قلبه ، فقد كان العطف كما أسلفنا حاجة من حاجات طبعه وضرورة من ضرورات حياته ، وآية ذلك بينة فى شـعره كله وفى تفجعه على أحبابه وشدة فقده لأهله ، وقناعته منهم باليسير من المودة يأخذها حيث وجدها ويأسى عليها حيث لا يجدها ، وهـو القائل وقد صدق :

وانى لبـر بالأقارب واصــل على حسدفى بعضهم وعلى بغض

***

ولقد آن أن ننبذ تلك الطريقة العتيقة التى كان بعض الأقدمين يعتمدونها فى نقد الأخلاق وتسمية أسمائها والمقابلة بين المتشابه والمتخالف منهما ، فانهم تعودوا أن يأخذوا فيها بالأعراض دون الجواهر وبالظواهر دون

المخابر ، وكانوا ينظرون الى السمات البادية ولا ينظرون الى ما وراءها من بواعثها . فللغضب الدائم والحقد سمة واحدة فهما اذن خلق واحد ! ومتى كان الشاعر كثير الذم والانحاء على الناس فهذه حجة جديدة تضاف الى سمات وجهه ، فلا جدال اذن فى حقده ولاشك فى قبح سريرته وجنوحه الى الشر دون الخير والعداوة دون المودة .. فاذا اتفق مع هذا أنه شهد على نفسه بالحقد فقد بطل الجدال وحقت عليه الكلمة ونفذفيه القضاء . ألا تراه ناقما متسما؟ ثم ألا تراه هاجيا لايكف عن الذم والشتيمة ؟ ثم ألا تراه يقر بذنبه ويصارح الناس بدفين بغضه ؟ فماذا بقى بعد من أسباب الحكم غير أن يوصم وأن يدان ؟!

لا ياقضاة .! بقى من أسباب الحكم كل شىء ولم يحصل لدينا بعد هذا كله سبب واحد يجوز لنا أن نعتمد عليه ! بقى البحث فى أسباب نقمته وذمه وشهادته على نفسه ، فان هذه هى العناصر التى تتألف منها الأخلاق وليست ملامح الغضب ولا كلمات الشفاه . فاذا نحن عرفناها فذاك ، أما اذا ظلت مجهولة فقد جهلنا كل سر ولم نعرف الا ألوان الطلاء

علام تدل النقمة ؟

ثم علام يدل الاعتراف ؟

ان الانسان لينقم وهو من أشرف الناس فى نقمته ؛ وانه ليرضى وهو من أخبث الناس فى رضاه ، وان اعتراف المعترف لأحجى أن يبرئه من رذيلة المواربة والنفاق ، وهى رذيلة لا تخلو منها طبيعة الحاسد أو طبيعة الحقود .

ويلوح لنا أن نقاد الأخلاق على هذا النمط لا يختلفون كثيراً من قضاة الزمن الغابر الذين كانوا يضربون « المتهم » ليقر بالذنب ثم يأخذونه بشهادته على نفسه .. فغاية الفرق بينهم أن نقادنا لايضربون ولكنهم كذلك لا يسألون عن المنقود المسوق اليهم هل هو مضروب أو غير مضروب ؟ ونخالهم يغتبطون بأن يساق اليهم مضروبا معترفا ليغنيهم عن البحث ويعفيهم من مؤنة السؤال والجواب !

وشهادة الانسان على نفسه بالشر كشهادته لها بالخير كلتاهما لاقيمة لها ما لم يكن لها مصداق من الطبيعة والواقع . فابن الرومي قد شهد على نفسه بالحقد فقال وهو يتحدث بأخلاقه :

شكرى عتيـد وكذاك حقدى ... للخير والشر مكان عنـدى

وقال :

وماالحقد الا توءم الشكر فى الفتى ... وبعض السجايا ينتسبن الى بعض
فحيث ترى حقدا على ذى اساءة ... فثم ترى شكرا على حسن القرض
اذا الأرض أدت ريع ماأنت زارع ... من البذر فيهافهى ناهيك من أرض
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها ... بل العيب أن تدان دنيا فلا تقضى

فهذا اعتراف صحيح يتلهف عليه القضاة : قضاة المحكمة العتيقة، ولكنه بعد ليس بالمهم فى البحث عن أخلاق الرجل لأن وراءه سرا هو الأهم فى هذا الصدد وهو الحقيقى بأن يدار البحث اليه .

فيجب أن نعلم أولا لماذا شهد ابن الرومى على نفسه بالحقد هذه الشهادة ، فان الحقود لايشهد على نفسه بحقده والمطبوع على الصراحة لايكون مطبوعا على الحقود . وصراحة ابن الرومى هنا تلفت النظر الى أمر شاذ فى هذا « الاعتراف » وتدعونا الى السؤال عن سره ، وسره ليس ببعيد .

فالرجل كان يدعى الحقـد ليخيف الذين يستوطئون جانبه ويستسهلون ارضاءه بعد اغضابه ، فما كان يذكر الحقد الا وهو ينذر ويتوعد من طرف خفى أو ظاهر ، ويخير الناس بين شكره وحقـده ليغنموا شكره ويجتنبوا حقده . فهذه الدعوى عنده كتلك السحنة البغيضة التى ينتحلها بعض الحيوان للاخافة والتهويل حين لا يكون مخيفا ولا هائلا فى الحقيقة .. وهو محتاج الى دعواه حاجة الحيوان الى سحنته البغيضة فى معترك الحياة .

وسبب آخر لاعترافه بالحقد أنه كان يتفلسف ويدرس الجـدل

ويتعاطى صناعة البرهان ويجب أن يمتحن قوته فى المنطق والفلسفة بتقبيح الحسن وتحسين القبيح حسبما يبدو له من وجهيه ومن تنازع الأقوال فيه ، وتلك سنة كانت معروفة فى ذلك العصر يقيسون بها البلاغة ويقيسون بها قوة البرهان . فمدح ابن الرومي الحقد وذمه ولم يقصر بحجة الذم عن حجة المديح ، وهو القائل فى ذم الحقد والرد على مادحيه :

يا مادح الحقد محتالا له شبها ... لقد سلكت اليها مسلكا وعثا
لن يقلب العيب زينا من يزينه ... حتى يرد كبيراً عاسياً حدثا
قد أبرم الله أسباب الأمور معا ... فلن ترى سبباً منهن منتكثا
يادافن الحقد في ضعفي جوانحه ... ساء الدفين الذي أمست له جدثا
الحقـد داء دوى لا دواء له ... يرى الصدور اذا ما جمره حرثا
فاستشف منه بصفح أو معاتبة ... فانما يبرىء الصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت ... ولا تكن لصغير الأمر مكترثا
والعفو أقرب للتقوى وان جرم ... من مجرم جرح الألباب أو فرثا(١)
يكفيك فى العفو أن الله قرظه ... وحيا الى خير من صلى ومن بعثا
شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن ... تلقى أخاك حقودا صدره شرثا(٢)
نعم وسرك أن ينسى الذنوب معا ... وأن تصادف منه جانبا دمثا
انى اذا خلط الأقوام صالحهم ... بسيىء الفعل ، جدا كان أو عبثا
جعلت قلبى كطرق السبك من حسد ... يستخلص الفضة البيضاء لا الخبثا
ولست أجعله كالحوض أمزجه ... بحفظ ما طاب من ماء وما خبثا

وهو القائل فى هذا المعنى :

ياضارب المثل المزخرف مطريا ... للحقد لم تقدح بزند وار
أصبحت خصم الحق تهدم مابنى ... والحق محتج ، وأنت تمارى
أطريت غثك لا سمينك ضلة ... واخترت من خلقيك غير خيار

(١) فرث شق وفرث الرجل ضرب كبده وهو حى .
(٢) الشرث من السيوف والاسنة المحدد وشرث الرجل غلظ ظهر كفه

شبهت نفسك والأولى يولونها ... آلاءهم بالأرض والعمار
ورأيت حفظك ما أتوا من صالح ... أو سيىء ـ كرما وعتق بحار
وزعمت فيك طبيعة أرضية ... يا سابق التقرير بالاقرار
ولقد صدقت وما كذبت فانه ... لا يدفع المعروف بالانكار
لكن هاتيك الطبيعة فى الفتى ... مما يلظ عليه بالأستار
ولصمته عن ذكرها أولى به ... من عدها فى الفخر يوم فخار
فينا وفيك طبيعة أرضية ... تهوى بنا أبداً لشر قرار
هبطت بآدم قبلنا وبزوجه ... من جنة الفردوس أفضل دار
فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها ... من تلكم الجنات والأنهار
بئست لعمر الله تلك طبيعة ... حرمت أبانا قرب أكرم جار
واستأسرت ضعفى بنيه بعدها ... فهمو لها أسرى بغير أسار
لكنها مأسورة مقسورة ... مقهورة السلطان فى الأحرار
فجسومهم من أجلها تهوى بها ... ونفوسهم تسمو سمو النار

. . . .

عرفوا لروح الله فيهم فضل ما ... قد أثرت من صالح الآثار
فتنزهوا وتعظموا وتكرموا ... عن لؤم طبع الطين والأحجار
نزعوا الى النجر الذى منه أتت ... أرواحهم ، وسموا عن الأغوار

فابن الرومى القائل هذا هو ابن الرومى القائل ذاك ... وكأننا بقضاة المحكمة العتيقة يتحفزون للادانة المبرمة ويبحثون بين أيديهم عن المجرم الذى دانوه فلا يجدون هنالك الا متلطفا يقلب القضية على وجهها ؛ أو هرا مستضعفا يزأر لأنه خائف لا لأنه مخيف .. أو يعلمون أن الرجل قد يستجمع سمات الغضب الدائم ولهجته ويعترف على نفسه بحقده ولا يكون بعد ذلك على شيء من الحقد كثير ولا قليل .

وجميع أخلاق ابن الرومى تنتهى عند البحث فيها الى مثل هذه النهاية فهو كما أسلفنا لا يعرف من الأخلاق الا «الأخضر» الذى يجرى فيه الماء لوقته. أو هو لا يعرف من الأخلاق الا ما يحضره سببه وتختلج فى صدره دواعيه :

أيندم ويتوب عن المعاصى ؟

نعم ! وجبت التوبة والندم . اذ

حتى متى نشترى دنيا بآخرة سفاهة ، ونبيع الفوق بالدونِ
معللين بآمال تخادعنا وزخرف من غرور العيش موضونِ

أيلهو ويقصف ؟

نعم ! يلهو ويقصف ويقول لمن يتوب ويندم :

لاتخلط الحب بالتقوى فتعطفنا على المقاسى عذاب الهجر والبين
ولم نبع قط دنيانا بآخرة ومثلنا لا يبيع النقد بالدين

أيسكر بعد اقبال المشيب وادبار الشباب ؟

نعم

فاعذر شراب المدامة شارب لتقصير أيام المشيب الأوطال

أو

فالآن حين أجد الشيب يطلبنى أبادر الشيب باللذات عجلانا

أم يقلع عن السكر بعد اقبال المشيب وادبار الشباب ؟
قد يكون ذلك خيراً

فدع شربها اذ أصبح الرأس مشرقا
محاذرة أن يصبح القلب مظلما
ولاترينك السن والله والنهى
على الشيب والاسلام واللوم مقدما

أيشح ويحرص على ماله ؟

نعم . فانه ..

اذا لم يكن عندى سوى مايكفنى فشحى عليه مثل شحى على عرضى
لأنى متى أتلفته احتجت حاجة تذيل مصون العرض فى طلب القرض

أيجود ويسرف ؟

نعم . و

لاتحملن همــــوم أيام على يوم لعلك أن تقصر عن غــده

بل هو يسأل الله أن يقيه الشح ويلهمه الجــود :

قني يا الهى شــــح نفسى فاننى أرى الجود لى حظا وشيمتى البخل

وربما تعاورته الحالتان فى لحظة واحدة ، فتراه حائر النفس بين الحرص والتوكل لا يطمئن الى هذا حتى يثوب الى ذاك :

وقضاء الاله أحوط للنـــا س من الأمهــات والآبــاء
غير أن اليقين أضحى مريضاً مرضا باطنــا شديد الخفــاء
ما وجدت امرءا يرى أنه يو قن الا وفيه شـــوب امتــراء
لو يصح اليقين ما رغب الرا غب الا الى مليــك السـماء
وعسير بلوغ هاتيك جــــدا تلك عليـا مراتب الأنبياء

أو قد يدركه الحذر أو الأريحية فيحجم عن هجاء السلطان ويعلن سر احجامه كأنه مطالب بهذا الاعلان :

لا أقذع السلطــان في أيامه خوفا لسطوته ومر عقـــابه
واذا الزمان أصــابه بصروفه حاذرت رجعته ووشك مثابه
وأعد لؤما أن أهم بعضــــه اذ فلت الأيام من أنيـــابه

ذلك حين يساوره الخوف ويذكر الأريحية . فأما اذا ثارت بلابله واضطرمت لواعجه وملكه الغيظ فاجتاح حزمه وخوفه فهو أهجم هاجم على سلطان حديد ناب أو مفلوله ! وهو الجسور فى هجائه عــلى ما يخافه الجسور الذى لايخاف .

فهو ابن ساعته وطوع الحاضر من احساسه ، و « النوبة الطارئة » هى المفتاح الذى يفض به كل ما استغلق من أسرار نفسه على الجملة ، وما كان فى نفسه من سر مغلق الا وجدته هو معنى منهوما بالغوص عليه والكشف — لقارئى شعره !

***

معيشته :

عاش ابن الرومى حياته كلها فى بغداد ، لا يفارقها قليلا حتى يعود سريعا وقد نازعه اليها شوق وغلبه نحوها حنين ، وكانت بغداد يومئذ عاصمة الدنيا غير مدافع : فيها كل محاسن العمار الواسع وعيوبه وكل رفاهة العمار الواسع وشقائه . قصور تبلغ النفقة على بنائها وتأثيثها الوف الألوف ، ومتاجر يؤمها أصحاب القوافل من أقصى المشرق وأقصى المغرب ، ومدارس ومكاتب وحلقات للمذاكرة يجلس فيها الأئمة فى كل فرع من فروع العلم والأدب ، والى جانب ذلك بيوت فى كل منزه ومرتاد على النهر أو فى الخلاء للهو والمعاقرة والسمر يغنى فيها القيان وترقص الجوارى ويغشاها العلية والسواد ، ويسكت عنها الخلفاء حيناً فتكثر وتعمر أو يغضبون عليها فيبعدونها الى حيث تغيب عن الأنظار ولكنها لاتغيب عن الطلاب والرواد ، ومن وراء ذلك احياء منبوذة يكمن فيها اللصوص والمغتالون يتألبون على نقب الدور وحمل الخزائن واستدراج الموسرين على نحو ما نقرأ عن عصابات الاثم والجريمة فى عواصم هذا الزمان ، فاذا تصفحت أخبار بغداد بما اشتملت عليه من جمال وشناعة وبذخ وفاقة واحتيال على طلب المال والمتعة من كل مطلب وانصراف الى السرور والرغد فى كل وجهة فكأنك تتصفح أخبار الغرائب فى عواصم الدنيا التى تسمى اليوم باريس وبرلين ولندن وشيكاغو ونيويورك .

وهذه العواصم كافة لاتطيب فيها اقامة الا بمال ، أما بغداد خاصة فكان ساكنها أحوج الى المال من ساكن العواصم الحديثة ؛ لأنها كانت عرضة للغلاء فى القرن الثالث لاضطراب الأمور فى الجهات التى كانت تميرها وانقطاع الوارد عنها حيناً بعد حين . فاذا وقع فيها الغلاء ندر الخبز وارتفع سعر الدقيق وكان ماوصفه ابن الرومى فى بعض شكاياته .

أحسن ما كان الدقيق موقعا ... من رجل أفلس حتى أدقعا

. . . .

وأصبح القوم البطان جوعا ... وخشى الجائع ألا يشبعا

وهى اذا لم تغل لم ترخص ولم يستغن طالب المعيشة فيها عن بعض اليسار كما قال بعض الشعراء

سقى الله بغــداد من جنــــة ... غــدت للورى نزهة الأنفس
عــلى أنهـــا منيــة الموسر ... ين ولكنهـــا حسرة المفلس

وابن الرومى لم يكن طالب معيشة وحسب ، بل كان طالب معيشة ومتعة ومسرة ، وكان منهوماً فى مطالبه كلها قليل الصبر على غــواية المناعم واللذات أنى كانت وحيث أمكن منها الحول والحيلة :

فبادر الدهر بالمنــاعم واللذ ... ات واحذر من وشك مرتحل
فان تعذرن أن يجننك بالقــو ... ة فاحتــل لطــائف الحيــل

وكان كثير الألفــة لبيوت القيان يباشرهن ويسمعهن ولا يــسمع فيهن لوم لائم :

ولاح فى القيــان فقلت مهلا ... رميت بنبــل أوتار القيــان

. . . .

شبيهات الرماح قنــــامتون ... وكلما فى القــلوب بلا سنان
وهل من حربة أو من ســنان ... كمين أو كثغر أو بنــــان ؟

وربما كان الشعر من حيله التى كان يحتـــال بها على ودالقيــان وحضور مجالسهن فيثنى عليهن حينا ويهجوهن أحيانا وينال بذلك ما يناله غيره بالدنانير والدراهم ، بيد أنها حيلة تغنيه فى هــذا الغــرض قليلا ولا تغنيه كثيرا ، ثم هى لاتغنيه عن المال كلما احتاج اليه فى سائر وجوه عيشه ولهوه .

فصاحبنا فى مدينة الغلاء قد عاش وعلى غير التقشف والزهد قد فطر ، فهل كان ميسور الحالة مكفى المؤنة ؟ وهل كان الشعر كفيــلا له بسال يغنيه فى ضروراته ونوافله ؟ أو هو كان فقيرا محروما لايصيب من فرص العيش الا ما يغبه على موائد الأمراء أو يحتال له «لطائف الحيل» حيثما أسعفت وأفادت ، وقلما تسعف وتفيد ؟

ان قصائد ابن الرومى فى جملتها لاتدع الا أثرا واحدا فى ذهن القارىء من هذه الوجهة ، وهو أنه كان فى ضنك وفاقة ، كثيرالحرمان كثير الشكاية . ولكنها لاتخلو هنا وهناك من أبيات تدل على كفاف أو حظ من اليسر ، وعلى أن بعض ممدوحيه كانوا يحرمونه عطاياهم لذلك اليسر الذى يرونه عليه .

أتحرمنى لأنى مستقل ... وانى لست كالرزحى السغاب
فما تحمى ذوات الدر درا ... اذا صادفن ملآن الوطاب

ومن أبياته ما يدل على أنه كان صاحب ضيعة وصاحب دارين وثراء وتحف موروثة منها قدح زعم أنه كان للرشيد وقال فى وصفه وقد أهداه الى على بن يحيى المنجم .

وبديع من البدائع يسبى ... كل عقل ويطبى كل طرف
وفى الحسن والملاحة حتى ... ما يوفيه واصف حق وصف
قدح كان للرشيد اصطفاه ... خلف من ذكوره غير خلف
كفم الحب فى الحلاوة بل أحـ ... لى ، وان كان لايناغى بحرف
صيغ من جوهر مصفى طباعا ... لا علاجا بكيمياء مصفى
تنفذ العين فيه حتى تراها ... أخطأته من رقة المستشف
كهواء بلا هباء ، مشوب ... بضياء ، أرق بذاك وأصفى
وسط القدر لم يكبر لجرع ... متوال ، ولم يصغر لرشف

فعلى هذا يلوح لنا أنه كان ميسر المعيشة ولو بعض التيسير ، وأنه كان فى وقت من أوقاته « مستقلا » ليس « كالرزحى السغاب » غير أننا لانعلم بخبر تلك الضيعة الا لنعلم أنها مجدبة تطيل عناءه ولا تغل عليه :

أعانى ضيعة ما زلت منها ... بحمد الله قدما فى عناء

وأنها كانت تصاب بالجراد فيأتى على زرعها فى بعض السنين :

لى زرع أتى عليه الجراد ... عادنى مذ رزئته العواد
كنت أرجو حصاده فأتاه ... قبل أن يبلغ الحصاد الحصاد

وأنه كان يستعفى من دفع خراجها ويكتب الى وهب بن سليمان يشكو اليه ضيقه وسلب الخطوب مافى يديه :

هب لراجيك ما عليـه فان اسـ ـمك وهب ووسمك الوهـاب
أنت بحر ومن له تجتبى الأمـ ـوال بحـر لجانبيـه عبـاب
فارغبا عن مداد شعبى فليست فيه الا صـبابة . بل سراب
وارثيا لامرىء ألح عليــه للزمان الصئـول ظفر وناب
سلبته الخطوب ما فى يـديه وله من تجمــل أثـواب
. . . .
غير أن ليس فى خراجى وحدى ما بأعلاقه يسـوغ الشراب
لك فى مكثرى الرعية دونى حلب كيف شئت بل أحـلاب

كذلك لا نعلم « بثرائه » الا لنعلم أنه أصيب فيه بحريق و

حدوث حوادث منها حريق تحيف ما جمعت من الثـراء

وانه أصبح يستطعم بعد أن كان من المطعمين :

أمن بعد منـزلة المطعمـين أعـدم منـزلة الطـاعم

وكذلك لانعلم بخبر داريه الا لنعلم أنهمـا غصبتا منه كما زعم أو خرجتا من يده بحـق أو بغير حق على أية حـال ؛ فلما كان فى نحو الثلاثين جار على دار له تاجر يعرف بابن أبى كامل — فى رواية زهر الآداب — فاغتصب بعض جدرها وأجبره على بيعها وفزع ابن الرومى الى سليمان بن عبد الله بن طاهر يستعديه ويذكر تلك الدار أو ذلك « الوطن » .

ولى وطن آليت ألا أبيعــه وألا أرى غيرى له الدهر مالكا
عهدت به شرخ الشباب ونعمة كنعمة قوم أصبحوا فى ظلالكا
وحبب أوطان الرجـال اليهم مآرب قضاها الشباب هنالكا
اذا ذكروا أوطـانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فحنوا لذلكا
فقد ألفتــه النفس حتى كأنه لها جسد ان بان غودر هالكا
. . . .

وقد ضــامنى فيه لئيم وعزنى — وها أنا منــه معصم بحبالكا
وأحدث احداثا أضرت بمنزلى — يريغ الى بيعه منى المسالكا
وراغمنى فيما أتى من ظلامتى — وقال لى أجهد فى جهد احتيالكا
فما هوالا نظمك الشعر سادرا — وما الشعر الا ضلة من ضلالكا
مقالة وغــــد مثله قال مثلها — وما زال قوالا خلاف مقالكا
صدوفا عن الخيرات لايرأم العلا — ولا يجتذى فى صالح بمثالكا
من القوم لا يرعون حقا لشاعر — ولا تقتدى أفعــالهم بفعالكا
يعيرنى سؤل الملوك ولم يكن — بعار على الأحرار مثل سؤالكا
مدلا بمال لم يصــبه بحــلة — وحق جلال الله ثم جــلالكا
وحسبى عن اثم الألية زاجــر — بما امتلأت عينى به من جمالكا
وانى وان أضحى مدلا بماله — لآمل أن ألفى مدلا بمــالكا
فان أخطأتنى من يمينك نعمة — فلا تخطئنه نقمة من شمالكا

فلم يصغ اليه سليمان بن عبد الله .

وهــذه هى قضية الدار الأولى التى غصبت وسـليمان وال على بغداد وابن الرومى يومئذ فى نحو الثلاثين . وهى قضـــية كما ترى مفصلة لم يسقط منها حرف مما قيل بين الخصمين المتنازعين .! تقـرأ الأبيات حتى تنتهى منها فلا يسعك الا أن تنسى الدار وتنسى يسر ابن الرومى وعسره التفاتا الى هذا الاســـتقصاء الدقيق فى سرد وقائع المشكلة والمشاجرة التى نشبت بين صاحب الدار والتاجر الباغى عليه فى زعمه ؛ فما من كلمة قيلت فى تلك المشاجرة أو تقال فى أمثـالها الى اليوم الا جاء بها ابن الرومى وأبرأ بها ذمته كما يبرىء الذمة حالف اليمين الغموس : يجور التاجر على دار الشاعر فينقض جدارها ويتلفها ليجبره على بيعها ، فيقوم الشاعر ويقعد ويرغى ويزبد وينذر خصمه الويل والثبور وعظائم الأمور ، فيهزأ التاجر المعتز بثروته الساخر بكل شىء غير ذهبه وفضته ويقول له : وماذا عساك أن تفعل ؟ قصاراك أن تنظم قصيدة .. فاذهب وانظم ما بدا لك ودع الشعر ينفعك ! فما هو الا ضلة من ضــلالك وبلاء لك يضر بك ولا يجــدى عليــك ،

فيغضب الشاعر لشعره ويذكر الأدب والعلم والملوك والأمراء فيستخف التاجر بفخره ويقول له : وما أنت من ذاك كله ... ما أنت الا متسول مسترفد تمد يديك الى مال غيرك ! ! فيرتد عليه الشاعر مزرياً بما لم يجمع الا من السرقة والخداع والسحت والحرام ، ويذهب يشكو ويستعدي ويرجو ويستجدي ، وهكذا تدور الملاحاة والمنابزة فى القصيدة وتسجل القضية كلها فى الشعر على نمط لا يخرم حرفا ولا يزيد فيها ولا ينقص كأن الشاعر مشغول بالرواية عن الدار والمنازعة عليها ! ! ومن الطبيعى أن يحدث جميع ما حدث ولكن ليس من الطبيعى أن يثبت الشاعر جميع ماحدث فى قصيدة . اذ لا فرق بين أقدر الشعراء وأضعفهم الا أن أقدر الشعراء يجيء فى شعره « بالطبيعى » البسيط وأضعفهم يهمل « الطبيعى » البسيط وينقص منه أو يزيد عليه .

وللدار الثانية قضية نعرف تفصيلها كما عرفنا تفصيل هذه القضية: فقد نازعته فيها امرأة ونزعتها منه عنوة فكتب الى الوزير عبيد الله ابن سليمان يعرض عليه القضية ويستغيث :

تهضمنى أنثى وتغصب جهرة
عقارى ، وفى هاتيك أعجب معجب
لقد أذكرتنى لامرىء القيس قولة
« فانك لم يغلبك مثل مغلب »

وكانت آخر قصيدة قالها — كما فى الديوان — لامية يقول فيها :

أقول اذ غصبتني كف جارية ... الله أكبر من ود ومن هبل(١)
ان الغوانى بما أملن من أمل ... فما يبالين مالاقين من أجل
متى غلبن رجال الجد فى زمن ... كما غلبن رجال اللهو والغزل
وان أعجب شيء أنت مبصره ... فى كل ماحملته الأرض من ثقل
كف خضيب من الحناء غاصبة ... كفا خضيبا من الابطال والعضل

(١) ربان من ارباب العرب فى الجاهلية.

يا حسرتا لى ! ويالهفا ! ويا عجبا   ان هذه الحال لم تنكر ولم تزل
في دولتى أنا مغصوب وفي زمني   عودى ظميء بلا رى ولا بلل

يريد دولة بنى وهب وهم أنصاره وممدوحيه

ومن الواضح أن هذه الدار أخذت منه قبيل موته بزمن قليل ؛ لأنه يطلب رجعها في أواخر شعره ويقول أنه لم يكن يومئذ «من رجال اللهو والغزل» . وقد يحتمل أن هذا الشعر كله قيل في دار واحدة لا في دارين وأنه تشبث بتلك الدار بعد ما أحدث فيها التاجر الأحداث ورام أن يضطره الى بيعها فلم يبعها وظل مالكا لهـا حتى ضاعت منه في أخريات عمره ، وهو احتمال يرد على الخاطر ولكننا نستبعده لأن زهر الآداب صريح في أن التاجر « أجبره » على بيع داره ولأن ابن الرومى لاينسى أن يذكر الصبا وطول العهد بمكنى الدار لو كانت هي الدار الأولى التى ملكها وعاش فيها من صباه الى هرمه .

وثم قصة أخرى « لدار » كان ابن الرومي يسكنها ويخاطب في شأنها والى الشرطة أحمد بن محمد الواثقى الذى بقيت له الولاية الى مابعد موت ابن الرومى ببضع سنوات ، فمن تلك الدار يقول :

بينما النفس وبها بك ترجو   ملك دار معمورة ماهولة
وتراعى آمالها منك انجا   ز مواعيد للمنى ممطولة
اذ أتاني الرسول منك بأمر   يشبه الموت نفسه أو رسوله
وهو ازعاجها بأعنف عنف   عن محل قد استطابت حلوله
أنا ان لم تذد بيمناك عني   غير شك فريسة ماكولة

ونظن أن البيتين الآتيين مما قاله في هذه الدار بعينها

ياويح من أصبح في غمة   ليس له من كربها مخرج
فروحه تزعج عن جسمه   وجسمه عن بيته يزعج

وقد تكون هذه الدار هي التي نزعتها منه المرأة ، وقد تكون دارا مأجورة وهو الأرجح عندنا ؛ لأن الشاعر لايقول في مزاياها الا

انها « محل قد استطاب حلوله » و « منزل أحب نزوله » وأنها مكان :

فيه عافاني الاله من الشكو ... و وفك الاله عني كبوله
بعد جهد حملت منه ضروبا ... ليس أثقالهن بالمحمولة

وهو كلام أشبه بأن يقال فى مكان جرب بعد تجربة غيره، وكان فيه معنى للاستطابة والاختيار ، وله على غيره من الأماكن المأجورة مزية الموافقة والاستحسان . ويزيد فى ترجيح ذلك أن الشاعر يقول أنه كان يرجو « ملك » دار معمورة مأهولة فما كفاه أن تفوته الدار المملوكة حتى ازعجوه عن مسكنه .. وذلك بما تقدم أشبه .

وأيا كان الخلاف فيما سبق فالأمر الذى لاخلاف فيه أنه مات فى دار مأجورة . فان الناجم يقول حين قص علينا قصته فى مرض وفاته أنه انتقل من الكرخ الى باب البصرة فسكن فى دار ابن قلابة ولم يسكن فى دار ابن المعافى كما أشار بعض أصدقائه وهو يصف حاله قبيل ذلك فيقول من قصيدته البائية الى القاسم بن عبيد الله حين عزم على الشخوص الى « آمد » مع الخليفة المعتضد .

ثوبى الرث والثياب طراء ... وطعامى برغمى المجشوب
ومحلى عارية وجدارا ... ت بيوتى فكلها منقوب
ومقيلى فى الصيف سخن بلا خيـ ... ـش ، فعظمى يكاد منه يذوب

فالذى يفهم من هذه الأخبار حين يجمع بعضها الى بعض أنه ورث داراً من أبيه هى التى يقول انه قضى فيها أيام صباه ، فلا تكون على هذا الا ارثا نشأ فيه قبل أن يدرك السن التى يكسب فيها ثمن الدور، وورث تحفا تقتنى كتلك الكأس التى زعم أنها كانت للرشيد ، وقد تكون الضيعة بعض ارثه من أبيه وقد تكون مما اقتناه فى بعض حالات وفره ، ولكنه كان يحتاج الى الدين فيعرض عقاره للضياع وتقوم عليه الحجة فلا يقدر الولاة على دفع خصومه وقبول دعواه ، وشكاياته من الديون كثيرة تؤيد هذا التفسير . فمنها :

على دين ثقيل أنت قاضيه ... يامن يحملنى دينى رجائيه
وقد حملنى اخوانى مواردهم ... ووكلننى الى بحر سواقيه

ومنها :

أقول لما رأيت عرسى ... تسترزق الله باليدين
سيجعل الله بعد عسر ... يسرا بجدوى أبى الحسن

. . . .

من حسن حال ورقة بال ... ورفع قدر وحط دين

ومنها :

وارتكاب الديون اياى فى ظل ... لك يهجوك باللسان الفصيح

ففى هذه الديون ضاع عقاره واستبد به دائنوه .

ومثل ابن الرومى لا يستغرب منه أن يسرف ويستدين وانما يستغرب منه أن يقصد فى نفقته ويعتدل فى تصرفه ، فهو اما مضياع متلاف واما شحيح مقتر حسبما يتعاوره من المغريات بالانفاق وهواجس الخوف من الفاقة، وقد كان هو مضياعا متلافا وشحيحا مقترا فى نوبات نوبات لا يدرى لها سبب ولا يضبط لها ضابط ، فكان مضياعا متلافا على الكره منه وشحيحا مقترا على الكره منه كذلك . وكثيرا ما أنحى على نفسه باللوم لحرصه وضعف ايمانه وشكاها الى الله كأنما يغالبه على الحرص مغالب شديد المراس كما قال :

الى الله أشكو شح نفسى لأننى ... أرى الجود لى حظا وشيمتى البخل
وقد كان حق الجود بذل ذخائرى ... الى أن يرانى الله يعوزنى الأكل
ولكن نفسى آثرت نيل مالها ... وما حيث نيل المال مايوجد النبل

أو كما قال :

وفيما اجتهادى فى محاولة الغنى ... وما للغنى عند الجواد به قدر

وحينا يثقل عليه الصراع بين حرصه وسرفه ويخلد الى العجز عن المغالبة فيلتمس المعاذير لنفسه ويجعل الشح من المكارم المحمودة لأنه يصونه عن الحاجة ويعصمه من السؤال والاقتراض :

اذا لم يكن عندي سوى مايكفني ... فشحي عليه مثل شحي على عرضي
لأني متى أتلفته احتجت حاجة ... تذيل مصون العرض في طلب القرض

فهو لايزال أبداً شديد الزهد شديد الرغبة :

وأصبح في الاثراء أزهد زاهد ... وان كان في الاثراء أرغب راغب

فلا جرم يضطرب في عيشه ويخرج عن القصد في حالتي شحه وسرفه ، ويظل مدخراً لاينتفع بما ادخر أو مبدداً لايبقي من ماله ولا يذر .

***

على أنه لو بقي له كل ماورث من أبيه وكل ما علمنا أنه ملكه لما أغنانا ذلك عن البحث في مورد رزقه وسبب اتصال عيشه . اذ كان البيت الذي يسكنه مالكه لايحسب من موارد الكسب ؛ والضيعة التي « مازال منها في عناء » لاتبلغ أن تدر عليه رزقا يكفيه ، ومن أخباره مايقطع بعثور جده وبؤسه الغالب عليه معظم حياته ، فلولا هذا البؤس لما لزمه ميسم النحس ولا عيروه الخيبة والخصاصة ، ولولا عسره وافتقاره لما وقع بينه وبين البحتري ماوقع ؛ اذ هجاه « فاهدى اليه تخت متاع وكيس دراهم وكتب اليه ليريه أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه ؛ وانه لم يحمله على مافعل الا الفقر والحسد المفرط » !! فاذا خطر لنا أن مطالبه الكثيرة لاتدل على حقيقة فقره وانها عادة جرى عليها كما جرى الشعراء في عصره فاشتهاره بالنحس والتخلف ورد البحتري عليه دليل على عسر حقيقي مافيه ريب ، أو دليل على حاجة دائمة الى المدائح والصلات يعول عليها في ضرورات معاشه فضلا عن نوافل لهوه .

فسؤالنا الذي ينبغي أن نسأله في هذا المعرض هو : ماذا كان

نصيبه من المدائح وكيف كانت حظوته عند ممدوحيه ؟ والجواب الذى لاتردد فيه انه لم يكن نصيبا جزيلا ولا حظوة مغبوطة . اذ هو لم يتصل بالخلفاء ولم يأخذ جوائزهم الكبيرة التى تغنى الشاعر عن السؤال زمنا أو تغنيه عنه بقية حياته ، وانما كانت مدائحه كلها للولاة والوزراء والقواد والكتاب ومن يضارعهم ويقل عنهم فى الرتبة والثروة ؛ فلم يمدح خليفة قط الا لعلاقة بين هذا الخليفة وبين رئيس أو نديم من الذين يعرفهم وينتمى اليهم : فمدح المستعين وهجا المعتز حين تنازعا الخلافة بينهما لأن محمد بن عبد الله بن طاهر كان من حزب المستعين وكان مقيما فى بغداد وابن الرومى يمدحه ويقيم معه فى المدينة ، ومدح المعتمد لأن بنانا المغنى اقترح عليه مدحه — وهو يكتب لبنان — فأجابه الى ما اقترح وذكر اسمه فى ختام القصيدة :

فلا يزل فى نعيم عيش مزاجه الخفض والليان
حتى يرى فيه كل سؤل ومنية عنده بنان

ومدح المعتضد بالمقاطيع الكثيرة لأنه كان صديق آل وهب وكالنهم من لدن تولى العهد الى أن بويع بالخلافة .

وقس على ذلك سائر مدائحه للخلفاء وولاة العهود وما هى بالكثيرة فى عددها ولا هى بالكثيرة فى عدد أبياتها . فقد كان لايعنى بتطويلها كما كان يطول مدائح الولاة والوزراء لأنها مدائح لم تقصد لذاتها ولم ينظمها الا مرضاة لأصحابه وتلبية لاقتراح المقترحين عليه ، وكأنهم كانوا يطمعونه بذلك فى تقريبه من الخلفاء وازلافه لعطاياهم ، ولكنهم لايفعلون فظل محجوبا عن الخلفاء لايستدعونه ولا يسألون عن شعره حتى مات وجاء المستكفى يسأل عما قاله فى الطعام والشراب !

ونعود الى الوزراء والرؤساء لنبحث عن نصاب الجائزة عندهم وغاية ما يصلون به الشاعر اذا رضوا عنه وبالغوا فى عطائه . وليس يطول بنا البحث فى هذا لأنه واضح من الحديث الذى جرى بين

البحترى وابن الرومى حيث يقول البحترى : « أقرأني أبو عيسى بن صاعد قصيدة لك فى أبيه وسألنى عن الثواب عنها فقلت : أعطوه لكل بيت ديناراً » فكأن هذا غاية ما يرتقي اليه الموصي بجائزة وغاية ماكان ينتظره ابن الرومى من شفاعة متشفع يتودد اليه ، وابن الرومى نفسه قد عين نصاب هذه الجوائز تعيينا فى بيت يخاطب به على بن يحيى المنجم يقول فيه :

وما المائة الصفراء منك ببدعة ولا من أخيك الأريحى أبى الصقر

يعنى مائة دينار . فهى اذن غاية الغايات من جوائز الأمراء ، ولابد أن يحسب فى هذا التقدير حساب مبالغتين مفروضتين فى هذا المقام هما مبالغة الطمع ومبالغة الثناء ، بل حساب مبالغة أخرى صريحة فى البيت وهي أن الانعام بمائة دينار كان أقصى ما تسمو اليه الأريحية وكان بدعة فى ذلك العصر من غير هذين الممدوحين فمن الرؤساء - على هذا - من كان يجيز الشاعر ان أجازه بعشرين ديناراً وعشرة دنانير وما فوق ذلك وما دونه ، وكانت هذه هى السنة الشائعة والنصاب الذى جرى عليه العرف بين معظم الرؤساء ومعظم الشعراء .

وأنت تقلب ديوان ابن الرومى فتقرأ فيه عشر قصائد فى الشكوى والتذكير والاستبطاء والالحاح والانذار والهجاء الى جانب قصيدة واحدة فى المدح الخالص من العتاب والاستنجاز ، فلنقدر أنه نجح فى مائة قصيدة وأخذ عليها مائة جائزة فمحصل ذلك كله لايزيد على ألفى دينار مع التسهل فى عدد الجوائز ومقدار الدنانير ، وألفا دينار يتلقفها الشاعر فى نحو أربعين سنة ليست بالرزق الرخى ولا بالوقاء من العوز والدين فى مدينة الغلاء وعصر البذخ والاسراف ، ودع عنك أنها تجيء متقطعة مسنونة لا يعرف لها موعد ولا توافق أوقات الطلب والحاجة .

ذلك نصاب الجوائز عند الرؤساء والوزراء اذا رضوا وسمحوا بالعطاء ، فاما الحظوة عندهم فلم تكن من قسمة ابن الرومى فى أكثر

الأوقات وان أكثر وان أجاد وان أفرط فى التزلف والاسترضاء : فما أكثر ما كانوا يتجنون عليه ويستخفون به ويتمحلون العلل الواهية لحرمانه وجفائه والقدح فى شعره! فهذا اسماعيل بن بلبل مدحه بقصيدة معدودة فى شعر المدح العربى من أقدم أزمانه الى أحدثها فتجهم له وضن عليه ، ولأى ذنب ؟ لأنه قال فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم كلا لعمرى ولكن منه شيبان

وأي شيء فى ذاك ؟ فيه كما زعم أنه هجاه وأنكر عليه ما ادعاه من نسبه .! فقيل له هذا من أحسن المديح ، فاسمع ما بعده :

وكم أب علا بابن ذرى شرف كما علا برسول الله عدنان

فتجنى وتعلل وقال : أنا بشيبان ليس شيبان بى . فقيل له انه لم يخس شيبان وقد قال فيها :

ولم أقصر بشيبان التى بلغت بها المبالغ أعراق وأغصان
لله شيبان قوم لا يشيبهم روع اذا الروع شابت منه ولدان

فأصر على التجنى والتعلل وأقسم لا أثابه ، ورجع الشاعر مغضوبا عليه فوق حرمانه وطرده .. وقد كان رجاؤه بما جود وأطال أنه يرضى عنه ويثاب . ولم يكفه هذا حتى جنى على نفسه انحراف الوزراء الآخرين عنه لأنهم لم يمدحوا بتلك القصيدة ، فراح منهم من يقول انها دار البطيخ !

***

ومدح محمد بن عبد الله بن طاهر مرة فانقلب ناقدا منافسا للشاعر وهجا شعره ولم يجزه بشيء :

مدحت أبا العباس أطلب رفده
فخيبنى من رفده وهجا شعرى
فهبنى قد أعفيته من مثوبتى
أيعفى له شعرى على مضض الوتر

ومن اهمالهم اياه أنه كتب قصيدة عتاب الى أبى سهل النوبختى فنظر اليها والرياح تلعب بها فى جانب الدار وقد خطط فى ظهرها بالمداد ! فثارت ثائرته وأقبل يعاتب لاهمال العتاب بعد أن كان يعاتب لاهمال الثواب :

رقعة من معـــاتب لك ظلت   ولهـــا فى ذراك مثوى مهان

. . . .

سطر العابثون فيها أســـاطـ   ـير عفت متنها فما يستبان
خط ولدانـــكم أفانين فيهـــا   أو رجـــال كأنهـــم ولدان

. . . .

وقبيـــح يجوز كل قبيـــح   رقعة من معاتب لا تصـــان

ويتمـــاجنون فيقولون اذا مدحهم أنه ينظم الشـــعر كأنه نائم .. فيرى المسكين فرضا لزاما أن يسلم لهم العيب الذى عابوه وأن يستخرج معنى جـــديدا من معانى الثناء على ذلك الممدوح الذى تماجن عليه :

مدحتك مدح المستنيم الى امرىء   كريم فقلت الشعر وسنان هاجعا

ولا ترى له شعرا فى أحد من الذين انقطع لهم وأكثر من قصـــدهم الا رأيته يشـــكو فى خطابه له أنه يظلمه حقه ويخصه بالحرمان دون أمثاله ومن هم أقل منه . فهو يقول لبنى وهب :

فاز الورى من ريحكم بســـحائب   هطلت ، وفزت بســـافيات تراب

ولبنى طاهر ..

أرى الشـــعراء حظـــوا عندكم   ســـــواء عيبهم واللســـــن
ســـواى ! فانى أرانى امرءا   هـــــزلت ، وكلهم قـــد سمن

ولبنى هاشم :

بنى هاشـــــم مالى أراكم كأنـــكم
تجـــورون أحيـــانا وأنتم أولو عـــدل
كما لو هجـــاكم شـــاعر حل قتـــله
كذاك فأوفوا مادحـــا دية القتـــــل

ولاسماعيل بن بلبل :

أبا الصقر لست أرى مهديا   لك المدح — غيرى — الا مثابا

ولعل قربه منهم وحسابه عليهم هو الذى أنزر نصيبه من جوائزهم وحفاوتهم ، لأنهم كانوا يحسبون عليه حضور مجالسهم وموائدهم واسهامه أحيانا فيما يسهم فيه الجلساء والندمان من ألطافهم وهداياهم ، ويوجبون عليه بذلك أن يظل لهم وحدهم شاعرهم وأديب بيتهم يطرفهم بالملح الأدبية ويواليهم بالتهنئة فى مناسبات التهنئة والثناء فى معارض الثناء ثم لاينتظر منهم الخلع والصلات على كل قصيدة ولا فى كل موسم كما ينتظرها الشاعر الطارىء الذى يلقى قصيدته ويذهب لطيته . وهم فوق هذا يمنون عليه أن قبلوه فى مجالسهم وأحضروه موائدهم ويفرضون عليه وفاء العبد للسيد والصنيعة لولى النعمة ، ويظنون أنهم كفلوه بالعيش الرغيد والظل والظليل :

اذا امتاحهم آكلة عبد   وه تعبيد رب لمربوبه
يخالون أنهم بلغو   ه بالقوت أفضل مطلوبه
وأنهم حرسوا نفسه   به من غوائل مرهوبه
يذيل مضيفهم ضيفه   كملبوسه أو كمركوبه

والأغلب عندنا أنهم كانوا يقبلونه فى مجالسهم ويحضرونه موائدهم غراما بضروب الشذوذ والشهرة وكلفا بالطرائف والملح كما هو دأب أصحاب المجالس فى كل أمة ، فكانوا يأنسون به فى بعض حالاتهم ويقربونه لغرابة أطواره ووفرة محفوظه من الأشعار والنوادر والأمثال وسرعة ارتجاله للتشبيه والمحاكاة ، فكأنهم اصطنعوه للأغراب لا للمودة وتخيروه للمظهر لا للثقة والكرامة ، ولهذا كانوا يحضرونه مجالس الاحتشام وينحونه عن خلوات الحفاوة والتبسط ، وكان يعلم بهذا فتسوؤه فوق مساءته بالحرمان ويمحله الغيظ الذى لايقوى على

كظمه أن يسكت عن العتاب فى مثل هذا الأمر ، فيعتب كلما حجب كما قال فى مرة من هذه المرات للقاسم :

فى جلنـــار واختهـا دبسـية
يا ابن الـوزير لعـاتب متعتب
أحضرتمـــونى جلنـار وأحضرت
دبســية الكبرى لغيرى تحجب

وكان يحار فى هذا الحجب ولا يدرى ما علته ولا ما النقص الذى استوجبه ، ويسائل الأمير عن نفسه :

هل ترى الغفلة شـابت حلمه — أم ترى النـكراء شابت فطنه
هل ترى العى يؤاخى صمته — أم ترى الغي يـؤاخى لسنه
هل ترى الشك عليـه غالبا — عنـد حق ، أم تراه يقنـه
هل رأى منـك قبيحا بثـه — أم رأى منـك جميـلا دفنه
هل لديه لك سـر ذائـع — أم أمانات غـدت محتجـنة

لكن حيرة ابن الرومى هذه قد ترشدنا الى أسباب حجبه لأنهـا ترشدنا الى بضاعته التى أعدها للمنادمة وحسب أنه مستحق بهاالتقريب والمصاحبة ، وهى أدوات العلم والبحث والشك فى موضع الشـك واليقين فى موضع اليقين ! وما هى بألزم مايلزم النديم فى مجالس الخلوة فضلا عن مجالس الاحتشام، فقد يستغنى النديم عنها كلها بالقدرة على المصانعة ومسايرة الأهواء ، فى حين أن العلم لايغنيه عن تلك القـدرة ولا يسد مسدها فى مجالس الاحتشام ولا مجالس الاباحة .

بقى حفظ السر وما نظن دعواه فيه مطـابقة للحقيقة أو لرأى جلسائه المحتجزين عنـه فى خـلوات الاباحة : لأن من كان مثـله مطبـوعا على « الاعتـراف » بعيوبه لا نخاله يمسـك لـسـانه ويحفظ سرا ر٢ ٣ سـاعة لهـوه ... فاذا حجبـه الأمراء عن مجالس الخـلوة فلأنه لاينفعهم فى تلك المجـالس ولا يؤمن عنـدهم على

أسرارها وما يقع فيها من فلتات اللسان وبوادر رفع الكلفة وارسال النفس على السجية .

لكنهم كانوا يحجبونه أيضاً عن المجالس العامة ولا يقتصرون على حجبه عن المجالس الخاصة ، وكانوا يقطعون ما بينه وبينهم حتى تضيق به الدنيا ويتنمر له كل من ينتمي اليه أو ينتمي اليهم :

تعرفت فى أهلى وصحبى وخادمى　　هوانى عليهم مذ جفانى قاسم

فيعود يسأل الاذن فى المقابلة ويكتفى به عن سائر المطالب :

بل أنت معفى من جميع حوائجى
الا لقاءك فى السواد الأعظم
لا أبتغى ما كنت أسأل مرة
حسبى بوجهك ، فهو أفضل مغنم

قال هذا وقد حجبه القاسم عن لقائه وأمر الخدم برده ، وكان القاسم وأمثاله يمنعونه بعض المنع وفى نفوسهم بعض الرعاية له وبعض الرضى عنه ، فأما اذا غضبوا عليه وصرحوا له بالجفاء فقد كانوا ينبذونه ويوصدون دونه كل باب ويخلون بينه وبين الحجاب يدعونه ويتصلفون عليه ، والحجاب لا يعوزهم التصلف على مستأذن يأمنون العواقب فيه ويأنسون من سادتهم الرضى بايذائه ، فان الحاجب منافس لكل جليس ينزل من سيده منزلة الخليل والسمير وهو قائم على الباب مقام الخادم ، وهو يود أن يدل عليه بقدرته على الرد والاذن والاقصاء والتقريب والتمييز فى الحفاوة والتعظيم ، فكان ابن الرومى فى فترات الاقصاء والاعراض يقاسى شديدا من غلظة الحجاب ويسرع كدأبه الى شرح ما يلقاه منهم على أبواب الرؤساء المعرضين عنه ؛ وهو شبيه بما يلقاه كل طارق مهيض الجانب من كل حاجب غاضب أو متغاضب :

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب
محا الله مافيه من الكسر بالكسر

عبـوس ، اذا حييتـه بتحيـــة
فيالك من كبـــر ! ومن منطــق نزر !
يظـل كـأن الله يرفـــع قــدره
بما حط من قدري وصــغر من أمــري
اذا مـا رآني عـــاد أعمى بـلا عمى
وصـم ســميعا ما بأذنيـه من وقــر

ولقد كان يحمد الله أحيانا أنه نجا من تعجرف الحجاب عليه بغـير أذى في جســده :

عـــم الأذين بأذنة وتخلفت	حالى ، فلم أذكر ولم أتوهم
لكن نبذت مع اللفيف بمسمع	وبمنظر للشــامتين ومعـلم
بل ما أصــابتنى هناك شماتة	لكن غبطت لأننى لم ألطــم!!

فلم يكن رزق الرجل اذن متصلامن الجوائز ولا من ألطاف المجالس ولم تكن حاجته الى ضرورات العيش بالحاجة المصطنعة التى تنم عن فاقة حقيقية فى معظم أيام حياته ، فسؤاله الدقيــق والطعـام والملبس سؤال محتاج الى ما يطلب معتمد على ما يجمع من النوال . ولنـا أن نشك فى حاجته الى الشيء حين يطلبه ويلح فى طلبه ، ولكن ليس لنا أن نشك فى حاجته عاجلا أو آجـلا الى ذلك الشيء من طريق السؤال كما كان يصنع عامة الشـعراء فى الأزمان الماضية ، ولاسيما فى ذلك الزمان الذى اضـطربت شـئونه وقل ضـمانه وتلاحقت طوارئه ، فمن مسائل ابن الرومى ما يصعب الشـك فى صدقه كقوله يستعطف وهو يكاد ييأس :

ان لله غير مرعـاك مـرعى	يرتعيه وغير مائك مـــاء
وتيقن متى جنيت على عبــ	ـدك ضـيما وضـــيعة وعناء
ان لله بالبـــرية لطفـا	ســبق الأمهـــات والآباء
. . . .	. . . .
لى خمسون صاحبا لو سألت الـ	ـقوت فيهم ألفيتهم سـمحاء

أترى كل صاحب لى منهم　　يمنع الشهر بلغتي اجراء
لى فى درهمين فى كل شهر　　من فثام ما يطرد الحوجاء

وكثيراً ما ألم لهذه الحاجة الدائمة وتوسل الى الرؤساء أن يجربوه فى ولاية أو جباية أو يتخذوه لعمل فى الديوان يريحه من ذل السؤال وعذاب القلق والانتظار ، فكانوا يضنون عليه بما سأل ويأبون أن ينقذوه من سوء تلك الحال ، ولزم آل وهب ما لزمهم وهو يترقب أيام دولتهم ويترجى الخير الجزيل على أيديهم ، فلما صارت اليهم الوزارة لم يصنعوا شيئاً وزادوا أنهم قطعوه بعد صلة ومنعوه ما كان يناله قبل الوزارة ! وكثر زوارهم وقصادهم فتأخر مقامه بينهم وربما رأوه حينا وهو مقدم على سواه .

أنا من عراك وباب دارك موحش　　من كل مؤتنف على مقدم

وكان أسمح الرؤساء معه من كان يلهيه عن العمل فى الديوان بوظيفة صغيرة يشاهرها عليه ولا يثبتها فى سجل الأرزاق المرصودة المضمونة بعض الضمان ، ومن شأن هذه النوافل أن تحتاج أبدا الى التذكير والتنبيه فما لابد أن يجر اليه التذكير والتنبيه من السأم والجفاء ، فاذا حصل ذلك — ولابد من حصوله — خسر الوظيفة وصاحب الوظيفة وباء الى شر مما كان .

والعمل الوحيد الذى ذكر فى ديوانه هو عمله فى الكتابة عند آل بنان المغنى الذى كان ينادم الخليفة المعتمد ويغنيه ويسأل ابن الرومى أن يمدح الخليفة بلسانه ، وكأنه لبث فى هذا العمل عشر سنين على ما يجوز أن يؤخذ من قوله .

والغناء الشديد شدوا وضربا
سحنة قد ملأت منه الأناء

ظلت عشراً كواملا فى مغانيه
أغنى وأسمع الايحاء

ولن يكون ذلك العمل الا ضئيل الأجر مغبونه كما يظن بأجر يتناوله كاتب مغن ، وكما يدل بيتاه المشهوران فى بنان :

تعالى جد دينارى بنان فحلا حيث حل الفرقدان
ولو أن النفوس بحيث حلا غدون من الحوادث فى أمان

فان قلنا أن « الدينارين » هنا للتلطيف لا للحصر فأقصى ما يرتقى اليه الديناران أن يكونا عشرة ! وعشرة دنانير ليست بالرزق الطيب فى عصر كعصر المعتمد بمدينة بغداد .

فمعيشة الرجل فى جميع أدوارها كانت معيشة عارف بالحياة متذوق لها وهو مع المعرفة والتذوق ملدد محروم طويل الهم بأمر الرزق مشتت الفكر بين القلق والخيبة والمطل والحرمان ، وهى معيشة مزعجة مكهربة تهد القوى وتنهك الفكر والجسد ولا تكون وخيمة الأثر فى نفس رجل مثله كثير المخاوف علبل الأعصاب .

لماذا فشـــل !

فشل لأنه كان قليل الحيلة صفراً من الدهاء ، ذلك أوجز ما يقال فى أسباب فشله ، فما من عمل كان يحتاج الى حيلة الا كان ابن الرومى فيه مخفقا أو كان مصدوفا عنـه حتى اللعب ، ومن ثم كراهته للعبـة الشـطرنج التى راجت فى أيامه وكثر التفنن فى طـرائق لعبها بين ممدوحيه حتى كان أحـدهم يلعبها وظهره الى رقعتها ، وهو يقـول فيـه :

تقتل الشاه حيث شئت من الرقـ ـعة طبـا بالقتـلة النكراء
غـير ما ناظر بعينـك فى الدسـ ـت ولا مقبل على الرسـلاء
بل تراها وأنت مستدبر الظهـ ـر بقلب مصـور من ذكـاء
ما رأينـا سواك قرنا يولى وهو يردى فوارس الهيجـاء

ولكنه هو كان يجهلها ويحاول البراعة فيها فلا تسـاعده الحيلة ، فينقلب هازئا بها ويقضى عليها بأنها من تعلات الفراغ والجوع !

أرى لعبة الشـطرنج ان هى حصلت
أحق أمور النـاس ألا تحصـلا
تعـلة بوابـين جـاعا وأرملا
ببـاب قليل خـيره ، فتعـللا

أو يقول :

تفرست فى الشطرنج حتى عرفتها فان صح رأيى فهى بالوعة العقل

وحسب الرجل أن تقل حيلته فى أواسط القرن الثالث ليـكون مقضيا عليه بالهـلاك أو بالفاقة وان اتصل بذوى الأخطار والعاملين فى سياسة الدولة ، بل يقضى عليه بالهلاك والفاقة لأنه اتصل بميدان هو أحوج الميادين الى المكر وسـعة الحيلة ، فمـدائح ابن الرومى نفسه أدل شىء على ضرورة الدهاء فى أيامه وشيوع هذه الخصـلة بين أبناء عصره . فانه مـدح أشتاتا من ذوى المقـامات بينهم الوزير

والقائد والنديم والكاتب والفيلسوف فكان الدهاء صفة تتكرر فى مدح كل واحد منهم وثناء مشتركا بين من يطلب منه الدهاء بحكم عمله ومن لايطلب منه ولا يعيبه أن يفوته ، واليك أمثلة قليلة نكتفى بها عن احصاء كل ماجاء على هذا المعنى فى مدائحه الكثيرة .

قال فى على بن يحيى النديم :

فل بالحجة الخصوم وبالكيـ ـد زحوف العدى ذوى التأليب

وقال فى ابن ثوابة الكاتب :

وبكيده يروى القنا علقا ويختضب اختضابه

وقال فى القاسم بن عبيد الله الوزير :

يرمى بدهياء من فلائقه فى وجه دهياء من فلائقها

وقال فى عبيد الله بن عبد الله القائد :

يصاول القرن أو يخاتله جلدا أريبا بعيدة سربه
كالليث فى بأسه وآونة مثل الشجاع الخفى منسربه

وقال فى الجنود الأتراك :

ترى شبه الآساد فيهم مبينا ولكنهم أدهى دهاء وأنكر

وقد صدقت فى هذه المدائح فطنة ابن الرومى الى صفة عصره والخلق الذى لابد منه للمتقدمين فيه من ندماء أو كتاب أو قادة أو وزراء أو جنود ، فلم يكن لواحد من هؤلاء غنى عن الكيد والختل والدهاء ، ولم تكن للعصر كله صفة بارزة بروز هذه الصفة التى اشتدت الحاجة اليها بين القلاقل والدسائس والاضطرار الدائم الى اتقاء الشر ومداراة الأقوياء والحيطة لما تأتى به طوارىء الأحداث ، وأحجى أن تشتد الحاجة اليها حيث تعشش الفتنة وتبيض وتفرخ بين رجال الدولة ومن يعاشرهم ويلحق بهم من الشعراء والندمان ومغتنمى الفرص من صعود هذا وهبوط ذاك واقبال هذه الدولة وادبار تلك ، فقد كان هذا هو عمل كل يوم وشاغل كل ساعة فى البيئة التى عاش فيها ابن

الرومي خاصـــة ، فما كانت أيامهم تنقضي على غير خليفة يعزل أويدبر له العزل وولى عهد يخلع أو يدبر له الخـلع ووزير يكاد له أو يكاد لخصـــمه وصاحب مال يستصفي أو يسعى لاستصـفاء مـال غيره ، وهذا وأشباهه شـغل يفتقر من يزاوله ويعيش فى بيئته الى الدهـاء افتقـاره الى آداة المعيشـة الأولى وسـلاح الحرب الألزم له من كل سـلاح .

فى ذلك العصر عاش ابن الرومى وهو أعزل لم يستعد له بعـدة ولم يحسن قط أن يتداهى على أحد ولا أن يحترس من دهاء أحد . وراح يتقلب فيه باحساس طوع الحوادث ولسان طوع الاحسـاس ! فكان نقيض الرجل الذى يصلح لمثل زمنه . اذ كان ألزم ما يلزم ذلك الرجل أن يملك احساسه ولا يطيعه ، وأن يجعل بين احساسه ولسانه سدا منيعا من الرياء يستتر خلفه ، فأخطر ما يجـر الخطـر على المـرء فى عصور القلق أن يرسل نفسه وأن يطلق لسانه وأن يلهو بما بين يديه عما حوله ، كما كان يفعل ابن‌الرومى ومن طبعوا على غراره . وما نظنه كان يكرر صفة الدهاء فى ممدوحيه الا وهو يشعر بخلوه منـه وحاجته اليه ، غير أن الشعور بالحاجة الى الدهاء لا يعطيه الدهـاء ! كما أن شعور المريض بالحاجة الى القـوة لا يعطيه القـوة ، وغاية ما يستطيعه أن يأسى ويتكلف ماليس فى خلقته ؛ فلا يفيـده الأسى ولا التكلف الا أن يبدى من ضعفه ماهو أولى باخفائه .

***

ذلك أول الفشل أو ذلك أوجز مايقال فى اجمال أسبابه .

وهو مع هذه الغرة التى تعد من أكبر الجنايات فى عصر الدسيسة والمداورة — كانت له جناية أخرى تعد من أكبر الجنايات فى جميـع العصور وبين جميع الأمم وعند جميع الأفراد . كان غريب الأطوار ولا أضر على الضـعيف الحيلة من غرابة الأطـوار . لأنها تفرده بين الملأ فتنصبه وحده هدفا لكل ما فى الطبائع الانسـانية من لؤم وسفاهة وسوء ظن ومجانة . و « الشيء مستوحش اذا غربا » كمـا يقـول ،

فحسب المرء أن يشتهر بهذه الغرابة وأن يسجلها عليه من يعرفه ومن لايعرفه حتى تبطل دعواه وتسقط حقوقه . ويكون المجتمع قد أصدر عليه حكما سرمدا كذلك الحكم الذي كان يصدره السلطان في غابر الأزمان باهدار دم الطريد الهارب من عقوبته وسخطه . فلا ينصفه أحد ولا يتحرج متحرج من العدوان عليه والتعرض لغضبه ؛ فانما أساس الانصاف أن يعرف للانسان حق الرضى والغضب وحق الشكوى والملام ، فاذا سلب هذا الحق واشتهر عنه أنه يألم لغير ما يوجب الألم ويفرح لغير ما يوجب الفرح ويعجب والناس لايعجبون ويثور والناس لايثورون ويطرق وهم لا يعرفون فيم يطرق ويهلل وهم لايشعرون فيم يهلل — فهم اذن في حل من اسخاطه واهتضام حقه ! وهو اذن طلبة السلطان الأعظم سلطان المجتمع الذى أهدر دمه وأباح أمنه وماله، فلا يشكو الا وهو متهم ولا يشكى الا وللشاكي عليه حجة .. وكل ذنبه بين الناس أنه من معدن غير معدنهم وذو شعور بالحياة غير شعورهم وقد يكون خيرا منه وأجدر بالأنصاف .

بل حسب المرء أن يشتهر بالغرابة حتى يصبح المألوف من عمله غريبا يفعله هو فيلاحظ ويتبعه الناس بالغمزات ، ويفعله غيره فلا يلاحظ ولا يتغامز أحد عليه . لأن سمعة الغرابة هي المهم في هذا الصدد ؛ وليست الحوادث التي توصف بالغرابة .

وقد يعفى الغريب الأطوار من هذا « الاهدار » اذا كان مع غرابة أطواره له سطوة أو ثروة أو عصمة يعتصم بها من عشيرة تغار عليه أو جار يميل اليه ، فربما أساغوا منه غرابته في هذه الحالة وعدوها حلية تزينه وظريفة ترغبهم فيه . فاما أن يكون ضعيفا لا حول له ولا حيلة وغريبا في خلقه وشعوره فذلك هو الجرم المضاعف الذى لاشفاعة فيه ولا نجاة من عقوبته ، وقل في عقوبة مشدد فيها كما يشاء لؤم من لايخاف عاقبة لؤمه ، مبالغ فيها كما يبالغ في ايذاء كل معدوم النصير .

***

عاش ابن الرومى فى ذلك العصر قليل الحيلة فهو أعزل ، غـريب الأطوار فهو مستهدف لكل من يرميه ، دقيق الحس فهو معـذب بما يصيبه . وثقلت عليه صدمات الخيبة وساء ظنه بانصاف الناس فوهن ما فيه من بقية عزم الشباب — وعاف السعى وانطوى على اليـأس ووجدت نفسه لذلك وجداً تعرفه من صرخته :

لاعذر لى فى أسـفى بعـدها　　على المطايا . عفتها ! عفتها :

فكان هذا مع ضعفه واعتلاله وحذره المغروس فى تركيبه وحاجته الى من يرعمه ويعينه صارفا له عن السعى فى طلب الرزق والنزوح عن الوطن ، جانحاً به الى القعود حيث قعد لايرى الا أن البلاد كبلده وأن الأخيار والأشرار سواء فى قلة انصافه .

ذقت الطعوم فما التذذت كراحة　　من صحبة الأشرار والأخيار

وما كان الرجل مخلوقا للجلد والمشقة فى أيام الشباب بله المشيب، ولكنه كان ربما رحل فى تلك الأيام الى الابلة أو سامرا «سر من رأى» أو بعلبك، وهى فيما نظن أبعد ماوصل اليه فى رحلاته . فلا يلبث أن ينكرها وتنكره ويعود منها وما لقى فيها الا مثل ما لقى فى وطنه :

لقـد أنكرتنى بعلبك وأهلهـا　　بل الأرض بل بغداد صاحبة البتل

ويرسل الى أصحابه فى بغداد يتشوف ويقسم لا أزمع بعدها سفراً ولا آثر على قلوبهم مطمعا :

وان يقض لى الله الرجـــوع فانه
علـى له ألا أفـارقكم نـــذر
ولا أبتغى عنكم شـخوصا ورحلة
مدى الدهـر ، الا أن يفرقنا الدهـر
فما العيش الا قـرب من أنت الفـه
وما المـوت الا نأيه عنـك والهجـر

و « طول مقام المـرء فى الحى مخلق لديباجتيه » كما قيل . فاذا أحصينا أسباب الجفاء الذى كان يشكوه من ممدوحيه وأسـباب

فشله بعبارة أخرى فلا شك أن طول مقامه ببغداد واحد من تلك الأسباب التى رجحت عليه غيره من أنداده الشعراء ومن هم أقل فى الطبقة ، لأنهم كانوا يغيبون ويحضرون فلا يضن عليهم الأمراء بالعطاء فى السنة بعد السنة أو بعد السنوات ، ولأنه كان مقيما أمام أعينهم فى كل يوم فلا يلقى عندهم حفاوة الطارق بعد غياب .

وهو لم يرحل تلك الرحلات القصار التى كان يظنها غربة طويلة الا وهو فى ابان القوة والمطمع فى الولاية والجوائز . فلما طال عليه الأمر ووطن نفسه على اليأس قعد فى بغداد لايريمها وقنع بما يتفق له وهو وادع فى بلده وأبى أن يجيب من يستدعيه اليه ويحضه على « الحطب لناره » .. لأنه يكلفه ركوب البحر وهو أخوف ما يكون من ركوبه .

حضضت على حطبى لنارى فلا تدع
لك الخير تخوينى شرور المحاطب

. . . .

أيعزب عنك الرأى فى أن تثيبنى
مقيما مصونا من عناء المطالب

وما هى بعد الا دعوة فيما نظن لم يكن بالمنظور أن تتكرر ، اذ قل فى الولاة من كان يعنى بشأنه وشأن رزقه فى حالة شبابه ومشيبه وقل فيهم من كان يرعى حقه ويخلص فى مودته .

وربما اغتر هو ببعض المجاملة منهم وخيل لنفسه حقا عندهم فتشفع اليهم فى اتباعهم كما تشفع لمهندس القاسم الأسير المغضوب عليه « وما ضيف بأضعف من أسير » ... أو كما تشفع لكتابه الذين « أضحوا وهم أسوأ الكتاب أحوالا » ... أو كما تشفع فيما هو أكبر وأجل وهو شكاية الحسن بن عبيد الله الى أبيه من تقديم أخيه القاسم عليه وترشيحه لعظيم المراتب دونه . الا أنها شفاعات لا نعرف ماذا أوجبها على ابن الرومى ولا نعرف ماذا كان مصيرها عند المشفوع

لديهم، فهى ان دلت على شيء قاطع فانما تدل على أن قوماً ذوى حوائج كانوا يقصدون فيها من يقبل تبليغها ويأنسون من ابن الرومي تلبية لا يأنسونها فى صحابة الأمراء غيره ، وربما أغراهم به سذاجة طبعه وسرعة استمالته . ولاسيما فى وساطة الحسن عند أبيه والتماسه منه أن يسوى بينه وبين أخيه القاسم ، لأنه

ليس يوهي أخـاه شدك ايا ه ، ولكن يزيده فى اشتداده

ولا يبعد أن تكون هذه الوساطة علة اعراض القاسم عنه ومجافاته اياه تلك المجافاة التى قيل انها انتهت بقتله . فغير ابن الرومى لا يقدم على هذه الوساطة وهو جليس القاسم المطالب فى شريعة تلك الأيام بنصرته على كل من ينافسه ولو جاءت المنافسة من أخيه . اذ يرى الحزم والحكمة أن يتبع الدولة حيث كانت وألا يعرض نفسه لغضب صاحب الحظوة من أجل أخ له مهجور ضعيف الأمل فى النجاح . فاستشفاع الناس بابن الرومى لايدل على أكثر من هذا ولا على أكثر من أنهم ارادوه للتبليغ والتذكير عسى أن ينبهوا غافلا ويسمعوا من لم يسمع . وقد يدل على أنه أصيب بسبب هذه الشفاعة فى رزقه وحياته كما يلوح لنا من جرائر الوساطة بين الحسن وأبيه ؛ فأما أن تدل هذه الشفاعات على حق مرعى له عند الأمراء وعناية منهم بأمر رزقه وصلاته فى قربه وبعده فذلك احتمال بعيد تناقضه أخباره وأشعاره على السواء .

وما نخال أن أحداً من ممدوحيه كان بينه وبين ابن الرومى من المؤاخاة فى الأدب مثل ماكان بينه وبين أبى سهل بن نوبخت سليل البيت الفلكى المعروف ، فقد كانت بينهما مساجلات كثيرة تلمح فيها مخاطبة الند للند والصديق للصديق فى بعض الأبيات ؛ فابن الرومى يغرب فى مدحه فيقول :

أعلم الناس بالنجوم بنو نو بخت علما لم يأتهم بالحساب

بل بأن شاهدوا السماء سمواً ورقيا فى المكرمات الصعاب

وأبو سهل يجيبه وهو يعتذر من قلة اضطلاعه بجوابه :

هكذا يجتني الودود من الاخو ان أهـل الأذهان والآداب
نظم شعر به ينظـم شـمل المـ جد كالعقد فوق صدر الكعاب
قد سمعنا مديحك الحسـن الفـ رض ولكن لم نضطلع بالجواب

ومثل هذا الخطاب لايكون الا بين رجلين صديقين أو كالصديقين فيما توجبه العلاقة بينهما من الولاء والمعونة . فانظر مع هذا كيف كان أبو سهل في رعايته لحقه وعنايته بأمره وصيانته لقدره ؟ كان كما قال فيـه :

لي صديق اذا رأى لي طعاماً لم يكد أن يجود لي بشراب
فاذا ما رآهـا لي جيعاً كفياني لديه لبس الثيـاب
فمتى ما رأى الثلاثة عنـدي فهي حسبي لديه من آرابي
لا يراني أهلا لملك الظهـا ري ولاموضع العطايا الرغاب
وكأني في ظنه ليس شـأني لهو ذي نهيـة ولا متصـاب
في طبع مـلائكي لـديه عازف صـادف عن الأطراب
أو حمارية ! فمقـدار حظي شبعة عنـده بلا اتعـاب
انما حظي اللقـاء لـديه مع ما فيه بي من الاعجـاب
ليس ينفك شاهداً لي بفهـم وبيان وحكمة وصـواب
ومتى كان فتـح باب من اللـ ـه توقعت منـه اغـلاق باب

نعم ! مع مافيه من الاعجاب به والشهادة له بالفهم والبيان ، فقد كان قصارى حظه عند صاحبه هذا وعند أصحابه الموسرين جميعا أن يعجبوا به أو يتعجبوا لفطنته وغرائب أحواله ؛ أو يساجلوه في الشعر مساجلة يظهرون بها قدرتهم على مجاراة شاعر قدير منقطع للشاعرية ، أو يسامروه سمرا يلهون فيه بحديثه ونوادره ثم يستأدوه الثمن غاليا من صبره وماء وجهه . فأما ما وراء ذلك من نفع وميرة فليس من حظه عندهم وليس له منه كما قال الا نصيب الملائكة أو نصيب الحمير ..!
وما كان واحد من كبار ممدوحيه عاجزا عن اغاثته واصلاح أمره وتدبير

عمل له يناسبه لو صححوا النية ولم يساوموه مساومة التاجر الشحيح ليأخذوا منه أكثر مما يعطونه . وليأبوا أن يهبوه مادام في وسعهم أن يمنعوه . ففي قدرتهم كانوا أن يستحضروا النية في اصلاحه وجبر نقائصه وتلافي عيوبه . وفي قدرتهم كانوا أن يجدوا سببا واحداً على الأقل يوجب هذا الحق عندهم من باب الوفاء أو من باب الرحمة ، بيد أنهم لم يجدوه ولا حاولوا ايجاده . . . ووجدوا أسبابا شتى لحرمانه واهماله والاعتذار من توجيه الأعمال اليه واتخاذه للكتابة أو النظر في بعض مرافق الديوان .

ونحن نقرأ قوله لأبي سهل الذي تقدم ذكره :

أتزعم أني ان توليت قرية
رأيت أزوراري عن صديقي من الفرض؟

وقوله للقاسم :

أركيكا رأيت عبدك صفرا   لا جنى فيه ؟ أم جنى شنعاء ؟

فنفهم جملة هذه العلل التي كانوا يعتلون بها عليه ، نفهم أنهم كانوا يكرهون توليته لئلا يستقل عنهم ويعرف له موردا غير موردهم أو أنهم كانوا يحسبون عليه غراراته ذنبا يحرمه الولاية كما حرمه العطاء وكفالة الرزق من جراية لا يكدرها المن والتسويف ، وهي — ولا مراء — أسباب طبيعية للحرمان في الحياة نفهمها حين نبحث عن سر حرمانه . ولكنها لا تصلح عذرا للمتفضل الذي يريد الافضال ولا تعد ميزانا رفيعا للمروءة ومكارم الأخلاق . فمن الطبيعي أن يأكل الذئب الحمل وأن يعبث اللئيم بالغرير وأن ينهب المحتال مال الطفل اليتيم والمغتال مال الاعزل الضعيف ، الا أن البون بعيد جدا بين هذه الأسباب الطبيعية في الدنيا وبين معالي الهمم ومكارم الأخلاق ، وأن هذا البون البعيد جدا لهو مناط الحمد واللوم والشرف والضعة والفضل والقصور .

***

وكان لفشل ابن الرومي وحرمانه سبب آخر هو فشله وحرمانه .

نعم كان فشله وحرمانه سببا لنفرة الناس منه واتهامهم اياه، فكانوا يلومونه على بلواه ويعدونها من ذنوبه وخطاياه : وكان لومهم هذا بلاء فوق بلاء وحسرة فوق حسرة ، وشكاية أشد عليه من سائر الشكايات لأنها تحرمه حق الشكاية :

يارب ما أطول البـــلاء وما أكثـــــر في أن بليت لوامي
يلومني الناس ان حرمت وما ألزمني الله غـير احـــرامي

فاذا شكا فهو مذنب ، واذا سكت فالرزيئة عنده أعظم من السكوت وهـذا آلم ما يبتلى به المنكوب وأظلمه وأدعاه الى المزيد من نكبته وظلمه .. ولكنه كذلك طبيعي مألوف في النـاس ؛ لأنهم لايكلفون أنفسهم الرأفة بأحد اذا استطاعوا أن يحيلوا عليه جريرة خطاياه ! فاذا حرم فما ذاك الا لأنه محروم مستحق للحرمان بما جناه على نفسه أو بما جناه عليه القضاء ، واذا كان كذلك فهم أولى بالاجفال منـه والهرب من عدوى شقائه ! والا فماذا يصنعون له وهو الجاني على نفسه ؟ ثم ماذا يصنعون للقضاء ولا طاقة لهم برد القضاء ؟ فمن حـرم وفشـل فليحرم أبدا وليفشل أبدا ، وليكن مصابه حجة للمزيد من مصابه ودليلا على شـقاء مكتوب عليـه ، لاخلاص منـه ولا للنـاس فيه حيلة !

وتضاف الى ذلك الحرمان نكبات متواليات لايد لمخلوق فيهـا ولا هي مما يجنيه انسان على نفسه أو يرده انسان عن حوزته ؛ فتحق عليه تهمة الشؤم وتثبت عليه مطاردة الأقدار ! فلا رأى للعاقل الا أن يفر منه ويلتمس العصمة والأمان بالبعد عنه .. وقد أطبقت على ابن الرومي النقمتان نقمة الفشل والحرمان ونقمة الفجائع في أهله وولده والتلف في زرعه والحريق في تراثه والضياع في عقاره . فالرجل لاريب مشئوم يستعاذ منه ، وطريدة للأقدار لايجيرها مجير وهو آمن على سربه ، فمن غرر بنفسه وعالج خلاص الطريدة من القدر الذي يتعقبها فهو مبتلى لا محالة بمثل بلائها ؛ ثم لا يلومن الا نحسه ورأيا سـخيفا

سول له التورط فى المهالك وخيل اليـه أنه مجير من قدرة الله وراد لما لا مرد لحكمه .

وحق لابناء القرن الثالث أن يخافوا المشئومين وطرداء القـدرلأنه كان عصر السـعد والنحس والقـلاقل والمفاجآت ، مع الايمان بمـا يصحب ذلك من الخرافات والأوهام ، ولأنه العصرالذى تمت فيهترجمة الكتب الهندية والفارسية وشـاعت بين المسلمين أحاديث النجـوم والطوالع ما كان منها خرافيا كاذبا وما كان من قبيل العلم الصحيح ، وزاد فى شيوع تلك الأحاديث أن الدولة كانت يومئذ للفـرس وأن آداب المجالس فى قصـور الملوك والشرفاء كانت آداب الفـارسية والناشئين فى البلاد الفارسية ، وكانت لهؤلاء ساعات للسعود وساعات للنحوس ومقارنات بين الأفلاك يطيب معهـا الطعام والشراب تارة ولا يطيبان تارة أخرى ، بل كان لكل شىء فى الأرض والسماء حسـابه وأرصاده وبشائره ونذره ، فلا يسافر المسافر ولا يتحرك العامل الا بعد استشارة للنجوم وموافقة لارصاد الطوالع ، ولا عجب أن يدرج الفرس على ذلك وهم أمة عبدت الكواكب زمانا وجعلت لها صفات الخير والشر وأسندت اليها تدبير الحوادث وتحويل الدول وتقـدير المقـادير .

وكأنما شاءت الأقدار أن تهيىء للقرن الثالث كل أسباب العنـاية بالنجوم فظهر فى أوائله مذنب « هالى » الذى رأيناه هنا فى دورته الأخيرة قبـل نيف وثلاثين سـنة ، والذى قال فيه أبو تمام فى تلك الأيام .

وخـوفوا النـاس من دهيـاء داهية
اذا بدا الـكوكب الغـربى ذو الذنب
وصـيروا الأبرج العليـا مرتبـة
مـا كـان منقلبـا أو غـير منقلب
يقضـون بالأمـر عنهـا وهى غافلة
مـا دار فى فـلك منهـا وفى قطب

وليس يصعب علينا أن تتمثل كيف يكون أثر ذلك المذنب المرهوب أول ظهوره فى زمان كذلك الزمان وبين أناس كأولئك الأناس قد غلب عليهم الاشتغال بالتنجيم صادقه ومكذوبه وكثر بينهم جدا من يعلقون حوادث الأرض بأنباء النجوم .

ولقد تردد ذكر السعود والنحوس وأسماء الكواكب فى كلام شعراء القرن الثالث والقرن الذى بعده من أثر هذه العوامل كلهافألم اليها أبو تمام والبحترى مرارا وأفرط ابن الرومى فى الاشارة اليها لأنه كان أعلم من صاحبيه بهذه المطالب . وتمادى الأمر بمن بعدهم حتى أصبح درس النجوم فريضة على كل رجل مثقف مطلع على آداب زمانه ولو كان كالمعرى مكفوف البصر غير صالح للتوسع فى هذا الباب . فكان رهن المحبسين يذكرها فى سقط الزند واللزوميات ويصف مواقعها ويتكلم عن مقارناتها كأنه فلكى مشتغل بصناعته وليس بأديب ضرير واضح العذر فى جهل هذه الصناعة .

ثم اتفق أن راجت عقيدة النجوم فى الأسرتين اللتين علق بهما ابن الرومى وكان لهما نصيب من شعره ومدحه وعتابه أكبر من نصيب سائر ممدوحيه : نعنى أسرة بنى طاهر وأسرة بنى وهب ، وهما أقوى وأغنى من حكم فى ذلك الزمان من الأسر التى تصرفت فى الدولة وتصدى أبناؤها للمدح والعطاء وتولية الأنصار وعزل الخصوم . فلما مات محمد بن عبد الله بن طاهر وخسف القمر تحدث أهله وتحدث الناس أن القمر خسف لموته ، وكتب ذلك المؤرخون فيما كتبوا من تاريخه .وذكره ابن الرومى فى بعض شعره فقال :

بات الأمير وبات بدر سمائنا   هذا يودعنا وهذا يكسف
قمر رأى قمرا يجود بنفسه   فبكى عليه بعبرة لا تذرف

وكسفت الشمس مرة فخاف القاسم بن عبد الله (بن سليمان بن وهب) أن يكون كسوفها مؤذنا بموت عظيم فى الدولة وهلع لذلك فكان ابن الرومى هو الذى هدأ روعه ونصح له باللهو والسماع للتسرية عن نفسه وكتب اليه :

لا تهولنك شمس كسفت دون أن تطلع من مغربها
هان ذاك الرزء فيها مثلما هان ما عزك من مطلبها
هي نار وافقت مطفئها لست بالآيس من ملهبها
فابك من تشفق من معطبه . فلقد أومنت من معطبها
ضل بالك أن أبيخت جمرة سوف تذكيها يدا مثقبها
ليس للشمس اذا ما كسفت غير شمس تخلف الشمس بها
من بنات الروم لا يكذبنا لونها المشرق عن منصبها

وانها لفكاهة مضحكة من فكاهات الخطوب أن يكون ابن الرومي مهدىء روع فى هذا وهو أحوج انسان الى من يهدىء روعه ويذهب عنه الوجل من نذر الزمان وعلاماته !!

فالخوف من شؤم صاحبنا كان من أقوى أسباب فشله واجتنابه .

وفى بعض معاتباته اشارة صريحة الى تطير أبناء طاهر وأبناء وهب من هذا الشؤم واجتنابهم اياه بعد أن جاءتهم الدولة وزخرت لهم النعمة ، مخافة على سعودهم أن يدركها طائف من شقائه ونحسه ، فكان يقول لعبيد الله بن عبد الله بن طاهر يدفع عن نفسه هذه التهمة :

نحن ميامين على أننا على أعاديك مشائيم
لما دخلنا دخلت نعمة كان لها حولك تحويم
ولم يفخمك الذى نلته بل للعطايا بك تفخيم

وكان يقول للقاسم بن عبيد الله :

طلعت بأيمن ما طائر عليكم وأسعد ما طالع
فجاءتكم دولة غضة تفيأ فى ثمر يانع

وكأنما كان حاسدوه ومزاحموه يعرضون بشؤمه لبنى وهب وينسبون اليه ما يكره الوهبيون من رحلة أو مشقة ، فكان يبرأ اليهم ويسرع الى تفنيد مانسبوه اليه قبل أن يحتسب عليه ، وما هو فى حاجة عندهم الى اختلاق الذنوب :

ولقـــد خفت والبـرىء ملقى   كل ذنب برأســه معصـــوب
ان يقول الوشاة بى ان شـؤمى   قادهذا الشخوص، والافكحوب
وجوابى أن لم يغيبـوا وشاهد   ت فزالت مخاوف ونــكوب
أنا من لا يشـك في اليمن منه   أو يمين ابن فجـرة ويحـوب
جئت والدولة السعيدة خـلفى   رأسـها فى مقـادتى مجنوب

***

فحسب الانسان في ذلك العصر أن تلوح عليـه شبهة من السعد أو النحس فيقال انه مسعود أو منحوس ، ثم تلزمه التهمة وتلصق به طول حياته وتشتد لصوقا به اذا كان في أحواله وأخلاقه ما يغـرى الناس بالالحاح فيها والإصرار عليها . وهل كان شيء من ذلك ناقصا عند ابن الرومي ؟ كلا ! بل عنده كل شبهة النحس لأنه كان عالما ذكياً ولا حظوة ولا جاه ، فما الذي يحول بينه وبين حظـوة أمثاله الا أن يكون الجد العاثر والطالع المشـؤم ؟ ولأنه فقـد أباه وأمه وأخاه وزوجته وأبناءه وعاش بعدهم كئيباً حزيناً مستهدفا للبلاء من الأيام والناس . وهل يفقد كل هؤلاء ويعيش بعـــدهم في تلك الحال الا المنكود المرزأ المنحوس ؟ ولأنه منى كما رأينا بالجـراد فى ضـــيعته والحريق في ماله والضياع في عقاره ، وهل يمنى بذلك ــ مع مصائب الموت والفنك ــ الا من شـله النحس فى شـبكة لانجاة منهـا لمشـبوك ؟

ثم هل كانت لابن الرومي مبرءاً من تلك الخلائق التى تغرى به أهل العبث والمجون فيلحـون عليـه بتهمة الشؤم ويتفكهون بما يؤلمه من ذلك ويؤذيه ؟ لا ! بل كان الرجل أول المتفائلين المتشائمين وأول من يسوغ للناس التباشر والتطير ، ولزمته الحجـة من ذكائه وادبار حظـه ومن مشائبه في ذويه وصحبه ، فكان الذكاء نكبة عليه تعـد فى النكبات ، والمصائب ضعفين ما يصيبه من شرها وما يصيبه من سمعة نحسها وولع العابثين بالسخر منها ، وأنه لمصاب عظيم ..

ولقد رأينا أن أخاه أبا جعفر كان يكتب لرجل فعزل الرجل بعـد

مدة فعبث به أصدقاؤه آل أبي شيخ وقالوا له : « انما عزله شؤمك » كأن حديث الشؤم والسعد كان حديثهما في كل نكبة وفي كل نعمة. ولو أنصف القوم لكانوا كلهم مشئومين منحوسين اذ كانوا كلهم قد فجعوا في الأصحاب والأنصار وشهدوا نكبات الأخيار والاشرار. واذ كان ابن الرومي قد فقد أعداءه كما فقد أحبابه فلا فضل لشؤمه على سعده ولا رجحان لطوالع الخيرات فيه على طوالع الشرور .ولكنها الحظوظ التي لا تعرف القسط في الموازين !! ومن الحظوظ التي آلمتنا بأسبابها أن يكون ابن الرومي منفرداً بسمعة الشؤم في ذلك العصر دون سائر المشئومين !!

وسواد الناس لاينصفون مختارين ، ثم هم لاينصفون اذا كان الانصاف يكلفهم واجباً أو يحرمهم فكاهة يضحكون منها ! فليس لابن الرومي اذن الا أن يبوء وحده بجريرة ضعفه وعقائد زمنه ، فغاية الحكم فيه أنه ولد مقضياً عليه بالفشل وعاش في زمن لا رحمة فيه لمثله ، ووجب أن يترك لقضائه يصنع به مالا حيلة في دفعه .

ان من الباحثين من يرى أن رجال الفنون في الجماعات الانسانية كالأطفال في الأسرة لابد لهم من رعاية تكتنفهم وأمداد قومية تغنيهم عن السعي لأنفسهم ، لأنهم لايحسنون حيل السعي ولا يجيدون عملهم اذا تفرغوا لممارسة العيش واتقان حيله ، فاذا التمس هؤلاء الباحثون مثلا يدعمون به رأيهم فما نخالهم يجدون في تاريخ الآداب مثلا أصلح من شاعر كابن الرومي في زمان عجيب متناقض كأواسط القرن الثالث للهجرة .

طيرته :

الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشيء من ضعف الأعصاب واختلالها الذى أشرنا اليه فى الكلام على مزاج الشاعر ، الا أنها خوف خاص له بواعثه وأعراضه ، وهى فى ابن الرومى خلة خاصة قد بلغت مداها ولبست ألوانا غير ألوانها فى أكثر المتطيرين ، بحيث وجب أن نفردها بالبحث فى هذه الكلمة ببعض التفصيل .

فأصل البواعث التى أصابت ابن الرومى بداء الطيرة هو اختلال الأعصاب قبل كل شيء .

فالرجل السليم لايتطير ولا يتشاءم ، لأنه ينتظر من الدنيا خيرا ولا يحس النفرة بينه وبينها ، ومن ثم لايحس الخوف والتطير منها .

وقد تصادفه الحوادث كما تصادف الناس كافة فتقع على نفسه موقعا خفيفا يملك معه عزمه ويضبط معه شعوره ، فهو فى غنى عن الحذر والتوجس مذ كان يلقى الخطر - حين يلقاه - بعدة كاملة ونفس مطمئنة ، لايتسلف الفزع منه قبل وقوعه ولا يفرط فى الفزع منه متى وقع واستحال عليه دفعه . وقد تؤدى به هذه الطمأنينة الى نقيض الطيرة ، فيحتجب عنه الخطر الصحيح والمتوهم على السواء ، ويستسلم للأمن الصادق والكاذب استسلام المتطير لكاذب الخوف وصادقه وظاهر الوهم ومكنونه ، فهو أبدا فى حالة سلم وأمان . اذ يكون المتطير أبدا فى حالة حرب وارتياب .

هذه طبيعة السليم من حيث التطير خاصة والخوف من الطوارىء عامة .

أما مختل الأعصاب فالصغائر مكبرة فى حسه والأشباح والأطياف كثيرة فى وهمه ، يتخيل ويتوهم ، ثم يفزع مما يتخيل ويتوهم ، ثم يزيده الفزع من الأخيلة والأوهام . فان كان الى ذلك شاعرا وكان خياله قويا فللطيرة فيه معين لاينضب من الخلق والابتكار والطوارق .

وتتوارد عليه المنبهات — وكل طارق فى الدنيا منبه لأصحاب هذا المزاج — فيتيقظ فيه الشعور بالخطر ويلمح المخاوف حيث لا يلمحها الآخرون . كما هو الشأن فى كل مستحضر للحذر متوقع للمفاجأة.

فأنت تسير فى الطريق المأمون فلا تزعجك نبأة ولا يلفتك ماقد يوجب التلفت . ولكنك اذا أدلجت فى الأجمة المرهوبة واستحلك الليل حولك خيل اليك أنك تسمع فى كل همسة فحيح أفعى وفى كل نفخة همهمة أسد وفى كل خبطة تليك هجمة عدو ينتحيك بسكروه ، وما اختلف على حسك بين الطريق المأمون والأجمة المرهوبة الا اختلاف التوقع واستحضار الحذر من كل مجهول غير منظور ، وذلك هو موضع الاختلاف بعينه بين المتطيرين وغير المتطيرين .

ولقد كان ابن الرومى أوعى لنفسه من أن تخفى عليه طبيعة الحذر المركبة فيه : فهو يشعر من دخيلة طبعه بأنه حذور ، ويعلم ألا مفر له من الحذر فيتخذ من الضرورة فضيلة — كما يقولون — ويزعم أن الحذر باب الأمان :

فآمن ما يكون المرء يوماً ... اذا لبس الحذار من الخطوب

ويحتج لذلك بحجج كثيرة من القرآن والحديث والمنطق والروايات كما مر بك فى أخباره ، ثم لايشك فى أنه محق مصيب ضعفت حجته أو قويت وصدقت محاذيره أو كذبت لأن الحجة فى العقائد الشعورية تلحق العقيدة ولا تسبقها ، وتؤكدها اذا وافقتها ولكنها لا تفندها اذا عارضتها .

***

ومن روافد الطيرة فى ابن الرومى ذوق الجمال وتداعى الخواطر .

فالنفس المطبوعة على ذوق الجمال تفرح وتتهلل للمناظر الجميلة السوية وتنفر وتنقبض من المناظر الدميمة الشائهة . ويصاحب الفرح الاقبال والاستبشار والرغبة ، ويصاحب النفور الحزن والانكار والتشاؤم والكراهة ، وليس أقرب من المسافة بين النفور والطيرة اذا

دق الحس وغلب عليه الحذر وأصبح الانقباض عنـــده نذيراً يثنيه ويقتضب عليه طريق أمله .

أما تداعي الخواطر فصاحبه أبداً يستخرج من الكلمة أو الفكرة غاية ما تؤدي اليه وتتقلب عليه : ومتى كانت طبيعته الحذر ومزاجه مركبا على التشاؤم فليس أسهل من اتجاه خواطره السريعة الى حيث ألفت طبيعته واستتر مزاجه .

فلكل كلمة عنده سر ولكل سر مخافة ، ويسير عليه أن يعـرف ذلك السر ويكشف تلك المخافة لأنه سريع حركة الذهن يتنقل كومضة البرق بين المعاني ومشابهاتها ومناقضاتها وبين الكلمات وما يجانسـها ويشاكل حروفها وأوزانها ، فلا يشق عليه أن يعثر بطلبته الموافقة لنزعة طبعه ومتوجه ذهنه عند معنى من تلك المعاني ومشاكلة من تلك المشاكلات .

وذوق الجمال وتداعي الخـــواطر كانا في ابن الرومي على أدق وأيقظ ما يكونان في انســان . كانت له عـين خاطفة تلتهم الألوان والأشكال التهام الجائع المنهوم الذي لايشبع . وقد عرفنا أمثلة من ذلك في دقة تشبيهاته واحكام صوره وغرابة التفاته الى مواقـع للنظر لايلتفت اليها شاعر غيره . وسنعرف أضعاف ذلك عنـــد الكلام على عبقريته وفنه وأسلوبه في تناول الحس وتصويره .

ثم كان مع هذه النظرة الخاطفة يشنأ القبح ويحسـبه ذنبـا يعاقب ويستر ، وكان يبالغ في اخفائه من نفسه اذا ابتلي به كمـا كان يبـالغ في اخفاء صلعه والسخط على من يسألونه عنه ! فالقبح عنده شر أو نذير بالشر ، ولا يرى الأحدب أو الأعور أو الخصي أو الأشقر الذي يحكي لون وجهه لون الجلد المسلوخ أو غيرهم من المشوهين الخارجين عن سواء الخلقة الا انقبضت نفسه وأسرع اليه مايلازم الانقباض من التوجس والحذر والوجوم .

وتداعي الخواطر ملحوظ في جميع شعره لايستدل منه بغرض

دون غرض ولا بقصيدة دون قصيدة ، فهو يسلسل المعنى ويشعبه حتى يستنفد ، وكلما عن له خاطر لحق به ما يقاربه وما يناسبه حتى تبطل المناسبة ويضطر الى الوقوف . هذا فى المعانى . أما فى الألفاظ فانه يغوص فى تصحيف حروفها مثل هذا الغوص ويستخرج البعيد والقريب من رموزها وقراءاتها ويستنبط منها مايشاء من ملامح اليمن والشؤم ودفائن المدح والذم ... فجعفر عنده تساوى « جاع وفر » والخان يذكره بالخيانة .

فكم خان سفر خان فانقض فوقهم
كما انقض صقر الدجن فوق الأرانب

ويلعب بتصحيف الكلمات فى السمع والخط أحيانا لينقلها الى المدح أو الهجاء فيقول فى القيان :

لا تلح من تفتنه « قينة » فان تصحيف اسمها « فتنة »

ويقول فيمن اسمه ابن «هرثمة»

عائد دهره اذا سطع النق ع بمعنى مصحف اسم أبيه

وتصحيف هرثمة هو « هزيمة »

ويجعل عمر « عيرا » بقوله :

يا عمرو لو قلبت ميم مسكنة ياء محركة لم تخطىء الفقر

أو يفعل ذلك فى الاسم الواحد ممعنا أشد الامعان فى استخراج التصحيف للمدح والذم كما فعل فى اسم اسحاق مادحاً وهاجياً فقال وهو يمدح :

واسلم أبا اسحاق لابس غبطة وعداك للابعاد والاسحاق

وقال وهو يهجو وأبعد جدا فى تصحيفه :

يا أبا اسحق واقلب نظم اسحق وصحف
واترك الحاء على حا ل فما للحاء مصرف
يشهد الله لقد أصبح ت عين المتخلف

فتبدل اسم « اسحاق » بعد قلبه وتصحيف قافه فاء وسينه شينا واثبات حائه على حالها فخرج من هذه العملية الطويلة « فاحشا » ... وليس بينه وبين الأصل صلة كما ترى الا ماعرض له من التصحيف والتحريف من أبعد طريق .

وقد يذهب ذهنه الى الصورة التى تنقلب اليها الأسماء بعد اللثغ المضاعف كما قال فى أبى على بن أبى قرة :

أنت عندي وشيخك السيد الما　　جد لا شك صادقا الكنيتين
ليس فى منطق الفصيح ولكن　　حين يحكيكما أخو لثغتين
مبدل لام كل لفظ بياء　　مبدل قاف كل لفظ بغين

فيصبح على بن أبى قرة فى لغة الألثغ وهو عيى بن أبى غرة بكسر الغين ! ولولا السرعة فى تداعى الخواطر وخلق المناسبات لما وصل الى هذا التصحيف فى الاسمين .

وقد يعكس اللفظ ليستخرج منه فألا لغيره كما صنع بكلمة « سكان » حين انحدر العلاء بن صاعد يريد واسطا فتحركت ريح الجنوب حركة عظمت معها الأمواج فانكسر السكان فرجع . فقال ابن الرومى :

رأيت منكسر السكان ظاهرة
هول وتأويله فال لمنجاكا

. . . .

لأن لفظة « سكان » اذا قلبت
حروفها « ناكس » لاشك فى ذاكا

وان عقلا كهذا العقل المطبوع على سرعة التنقل بين المعانى والألفاظ وما يتفرع عليها ويتسلسل منها ليس بالغريب أن يهتدى الى مكامن الطيرة والشؤم فى كل معنى وكل كلمة ، ولا سيما اذا رانت على نفسه الخيبة وقدر الفشل فى كل خطوة واقترن ذلك بالاحساس المتوفز المتربص الذى لاتضبطه عزيمة ولاتحكمه صرامة فى الفطرة .

وتداعى الخواطر بهذه السرعة من الحالات التى تتقارب فيهما العبقرية والجنون كما تقدم فى الكلام على مزاج الشاعر ، فيثب العبقرى فى لمحة عين من المعنى الى شبيهه أو نقيضه ويصل بين القطبين البعيدين بسلسلة من المشابهات والمناقضات دقيقة الحلقات لا يتبينها الناظر الا بعد التوضيح والجهد الجهيد فى التنبه لمداخلها وتعقب أوصالها والجرى معها جريا يتعبه ولا يسره لأول وهلة . وتسمع المجنون يتكلم فاذا هو يخلط ويأتي بالمفارقات ولكنه فى داخل ذهنه يجمع بينها بمناسبات تقرب منها ما نأى وتؤلف ما تبعثر ، غير أن الجنون عقيم منبت والعبقرية مثمرة نافذة . وهذا هو الفرق الكبير بين الشذوذين المتناقضين أى بين أسمى ما يرتقى اليه الذهن وأوضع ما ينحدر اليه .

واليك مثلا هذه الأبيات التى قالها ابن الرومى فى هجاء ابن طالب الكاتب :

أزيرق مشئوم أحيمر قاشر — لأصحابه ، نحس على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخ الا وفعله — لفعل نذير السوء شبه مقارب
وهل يتمارى الناس فى شؤم كاتب — لعينيه لون السيف والسيف قاضب
ويدعى أبوه طالبا وكفاكم — به طيرة ان المنية طالب
ألا فاهربوا من طالب وابن طالب — فمن طالب مثليهما طار هارب

فبهذا المثل نستطيع أن نتتبع مداخل الطيرة الى نفس ابن الرومى من جانب « ذوق الجمال » ومن جانب « تداعى الخواطر » فى وقت واحد ، ونستطيع أن نراقب ذهنه وهو يعمل فى حركته السريعة بين الأشكال والألوان والألفاظ والمعانى كما نراقب البنية الحية وهى تعمل من وراء المجاهر والكواشف . فانظر الى لون الوجه « الاحيمر » القاشر والى نذير السوء والبلاء أين هما وماذا يجمع بينهما من الصلة والمناسبة ؟ لا صلة ولا مناسبة ! ولكن ضع بينهما المريخ ولونه الأحمر

ثم ضع مع المريخ ما اقترن به فى الأساطير من خصائص الحرب والفتنة تنتظم العلاقة وتنعقد المناسبة من جميـــع أطرافها ، وقل مثل ذلك فى لون العين ولون السيف القاضب ! وفى « الطالب » الذى لايقابله الا «الهارب» وفى «الطلب» الذى يعقد الشبه بين الموت وذلك الكاتب! وفرق هذا كله فاذا هو أبعــد المتفرقات ... وأجمعه كمـا جمعه ابن الرومى فاذا هو أقرب المناسبات وألزم العلاقات .

***

ولقد ضاعف العصر مافى نفسه من الاستعداد للطيرة من هـــذه الجوانب الكثيرة فاستعصى عليه علاجها وسهلت عليه مطاوعتها والاغراق فيها . فقد كان أصح الأصحاء فى عصره يصدق الطوالع ويؤمن بالسعد والنحس والتفاؤل والتشاؤم ، فزعم ابن الرومى أن الطيرة موجودة فى الطبائع وأنه ما من أحد الا يتفاءل بأشياء ويتشاءم بأشياء ويتخـــذ العلامات من ظواهر الزمان لخفاياه ، ومن فلتات لسانه لما فى دخائل ضميره !

وكثر التصحيف فى زمنه ، بل كثر فى بيت من بيوت الرؤساء التى اتصل بها وتردد عليها فى مجالس سمرها ولهوها ، وهـوَ بيت بنى طاهر ولاة الحكم فى خراسان والشرطة ببغداد . ومن رءوسه عبد الله بن طاهر الذى قال ملغزا فى اسم ظريف :

اسم من أهـواه اسم حسن   فاذا صـحفته فهـو حسن
فاذا أسقطت منـه فـاءه   كان نعتـا لهـواه المختزن

الخ ... الخ .

ومن رءوسه عبيد الله الذى كان يعرض الشـــعر على ابن الرومى ويقترح عليه تصحيفه كما ترى فى ديوانه

فتمكنت عادة التصحيف فى ذهنه وجاءت الطيرة فوجدت منهـا أداة صالحة لخلق دلائل الشؤم واستنباط الاشارات الخفية من ظاهر المعانى والألفاظ .

على أنا — مع توافر هذه البواعث فى مزاجه وعصره — نلاحظ أن الروايات التى ذكرت عن طيرته لا ترجع واحدة منها الى ما قبل الخمسين من عمره ، فرواية ابن المسيب التى يقول فيها أن ابن الرومى فزع من رؤية الحول والعور فى المهرجان ترجع الى مهرجان سنة ثمان وسبعين ، أى حين كان ابن الرومى فى السابعة والخمسين . والنوادر التى حكيت عن الأخفش لا يظن أنها حدثت قبل نيف وسبعين ومائتين ، لأن الزبيدى يخبرنا أن الأخفش كان له تلاميذ يملى عليهم هجاء ابن الرومى فيه ، ويغلب ألا يكون للعالم حلقة يجلس فيها للتدريس قبل الثلاثين . والأخفش مات سنة ست عشرة وثلاثمائة عن نحو ثمانين سنة ، فكان ابن الرومى فى الخمسين حين جاوز الأخفش الثلاثين .

والرواية التى نقلت عن ابراهيم كاتب مسروق البلخى وحضرها برذعة الموسوس صاحب المعتضد ترجع الى أيام المعتضد الذى تولى الخلافة سنة تسع وسبعين ومائتين أى حين بلغ ابن الرومى الثامنة والخمسين فيرجح اذن أن الطيرة الشديدة فى ابن الرومى كانت عارضا من عوارض الشيخوخة ، وأنه أفرط فيها بعد ما ابتلى بالآلام والأحزان وساورته المخاوف من كل جانب وقل حوله المؤاسى والرفيق ، وللشيوخ كافة ميل الى تصديق الأساطير واستطلاع الغيوب وما يدخل فى باب العيافة والزجر على العموم ، فابن الرومى فى شيخوخته أحجى أن يصاب بهذه العاقبة التى ادخرها له المرض والمزاج والعصر وحوادث الأيام .

الا أننا يجب أن نحسب هنا حسابا للمبالغة التى تدخل على كل شهرة وتغرى الناس باختراع الأقاويل واضافة النوادر الشائعة عن كل صفة غريبة الى الشخص الذى يشتهر بتلك الصفة ويتفرد فيها بالظهور فقد يكون الموضوع من أخبار هذه الطيرة أكثر من الصحيح ، وقد يكون الصحيح مشوبا بالمبالغة والاطناب .

عقيــــدته

تقدم فى الكلام على الحالة الدينية فى القرن الثالث للهجرة أنه كان عصراً كثرت فيه النحل والمذاهب وقل فيه من لايرى فى العقــائد رأيا يفسر به اسلامه ، وبخاصة بين جماعة الدارسين وقراء العلوم الحديثة .

فابن الرومى واحد من هؤلاء القراء لا ننتظر أن تمر به هذه المباحث التى كان يدرسها ويحضر مجالـسها ويسمع من أهلها بغير أثر محسوس فى تفسير العقيدة . فكان مسلما صادق الاسلام ولكنه كان شيعيا معتزلا قدريا يقول بالطبيعتين ، وهى أسلم النحل التى كانت شائعة فى عهــده من حيث الايمان بالدين .

وقد قال المعرى فى رسالة الغفران أن البغــداديين « يدعون أنه متشيع ويستشهدون على ذلك بقصيدته الجيمـية » ثم عقب على ذلك فقال « ما أراه الا على مذهب غيره من الشعراء » .

ولا ندرى لماذا شك المعرى فى تشيعه لأنه « على مذهب غيره من الشعراء » . فان الشعراء اذا تشيعوا كانوا شيعة حقا كغيرهم من الناس وربما أفرطوا فزادوا فى ذلك على غيرهم من عامة المتشـيعين، وانما نعتقد أن المعرى لم يطلع على شعره كله فخفيت عنه حقيقة مذهبه ، ولولا ذلك لمـا كان بهذه الحقيقة من خفاء

على أن القصيدة الجيمية وحدها كافية فى اظهار التشيع الذى لاشك فيه، لأن الشاعر نظمها بغير داع يدعوه الى نظمها من طمع أو مداراة، بل نظمها وهو يستهدف للخطر الشديد من ناحية بنى طاهر وناحية الخلفاء ، فقــد رثى بها « يحيى بن عمر بن حسين بن زيد بن على » الثائر فى وجه الخلافة ووجه أبناء طاهر ولاة خراسان ، وقال فيهــا يخاطب بنى العباس ويذكر « ولاة السوء » من أبناء طاهر :

أجنــوا بنى العبـاس من شنآنكم
وأوكوا على ما فى العيـاب وأشرجوا (١)

---

(١) وكى القربة ربطها وأشرجها ضمها والمقصود : اخفــوا يابنى العباس عما فى صدوركم من بغض العلويين .

وخـلوا ولاة السـوء منكم وغيهم
فأحر بهم أن يغـرقوا حيث لججـوا
نظار لكم أن يرجع الحـق راجع
الى أهله يوما ، فتشـجوا كما شـجوا
على حين لا عـذرى لمعتـذريكم
ولا لـكم من حجـة الله مخـرج
فلا تلقحـوا الآن الضغائن بينـكم
وبينهـم ، ان اللـواقح تنتـج
غررتم ، لئن صـدقتم أن حـالة
تدوم لـكم ، والدهـر لونان أخـرج
لعـل لهم فى منطـوى الغيب ثائراً
سيسمو لكم ، والصبح فى الليل مولج

فماذا يقول الشيعى لبنى العباس أقسى وأصرح فى التربص بدولتهم وانتظار دولة العلويين من هذا الكلام ؟ فقد أنذر بنى العباس بزوال الملك وكاد يتمنى — أو تمنى — لبنى على يوما يهـزمون فيه أعداءهم ويرجعون فيه حقهم ويطلبون ترائهم وينكلون بمن نكل بهم : وهواه ظاهر مع العلويين لا مداجاة فيه كهوى كل شيعى فى هذا المقام . على أنه كان أظهر من هذا فى النونية التى تمنى فيها هلاك أعدائهم ولام نفسه على التقصير فى بذل دمه لنصرتهم :

ان يوال الدهر أعـداء لـكم	فلهم فيـه كمين قـد كمن
خلعـوا فيـه عـذار المعتـدى	وغدوا بين اعتـراض وأرن (١)
فاصـبروا يهلكهم الله لـكم	مثل ما أهـلك أذواء اليمـن
. . . .	. . . .
قرب النصر فـلا تسـتبطئوا	قـرب النصر يقينـا غـير ظن
فعل من أضـحى الى الدنيا ركن	ومن التقصير صـونى مهجتى
لا دمى يسـفك فى نصـرتكم	لا ولا عرضى فيـكم يمتهـن
غـير أنى باذل نفسى وان	حقـن الله دمى فيمـا حقـن

(١) الارن : النشاط واظهار القوة

ليت انى غـرض من دونـكم   ذاك ، أو درع يقيـكم ومجـن
أتـلقى بجـبينى من رمى   وبنحرى وبصدرى من طعـن
ان مبتـاع الرضى من ربـه   فيـكم بالنفس لا يخشى الغبن

وليس يجوز الشك فى تشيع من يقول هذا القول ويشعر هـذا الشعور ، فانه يعرض نفسه للموت فى غير طائل حبا لبنى على وغضبا لهم واشهارا لعاطفة لا تفيده ولا تفيدهم ، وقد كان لا يذكر يحيى بن عمر الا بلقب الشهيد كما ذكره فى القصيدة الجيمية وفى خاطرة أخرى مفردة نظمها فى هذين البيتين :

كـسـته القنـاحلة من دم   فأضحت لدى الله من أرجوان
جزته معـانقة الـدراء   ين معانقة القاصرات الحسان

وبعض هذا يكفى فى الدلالة على تشـيعه للطالبين واتخاذه التشيع مذهبا فى الخلافة كمذهب الشعراء ، أو غير الشـعراء . . . ولاسـيما التشيع المعتدل الذى يقول أهله بجواز أمامة المفضـول مـع وجود الأفضل ويسـتنكرون لعن الصحابة الذين عارضـوا عليا فى الخلافة ، ومعظم هؤلاء من الزيدية الذين خرجوا فى جند يحيى بن عمر لقتال بنى العباس . فهم لايقولون فى نصرة آل على أشد مما قال ابن‌الرومى ولا يتسنون لهم أكثر مما تسنى .

ويلوح لنا أن ابن الرومى ورث التشيع‌وراثة من أمه وأبيه ، لأن أمه كانت فارسية الأصل فهى أقرب الى مذهب قومها الفرس فى نصرة العلويين ، ولأن أباه سماه عليا وهو من أسماء الشيعة المحبوبة التى يتجنبها المتشددون من أنصار الخلفاء ، ولا حرج على أبى الشاعر أن يتشيع وهو فى خدمة بيت من بيوت العبـاسيين ، لأن مواليه كانوا أناسا بعيدين من الخلافة وولاية العهد وهما علة البغضاء الشديدة بين العباسيين والعلويين وقد اتفق لبعض الخلفاء وولاة العهد أنفسهم أنهم كانوا يكرمون عليا وأبناءه كما كان مشهورا عن « المعتضد » الخليفة الذى أكثر ابن الرومى من مدحه ، وكما كان مشهورا عن « المنتصر »

ولى العهد الذى قيل أنه قتل اباه « المتوكل » جريرة ملاحاة وقعت بينهما فى الذب عن حرمة على وآله .

***

ومع هذا لم يخطىء المعرى حين ظن أن للشعراء تشيعا غير تشيع الدين والعصبية ، اذ كان الشعراء فى كل زمن يؤخذون بالعاطفة وتستجيشهم البواعث الحية التى تجيش لها القلوب من حولهم ، وكانت العاطفة أبداً مع بنى على حيث كانت المصلحة أبداً مع بنى العباس . وقد برز هذا الفارق فى مقتل يحيى بن عمر خاصة لأنه كان محبوبا معطوفا عليه لشجاعته ونخوته وكرم نفسه وشبابه وجماله ، وكان معذورا في خروجه على العباسيين لأنهم حرموه رزقه حتى عز عليه القوت وجاع وأترب وتبين ذلك لأنصاره فكانوا يعرضون عليه الطعام فيأباه ، ويقول « ان عشنا أكلنا » . . وفى ذلك يقول ابن الرومى من القصيدة الجيمية :

أفى الحق أن يمسوا خماصا ، وأنتم
يكاد أخوكم بطنه يتبعج
وتمشون مختالين فى حجراتكم
ثقال الخطى أكفالكم تترجرج
وليدهم بادى الضوى ، ووليدكم
من الريف ريان العظام خدلج

وقد بلغ من حبه فى قلوب الناس أنه لما قتل التمس قتلته أحداً يعالج رأسه كما تعالج رءوس القتلى لتحفظ وتنصب فأعياهم أن يجدوه وطال بحثهم عنه حتى عثروا برجل من أراذل السوقة رضى أن يصنع بالرأس ما لم يرضه الآخرون . ثم أرادوا نصبه فى بغداد ، فهاج أهلها وماجوا وخفيت الفتنة فأنزلوه ولما يكد يرفع ، ولم يعرف فى تاريخ الطالبيين أحد حزن الناس لموته واضطربوا كحزنهم واضطرابهم لقتل يحيى بن عمر ففى غضب ابن الرومىّ شىء كثير من غضب الشاعرية أو من غضب السليقة الحساسة التى لايسعها أن تهدأ وتفتر القلوب

حولها جائشة والصدور مكظوظة والطبائع نافرة ولا ننسى أنه رثى يحيى وهو دون الثلاثين فى سن للعاطفة عليها سلطان عظيم وللحـزم عليها سلطان ضعيف . ولكن أتراه ـ لولا العقيدة ـ كان يكرر هذا الغضب ويخرج هذا الخروج عن الحذر ؟ أكان يجازف بحياته ويقول فى النونية أشد مما قال فى الجيمية التى هيج لها هذا الهياج وسـاوره فيها الحزن كما ساور ألوف المحزونين ؟

***

وبعد فيجب أن نذكر فى هذا السياق أن ابن الرومى رثى محمد ابن عبد الله بن طاهر الذى تولى حرب يحيى وجلس لقبـول التهنئة بقتله . ففى هذه الملاحظة ما يجوز أن يلقى الشبهة على جده فى التشيع ولدده[1] فى الخصومة للمذهب . فاذا أردنا أن نذكر ذلك وجب أن نذكر معه أمورا كثيرة تصحح تلك الملاحظة وترد تلك الشبهة . وهى : أن ابن الرومى لم يكن قط لدودا فى خصومة و لاصـارما فى عصبية، وأن محمد بن عبد الله بن طاهر مات بعد مقتل يحيى بثـلاث سنوات سكنت فيها سورة الحزن وفترت حدة الغضب ، وأن أبناء طاهر كانوا حماة لابن الرومى يمدحهم ويرثيهم ويختلف الى قصورهم ويدخل فيما بينهم من منافسة ومصالحة بين أقطابهم . فأولى أن نذكر هنا أنه نسى ذلك كله وهجاهم وثار عليهم فى سورة الحزن فرماهم بما نسميه الآن « الخيانة العظمى » واتهمهم بالكيد لبنى على وبنى العباس على السواء وأنهم يأتمرون بالدولة العربية الاسلامية ليقيموا على انقاضها دولة الفرس القديمة ! فقال لهم فى القصيدة الجيمية أنكم لو أمكنتكم فى الفريقين فرصة :

اذن لاستقدتم منهما وتر فارس
وان وليـاكم ، فالوشائج أوشج
أبى أن تحبـوهم يد الدهـر ذكركم
ليالى لا ينفك منـكم متـوج
وانى على الاسلام منـكم لخـائف
بوائق شـتى بابهـا الآن مـرتج

وتلك سورة متشيع ناقم لا يبالى ما يقول وقد ملكه الحزن ونسى العواقب وراح يخبط فى تهم وحزازات كان أهونها يطير بالرأس فى تلك الأيام .

ويصح أن نذكر بعد ما تقدم أن الطاهريين كانوا فى بواطنهم متشيعين يضطرون اضطرارا الى حرب بنى على وقبول التهنئة بموتهم كما كان الطالبيون أنفسهم يضطرون الى شهود محافل التهنئة وهم مطويون على الحزن الأليم والثأر المقيم . ويقول ابن الأثير أن سليمان ابن عبد الله بن طاهر انهزم اختيارا فى حرب الحسن بن زيد العلوى الذى ثار بعد مقتل يحيى بن عمر « لأن الطاهرية كلها كانت تتشيع » . فلما أقبل الحسن بن زيد الى طبرستان تأثم سليمان من قتاله لشدته فى التشيع وقال :

نبئت خيل ابن زيد أقبلت حينا ... تريدنا لتحسينا الأمرينا
ياقوم ان كانت الأنباء صادقة ... فالويل لى ولجمع الطاهرينا
أما أنا فاذا اصطفت كتائبنا ... أكون من بينهم رأس المولينا
فالعذر عند رسول الله منبسط ... اذا احتسبت دماء الفاطمينا

وتشيع الطاهريين معقول مرجح لأنهم كانوا فرسا يوافق هواهم هذا المذهب ، ويصلح عندهم ذريعة لقلب الدولة وتجديد ملك فارس وقيام الدولة الطاهرية . فرثاء الشاعر رجلا من الشيعة — على هذا الاحتمال — أمر لا غبار عليه من هذه الوجهة ولا شبهة فيه على صدق الميل والجد فى العقيدة .

وأن أحق عقيدة أن يجد المرء فيها لعقيدة تجزئه اذا خاف ، وتبسط له العذر والعزاء اذا سخط من صروف الحوادث ، وتمهد له الأمل فى مقبل خير من الحاضر وأدنى منه الى كشف انظلامات ورد الحقوق ، وكل أولئك كان ابن الرومى واجده على أوفاه فى التشيع للعلويين أصحاب الامامة المنتظرة فى عالم الغيب على العباسيين أصحاب الحاضر الممقوت المتمنى زواله ، فلهذا كان متشيعا فى الهوى متشيعا فى الرجاء متشيعا فى الرأى الذى وافق الهوى والرجاء ، وكان

«على مذهب غيره من الشعراء» وعلى مذهب غيره من سائر المتشيعين

***

أما الاعتزال فابن الرومي لايكتمه ولا يماري فيه ، بل يظهره اظهار معتز به حريص عليه ، فمن قوله في ابن حريث .

معتـــزلي مسر كفـــر ... يبدي ظهوراً لها بطون
أأرفض الاعتزال رأيـــا ... كلا ! لأني به ضـــنين
لو صح عندي له اعتقاد ... ما دنت ربي بمـــا يدين

يقول : أن ابن حريث هـــذا يبطن الكفر ويظهر الاعتزال وهـــو الايمان الصـــحيح في رأى المعتزلة ، ثم يقـــول : أتراني اذن أرفض الاعتزال لأن ابن حريث يدعيه ؟ فيجيب نفسه : كلا ! لأني أضن به ، وأعلم أن عقيدة ابن حريث الباطنة غير الاعتزال ، ولولا علمي بذلك ما دنت ربي بما يدين .

وكان مذهبه في الاعتزال مذهب القدرية الذين يقولون بالاختيار وينزهون الله عن عقاب المجبر على ما يفعل . وذلك واضح من قوله يخاطب العباس بن القاشي ويناشد صلة المذهب :

ان لا يكن بيننـــا قربى فآصرة ... للدين يقطع فيهـــا الوالد الولدا
مقالة «العدل والتوحيد» تجمعنا ... دون المضاهين من ثنى ومن جحدا
وبين مستطرفي غي مرافقـــة ... ترعى، فكيف اللذان استطرفا رشدا
كن عند أخلاقك الزهر التي جعلت ... عليـــك موقوفة مقصـــورة أبدا
ما عذر « معتزلي » موسر منعت ... كفاه معتـــزليا مقتراً صـــــفدا
أيزعم القدر المحتـــوم ثبطـــه؟ ... ان قال ذاك فقد حل الذي عقدا
أم ليس مـــتأهلا جدواه صاحبه؟ ... أني: وما جار عن قصد ولا عندا
أم ليس يمكنه ما يرتضـــيه له ؟ ... يكفي أخا من أخ ميسور ماوجدا
لا عذر فيما يريني الرأي أعلمـــه ... للمرء مثـــلك ألا يأتي الســـددا

فواضح من كلامه هذا أنه « معتزلي » وأنه من أهل « العـــدل والتوحيد » وهو الاسم الذي تسمى به القدرية لأنهم ينسبون العدل

الى الله فلا يقولون بعقوبة العبد على ذنب قضى له وسيق اليه ، ولأنهم يوحدون الله فيقولون أن القرآن من خلقه وليس قديما مضاهيا له فى صفتى الوجود والقدم . وقد اختاروا لأنفسهم هذا الاسم ليردوا به على الذين سموهم « القدرية » ورووا فيهم الحديث « القدرية مجوس هذه الأمة » فهم يقولون : مانحن بالقدرية لأن الذين يعتقدون القـدر أولى بأن ينسبوا اليه . انما نحن من أهل العدل والتوحيد لأننا ننزه الله عن الظلم وعن الشريك .

وواضح كذلك من كلامه أنه يعتقد حرية الانسان فيما يأتى من خير وشر ويحتج على زميله بهذه الحجة فيقول له لم لا تثيبنى ؟ ان قلت أن القدر يمنعك فقـد حللت ما اعتقدت من اختيار الانسـان فى أفعاله .

وان قلت أنك لا تريد فقد ظلمت الصداقة وأخللت بالمروءة .

وله عدا هذا أبيات صريحة فى اعتقاد « الاختيار » وخلق الانسان لأفعاله كقوله :

لولا صروف الاختيـار لأعنقوا　　لهوى ، كما اتسقت جمال قطار

وقوله :

أنى تكون كذا وأنت مخـير　　متصرف فى النقض والامرار

وقـوله :

الخير مصـنوع بصـانعه　　فمتى صنعت الخير أعقبـكا
والشر مفعـول بفـاعله　　فمتى فعلت الشر أعطبـكا

الا أنه كان يقول بالقدر فى تقسيم الأرزاق وأن

الرزق آت بلا مطالبة　　سيان مدفوعه ومجتـذبه

ويقـول :

أما رأيت الفجاج واسعة　　والله حيا والرزق مضـمونا

ولا تناقض عند القدرية فى هذا لأنهم يقولون بالاختيار فيما يعاقب عليه الانسان ويثاب لا فيما يناله من الرزق وحظوظ الحياة . ومن العزاء لابن الرومى أن يكون الرزق مضمونا مقدرا لأنه أمان له من مخاوف الغد المجهول وراحة من القاء التبعة على نفسه فيما أصابه من الخذلان والتخلف .

أما القول بالطبيعتين فأوضح ما يكون فى قوله :

فينا وفيك طبيعة أرضية تهوى بنا أبدا لشر قرار
هبطت بآدم قبلنا وبزوجه من جنة الفردوس أفضل دار
فتعوضا الدنيا الدنية كاسمها من تلكم الجنات والانهار
بئست لعمر الله تلك طبيعة حرمت أبانا قرب أكرم جار
واستأسرت ضعفى بنيه بعده فهمو لها أسرى بغير اسار
لكنها مأسورة مقسورة مقهورة السلطان فى الأحرار
فجسومهم من أجلها تهوى بهم ونفوسهم تسمو سمو النار
لولا منازعة الجسوم نفوسهم نفذوا بسورتها من الأقطار(١)
أو قصروا فتناولوا بأكفهم قمر السماء وكل نجم سار

وكأن الفارسية هنا تسربت الى أقوال المعتزلة كما تسربت الى كثير من أفكار الثقافة العربية ؛ فان القول بالطبيعتين من أقدم ماعرف من ديانة الفرس قبل أديان بنى اسرائيل وقبل النصرانية والاسلام فلما جاء التوحيد الاسلامى أبطل التثنية ولم يبطل النزاع بين الخير والشر والنور والظلام فجاز للمسلم أن يؤمن بالطبيعتين على أن يؤمن بالوحدانيه ولا يشرك الشر فى تدبير الوجود .

والى هنا تكلمنا عن مذهبه ولم تتكلم عن « فطرته الدينية » أو عن قوة الايمان فى نفسه .

والفرق بين الأمرين لايحتاج الى شرح طويل فان الناس قد يختلفون فى المذهب أبعد اختلاف ويتفقون فى « الفطرة الدينية » أقرب اتفاق ، فربما رأيت ألف رجل يدينون بكل مذهب فى فجاج

---

(١) اقطار السموات والارض .

الأرض وهم على الرغم من ذلك أصحاب «فطرة دينية واحدة» مطبوعون على حماسة الدين أو مطبوعون على حب التقديس والعبادة ، يتفقون فى هذه الفطرة ، ويخرج كل منهم الى معبده فاذا واحد منهم ذاهب الى المسجد والثانى الى الكنيسة والثالث الى البيعة والرابع الى بيت الأصنام ، أو يتفقون على هذه الفطرة ، ويخرج كل منهم الى قتال الآخرين بتلك الغيرة القوية التى يقاتله بها أولئك الآخرون . فالفطرة الدينية توجد فى انصار كل مذهب وملة ، أما المذاهب والملل فلا نهاية لها فى التعدد والافتراق .

وابن الرومى كان مفطوراً على التدين لأنه كان مفطوراً على التهيب والاعتماد على نصير ، وهما منفذان خفيان من منافذ الايمان والتصديق بالعناية الكبرى فى هذا الوجود . ومن ثم كان مؤمنا بالله خوفاً من الشك مقبلا على التسليم بسيطا فى تسليمه بساطة من يهرب من القلق ويؤثر السكينة الى شىء من الأشياء ، وبلغ من بساطته أنه كان ينكر على الحكماء شكهم فى حفظ أجساد الأتقياء بعد الموت وحسبانه من فعل الدواء والحنوط . فقال لابن أبى ناظرة حين تذوق بعض الأجساد ليعلم ما فيها من عوامل البقاء .

يا ذائق الموتى ليعلم هل بقوا … بعد التقادم منهم بدواء
بينت عن رعة وصدق أمانة … لولا اتهامك خالق الأشياء
أحسبت أن الله ليس بقادر … أن يجعل الأموات كالأحياء
وظننت ما شاهدت من آياته … بلطيفة من حيلة الحكماء

ومات وهو يقول فى ساعته الأخيرة :

ألا أن لقاء الله … هو دونه الهول

وما كانت الطيرة عنده الا شعبة من ذلك « التهيب » الدينى الغريزى فيه . فهو يتفلسف ويرى الآراء فى الدين ولكن فى حدود من الشعور لا فى حدود من التفكير ، ولهذا كان الفنان ولم يكن الفيلسوف .

وليس من « الاجتراء » أنه قال بالاختيار ، ورأى له فى الدين رأياً غير ما اصطلح عليه السواد . فانه كان يحيل الذنب على الانسان وينفى الظلم عن القدر فى العقاب والثواب ويتصور الله على أحسن ما يتصور المتفلسف مثله الهه ، فكأنما جاءه هذا الرأى من محاباة عالم الغيب لا من الاجتراء عليه ، وانما دفع به الى رأى المعتزلة مخاوف الشكوك التى كانت تخامره فلا يستريح حتى يسكن فيها الى قرار وينتهى من التفكير فيها الى بر الأمان ، ولذلك كان يأوى الى الأصدقاء يكاشفهم بما فى صدره ويستعين بهم على تفريج غمته

ويدمج أسباب المودة بيننا مودتنا الأبرار من آل هاشم
واخلاصنا التوحيد لله وحده وتذبينا عن دينه فى المقاوم
بمعرفة لا يقرع الشك بابها ولا طعن ذى طعن عليها بهاجم
واعمالنا التفكير فى كل شبهة بها حجة تعيى دهاة التراجم
يبيت كلانا فى رضا الله ماحضا لحجته صدراً كثير الهماهم

بيد أن « الايمان » شيء وأداء الفرائض الدينية شيء آخر ، فقصارى الايمان عنده أنه يؤمنه بقرب آل البيت وتنزيهربه والاطمئنان الى عدله ورحمته ، ثم يدع له سبيله يلعب ويسرح كلما لذ له اللعب والمرح ، ولا أهلا بالصيام اذا قطع عليه ما اشتهى من لذة وأرب :

فلا أهلا بمانع كل خير وأهلا بالطعام وبالشراب

بل لاحرج عليه اذا قضى ليلة فى السرور أن يشبهها بليلة المعراج

رفعتنا السعود فيها الى الفو ز فكانت كليلة المعراج

ذلك أنه كان فى تقواه طوع الاحساس الحاضر كما كان فى كل حالة من حالاته . يلعب فلا يبالى أن يتماجن حيث لايليق مجون ، ويستحضر للتقوى والخشوع فلايباريه أحد من المتعبدين ، ويخيل اليك أنك تستمع الى متعبد عاش عمره فى الصوامع حين تستمع اليه يقول :

تتجافى جنوبهم عن وطء المضاجع

كلهم بين خائف ... مستجير وطامع
تركوا لذة الكرى ... للعيون الهواجع
ورعوا أنجم الدجى ... طالعا بعد طالع
لو تراهم اذا هم ... خطروا بالأصابع
واذا هم تأوهوا ... عند مر القوارع
واذا باشروا الثرى ... بالخدود الضوارع
واستهلت عيونهم ... فائضات المدامع
ودعوا : « يا مليكنا ... يا جميل الصنائع »
أعف عنا ذنوبنا ... للوجوه الخواشع
أعف عنا ذنوبنا ... للعيون الدوامع
أنت ان لم يكن لنا ... شافع ، خيرَ شافع »
فأجيبوا اجابة ... لم تقع فى المسامع
« ليس ما تصنعونه ... أوليائى بضائع »
« أبذلوا لى نفوسكم ... انها فى ودائع »

وله من طراز هذا الشعر الخاشع كثير لا تسمعه من ابن الفارض ولا محيى الدين .

هجاؤه

أخرج القرن الثالث للهجرة شاعرين هجائيين هما أشهر الهجائين فى أدب العصور الاسلامية عامة ، أحدهما ابن الرومى والآخر دعبل الخزاعى هاجى الخلفاء والأمراء وهاجى الناس جميعا والقائل :

انى لأفتح عينى حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً

وقد جمع المعرى بينهما فى بيت واحد وضرب بهما المثل لهجاء الدهر لبنيه فقال :

لو أنصف لدهر هجا أهله كأنه الرومى أو دعبل

وليس للمؤرخ الحديث أن يضيف اسماً جديداً الى هذين الاسمين، فان العصور التالية للقرن الثالث لم تخرج من يضارعهما فى قوة الهجاء والنفاذ فى هذه الصناعة ، وكلاهما مع هذا نوع فذ فى الهجاء يظهر متى قرن بالآخر فدعبل كما قلنا فى غير هذا الكتاب :

« كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة التى تخرج على « المجتمع » وتثور به ولاتزال فى حرب معه لا مسالمة فيها ولا مهادنة الى أن يواريها الموت فى ثراه ، وكان غاضباً أبداً على الناس ينكر عرفهم ويشذ على اجماعهم ويهجو أفرادهم بأسمائهم ، وهو انما يهجو الناس جميعا فى أشخاص أولئك الأفراد ... وكان يهيم على رأسه فى البلاد سنين عدة تنقطع فيها أخبارد وتخفى آثاره ثم يظهر حيث كان فجأة وقد أثرى وغنم ليبدد ما جمعه فى اللهو والقصف ، ثم ينقلب الى شأنه من الاباق والتطواف فى أرجاء الأرض ، وربما لقى الشراة وقطاع الطريق فى بعض رحلاته فيجالسهم ويؤاكلهم ويأمر غلاميه أن يغنيا لهم ويعرفهم ويعرفونه فلا يمسونه بأذى ولا يذكرهم بسوء ، لأنهم أبناء نحلة واحدة يؤلف شملهم النفور من الناس ويوفق بينهم الشذوذ عما تواضعوا عليه من الآداب والدساتير. فهو قاطع طريق بفطرته التى ولد عليها وان لم يحمل السيف ولم يخرج للفتك والغيلة ، بل لقد قيل انه قطع الطريق فى بعض أيامه فعلا «وانه

كان يكمن للناس بالليل فرصد يوما صيرفيا طمعا بما معه نفتك به ولم يجد فى كمه الا ثلاث رمانات فى خرقة فخرج هاربا من الكوفة لاشتداد الطلب عليه » وما كان هجوه لو بحثت فى أسبابه الا ضربا من قطع الطريق على الناس اشتهاء فى أكثر الأحيان للذة الصيد والقنص ونزوة المطاردة والتخويف ، لا طمعا فى المال أو طلبا للتراث ، فما اتفق الناس على امام الا هجاه وألح فى هجائه وان أحسن اليه وأجزل له العطاء ، ولا ترك أميرا ولا وزيرا ولا واليا الا ناله بلسانه عرضا أو قصدا ولو كان من أبناء قبيلته ومن خاصة المفضلين عليه » .

« ... أما ابن الرومى فلم يكن مطبوعا على النفرة من الناس ولم يكن قاطع طريق على « المجتمع » فى عالم الأدب ، ولكنه كان « فنانا » بارعا أوتى ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد وبراعة اللعب بالمعانى والاشكال ، فاذا قصد شخصا أو شيئا بهجاء صوب اليه « مصورته » الواعية فاذا ذلك الشخص أو ذلك الشىء صورة مهيأة فى الشعر تهجو نفسها بنفسها وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تطبع الأشكال فى المرايا المعقوفة والمحدبة ، فكل هجوه تصوير مستحضر لأشكاله أو لعب بالمعانى على حساب من يستثيره » .

هذا هو الفرق بين مذهبى هذين الشاعرين اللذين ظهرا فى قرن واحد وأخذا بطرفى الهجاء فى الآداب العربية .

ولك أن تقول من جهة أخرى أن الفرق بينهما كان فرقا بين المذهب البدوى والمذهب الحضرى فى الهجاء . فقد كان دعبل بدويا نافرا بفطرته وكان ابن الرومى حضريا أنيسا بفطرته ، فاذا تبرم ابن الرومى بالناس فانما يتبرم بهم تبرم من يألفهم ويأنس اليهم ويعانى مايعانى من عشرتهم ثم يسخط عليهم لأنه مقيد بهم لايستطيع الفكاك منهم . فسخطه أساسه المودة والألفة وليس أساسه القطيعة والنفرة ؛ كما كان السخط فى نفس صاحبه دعبل الخارج على الجماعة القاطع الطريق .

ولهذا الفرق أثره فى موضوع المثالب التى يلقيها كل منهما على

مهجويه فدعبل يسلب المهجو جميع الفضائل التى تعتز بها النفس الصارمة البدوية : يسلبه النخوة والكرم والبأس وطيب النحيزة . ويجعله رجلا يسمع البدوى صفاته فيقول أنه حقير مرذول .

وابن الرومي يسلب مهجوه الفطنة والكياسة والعلم ويلصق به كل عيوب الحضارة التى يجمعها التبذل والتهالك على اللذات ، فاذا حذفت من هجوه كل ما أوجبته الحضارة والخلاعة الفاشية فى تلك الحضارة فقد حذفت منه شر ما فيه ولم يبق منه الا ما هو من قبيل الفكاهة والتصوير .

والبدوى يخاف الذم والحضرى قلما يخافه .

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للشتم

كما قال ابن الرومي فى بعض مهجويه . فالأفحاش وليد الحضارة والغلو فى الأفحاش وليد التهتك فى الحضارة ، ومتى غلا الشاعر فى القذف بأدناس التبذل والخلاعة فهناك عيبان محققان أحدهما ، لاشك ، عيب البيئة التى أشاعت تلك الأدناس أو جعلت الذم بها ذما هينا على الأسماع فلا بد فيه للشاعر من المبالغة والاغراق .

والثانى تبحث عنه فى قائل الهجو ومدمنه ، فانه لولا عيب فيه لما اضطر الى الهجاء ولا أدمنه وأفرط فيه .

فما هو عيب ابن الرومي — أو ماهى عيوبه — التى أولعته بالهجاء والأفحاش وصيرته عنوانا لزمانه فى السفاهة والبذاء ؟ يبدو لنا أن عيبه الأول هو الشهوانية والتهالك على اللذات . فالشهوانية هى التى هونت عليه الاقذاع وسوغت له خوض الفضائح فأوغل فيها غير مستكره ولا متحرج . ثم أعانها الضعف وهو عيبه الغالب عليه الذى تبدأ منه وترجع اليه جميع عيوبه .

ففى هجائه صفة ذميمة يشمئز منها القارىء جداً فى كثير من الأحيان، ولكنها صفة الضعف والخفة وليست صفة الخبث والرداءة ، وقل فيه وفى هجائه ماشئت من لوم وتهجين وتأفف ولكنك متى قلت فيه كل

ماهو أهله وأقبلت ترد هجاءه الى بواعثه لم تجد ثمة شرا دخيلا ولم تخطىء قط أن تجد الحرج والاضطرار وتشعر بأن قائل هذا الهجاء رجل متألم يدفع الألم عن نفسه وليس برجل السوء الذى يعنيه أن يوقع الألم بغيره ويعتد ايلام الناس غرضا له مقصودا لذاته .

وهو مع اشتهاره بالهجاء أسلم عن غيره حالا فيه وأكثر عذرا من غير المشهورين به . أسلم من البحترى مثلا كما قال المرزبانى فى الموشح :

« وكثير من أهل الآداب ينكر خبث لسان على بن العباس الرومى ويطعن عليه بكثرة هجائه حتى جعلوه فى ذلك أوحد لا نظير له . ويضربون عن اضافة البحترى اليه والحاقه به مع احسان ابن الرومى فى اساءته وقصور البحترى عن مداه ، وانه لم يبلغه فى دقة معانيه وجودة ألفاظه وبدائع اختراعاته أعنى الهجاء خاصة لأن البحترى قد هجا نحوا من أربعين رئيسا ممن مدحه ، منهم خليفتان : وهما المنتصر والمستعين ، وساق بعدهما الوزراء ورؤساء القواد ومن جرى مجراهم من جلة الكتاب والعمال ووجوه القضاة والكبراء بعد أن مدحهم وأخذ جوائزهم ، وحاله فى ذلك تنبىء عن سوء العهد وخبث الطريقة . ومما قبح فيه أيضا وعدل عن طريق الشعراء المحمودة أنى وجدته قد نقل نحوا من عشرين قصيدة من مدائحه لجماعة توفر حظه منهم عليها الى مدح غيرهم وأمات أسماء من مدحه أولا ، مع سعة ذرعه بقول الشعر واقتداره على التوسع فيه .

« وقال أحمد بن أبى طاهر : ما رأيت أقل وفاء من البحترى ولا أسقط ، رأيته قائما ينشد أحمد بن الخصيب مدحا له فيه فحلف ليجلسن . ثم وصله واسترضى له المنتصر وكان غضبان عليه . ثم أوصل له مديحا اليه وأخذ له منه مالا فدفعه اليه ، ثم نكب المستعين أحمد ابن الخصيب بعد فعله هذا بشهور فلمهدى به قائما ينشده :

لابن الخصيب الويل كيف انبـــرى
بافـــــكه المـــردى وابطـــاله
يا ناصـــــــر الدين انتصر موشـــكا
من كائـــــد الدين ومغتـــــــاله
فهــو حـــلال الدم والمـــال ان
نظـــرت فى ظـــاهر أحـــواله

ثم قال ابن أبى طاهر : كان ابن العلجة فقيها يفتى الخلفاء فى قتل الناس . نرحمه الله . ثم ختم القصيدة بقوله .

« والرأى كل الرأى فى قتله بالسيف واستصفاء أمواله »

فالبحترى كان فى غنى عن هـــذا ومنـــدوحة واســـعة ، ولكنك قل أن تقــرأ لابن الرومى هجـــاء تقــول انه كان من الوجهة النفسية فى غنى عنــه .

على أن لصاحبنا فنا واحداً من الهجاء لاترتاب فى أنه كان يختاره ويكثر منه ولو لم تحمله الحـــاجة وتلجئه النقمة اليـــه ، ونعنى به فن التصـــوير الهـــزلى والعبث بالأشكال المضـــحكة والمناظر الفكاهية والمشـــابهات الدقيقة ، فهـــو مطبوع على هـــذا كما يطبع المصـــور على نقل ما يراه واعطاء التصوير حقـــه من الأتقان والاختراع ، وما نراه كان يقلع عنـــه فى شـــعره ولو بطلت ضروراته وحسنت مـــع الناس علاقاته ... لكن هذا الفن أدخل فى التصوير منه فى الهجـــاء، وهو حسنة وليس بسيئة وقـــدرة تطلب وليس بخلة تنبـــذ . وانت لايغضبك أن ترى ابنك الذى تهذبه وتهديه ماهراً فيه خبـــيراً بمغامزه وخوافيه ، وان كان يغضبك أن تراه يشتم المشـــتوم ويهين المهـــين ويهجـــو من يستهدف عرضه للهجـــاء لأنك اذا منعته أن يفطن الى الصور الهزلية وأن يفتن فى ادراك معـــانيها وتمثيل مشـــابهاتها منعت ملكة فيه أن تنمو وأبيت على حاسة صادقة فيه أن تصدقه وتفقه ماتقع عليه ، أما اذا منعت الهجاء وبواعثه فانك تمنع خلقاً يستغنى عنه وميلا لابد له من التقويم .

ذلك هو فن ابن الرومي الذى لاعذر له منه ولا موجب للاعتذار فأما ماعدا ذلك من هجائه فهو مسوق فيه لاسائق ومدافع لا مهاجم ومستثار عن عمد فى بعض الأحيان لا مستثير . وانك لتقرأ له قوله :

ما استب قط اثنان الا غلبا شرهما نفسا وأما وأبا

فلا تصدق أن قائله هو ابن الرومى هجاء اللغة العربية وقاذف المهجوين بكل نقيصة . لكن الواقع هو هذا ، والواقع كذلك أنه كان يسكن الى رشده أحيانا فيسأم الهجاء ويعافه ويود الخلاص منه حتى لو كان مهجواً معدوا عليه ، ويعتزم التوبة عن الهجاء مقسما .

آليت لا أهجو طوا ل الدهر الا من هجانى
لا بل سأطرح الهجا ء وان رمانى من رمانى
أمن الخلائق كلهم فليأخذوا منى أمانى
حلمى أعز على من غضبى اذا غضبى عرانى
أولى بجهلى بعدما مكنت حلمى من عنانى

وهذا أشبه بابن الرومى لأنه فى صميمه خلق مسالما سهلا ولم يخلق شريراً مطويا على الشكس والعداوة . بل هو لو كان شريراً لما اضطر الى كل هذا الهجاء ، أو هو لو كان أكثر شراً لكان أقل هجاء ، لأنه كان يأمن جانب العدوان فلا يقابله بمثله . وما كان الهجاء عنده كما قلنا الا سلاح دفاع لاسلاح هجوم : وما كان هجاؤه يشف عن الكيد والنكاية وما شابههما من ضروب الشر المستقر فى الغريزة كما كان يشف عن الحرج والتبرم والشعور بالظلم الذى لاطاقة له باحتماله ولا باتقائه. وكثير من الأشرار الذين يقتلون ويعيشون فى الأرض يقضون الحياة دون أن تسمع منهم كلمة ذم فى انسان ، وكثير من الناس يذمون ويتسخطون وهم مطبوعون على الخير والعطف وحسن المودة ، بل هم قد يذمون ويتسخطون لأنهم على ذلك مطبوعون .

ومن قرأ مراثى ابن الرومى فى أولاده وأمه وأخيه وزوجته وخالته وبعض أصدقائه علم منها أنها مراثى رجل مفطور على الحنان ورعاية

الرحم والأنس بالأصدقاء والاخوان . فمراثيه هي التي تدل عليه حق الدلالة المنصفة وليست مدائحه التي كان يمليها الطمع والرغبة أو أهاجيه التي كان يمليها الغيظ وقلة الصبر على خلائق الناس . ففي هذه المراثي تظهر لنا طبيعة الرجل لاتشوبها المطامع والضرورات ، ونرى فيه الولد البار والأخ الشفيق والوالد الرحيم والزوج الودود والقريب الرءوم والصديق المحزون . ولا يكون الرجل كذلك ثم يكون مع ذلك شريراً مغلق الفؤاد مطبوعاً على الكيد والايذاء .

واذا اختلف القولان بينه وبين أبناء عصره فأحجى بنا أن نصدق كلامه هو في أبناء عصره قبل أن نصدق كلامهم فيه ، لأنهم كانوا يستبيحون ايذاءه ويستسهلون الكذب عليه لغرابة أطواره وتعود الناس أن يصدقوا كل ما يرمى به غريب الأطوار من التهم والأعاجيب ، في حين أنه كان يتحامى تلك التهم ويغفر الاساءة بعد الاساءة مخافة من كثرة الشكاية وعلماً منه بقلة الانصاف :

أتاني مقال من أخ فاغتفرته ... وان كان فيما دونه وجه معتب
وذكرت نفسي منه عند امتعاضها ... محاسن تعفو الذنب عن كل مذنب
ومثلي رأى الحسنى بعين جلية ... وأغضى عن العوراء غير مؤنب
فيا هارباً من سخطنا متنصلا ... هربت الى أنجى مفر ومهرب
فعذرك مبسوط لدينا مقدم ... وودك مقبول بأهل ومرحب
ولو بلغتني عنك اذني أقمتها ... لدى مقام الكاشح المتكذب
ولست بتقليب اللسان مصارما ... خليلي ، اذا ما القلب لم يتقلب

فالرجل لم يكن شريراً ولا رديء النفس ولا سريعاً الى النقمة ، فلماذا اذن كثر هجاؤه واشتد وقوعه في أعراض مهجويه ؟ نظن أنه كان كذلك لأنه كان قليل الحيلة طيب السريرة خالياً من الكيد والمراوغة والدسيسة وما شابه هذه الخلائق من أدوات العيش في مثل عصره . فكان مستغرقا في فنه يحسب أن الشعر والعلم والثقافة وحدها كفيلة بنجاحه وارتقائه الى مراتب الوزارة والرئاسة ، لأنه كان في زمن يتولى فيه الوزارة الأدباء والكتاب والرواة ويجمعون في مناصبهم ألوف

الألوف ويحظون بالزلفى عند الأمراء والخلفاء ، وقد كان هو شاعراً كاتباً وكان خطيباً واسع الرواية مشاركا فى المنطق والفلك واللغة وكل ما تدور عليه ثقافة زمانه ، أو كما قال المسعودي كان الشعر أقل أدواته .. وكان الشعر وحده كافياً لجمع المال وبلوغ الآمال ، فمـاذا بعـد أن يعرف النـاس أنه شاعر وأنه كاتب وأنه راوية مطلع على الفلسـفة والنجوم الا أن تجيئه الوزارة ساعية اليـه تخطب وده كما جاءت الى أناس كثيرين لايعلمون علمه ولا يبلغون فى البـلاغة مكانه ؟! ألم يصل ابن الزيات الى الوزارة بكلمة واحدة فسرها للمعتصم وفصل له تفسيرها وهي كلمة « الكلا » التى يعرفها عامة الأدباء ؟ بلى ! وابن الرومى كان يعرف من غريب اللغة مالم يكن يعرفه شعراء عصره ولا أدباؤه . فما أولاه اذن بالوزارة وما أظلم الدنيا ان هي ضنت عليـه بحقـه من المناصب والثراء !!

فاذا لم تكن الوزارة فهل أقل من الكتابة أو العمالة لبعض الوزراء والكتاب المبرزين ؟ فاذا لم يكن هذا ولا ذاك فهل غبن أصعب عـلى النفس من هذا الغبن ؟ وهل تقصير من الزمان الأم من هذا التقصير؟

ونبوءة أبيه ورجاؤه فى مستقبله وقوله له «أنت للشرف» أيذهب هذا كله هباء لاتقبض منه اليدين على شيء ؟ تلك النبوءات التى تنطبع على أفئدة الصغار بشل النار ولا تزال غرارة الطفولة وأحلام الصبا تزخرفها وتوشيها وتعمق فى الضمير أغوارها أيأتي الشباب وهي محو لغو مطموس لايبين أو لايبين منه الا ما ينقلب الى الاضداد وترجمه الأيام بالسقم والفقر والكساد ؟ وكيف يمحى الا وقد محي القلب الذى طبعت فيه ؟ وكيف ينعكس معناه الا وقد انعكس فى القلب كل قائم والتوى فيه كل قويم ؟ ذلك صعب على النفوس وليس بالسهل الا على من يلهو به وهو بعيـد .

وهكذا كان ابن الرومي يسأل نفسه مرة بعد مرة ويوما بعد يوم:

مالى أسل من القراب وأغمـد ... لم لا أجـرد والسيوف تجـرد
لم لا أجرب في الضرائب مرة ؟ ... يا للرجـال ! وانني لمهند .. !

ولا يدرى كيف يجيب نفسه على سؤاله ، لأنه لم يكن يدرى أن فضائله كلها لا تساوى فتيلا بغير الحيلة والعلم بأساليب الدخول بين الناس وأن الحيلة وحدها قد تغنى عن فضائله جميعا ولو كان صاحبها لاينظم شعراً ولا ينظر فى كتب الفلسفة والرواية والنجوم . .

حسن ! اذن ندع الوزارة والولاية والعمالة بعد يأس مضيض يسهل علينا هنا أن نسطره فى كلمة عابرة ولكنه لايسهل على من يعالجه ويشقى بمحنته فى كل ساعة من ساعات حياته ، ندع الوزارة والولاية والعمالة ونقنع بالمثوبة من الوزراء والولاة والعمال ان كانوا يثيبون المادحين . فهل تراهم يفعلون ؟

لا ! لأن الحيلة لازمة فى استدرار الجوائز والمثوبات لزومها فى كل غرض من أغراض المعاش ، ولاسيما فى ذلك الزمان الذى شاعت فيه الفتن والسعايات ، وما كانت تنقضى منه سنة واحدة بغير مكيدة خبيثة تودى بحياة خليفة أو أمير أو وزير . وربما كانت مصانعة الحجاب والتماس مواقع الهوى من نفوس الحاشية والندمان واللعب بمغامز النفوس الخفية واضحاك هؤلاء وهؤلاء أجدى على الشاعر فى هذا الباب من بلاغة شعره وغزارة علمه ، وربما كان الوزير لا يثيب الشاعر الا ليستصلحه كما كانوا يقولون فى لغة ذلك الزمان ، أى ليتخذه نصيراً له عسى أن ينفعه يوماً فى مجالس الخلفاء والأمراء بكلمة يقضى بها مأربا أو يكبت عدوا أو بحيلة يقرب بها بعيداً أو يبعد قريبا، وأين يذهب ابن الرومى فى هذا المجال؟ وماذا يرجو الممدوحون من تقريبه وهو رجل كما كانوا يقولون ممرور موسوس أدبه أكبر من عقله ولسانه أطول من صبره ؟ لقد كان صاحبنا صفراً من هذه البضاعة . فلاجرم نراه يشكو تكبر الحجاب ودسائس الندماء والأصحاب ويعطى القليل حين يجزل عطاء الآخرين أو يثاب مرة ويحرم مرات ، فقد بلغ من وكس حاله فى هذا أنه كان يستجدى

الكساء فيمطلونه ويعود الى الاستجداء فيعودون الى المطل حتى يقول:

جعلت فداك لم أسأ لك ذاك الثواب للكفن
سألتكه لألبسه وروحى بعد فى البدن

وبلغ من وكس حاله أن الممدوحين كانوا يقبلون شعره ولا يثيبونه فاذا ألح فى طلب المثوبة قالوا خذ شعرك فامدح به غيرنا كما فعل ابن المدبر حين قال فيه :

رددت على مدحى بعد مطل وقد دنست ملبسه الجديدا
وقلت امدح به من شئت غيرى ! ومن ذا يقبل المدح الرديدا؟
ولا سيما وقد أعبقت فيه مخازيك اللواتى لن تبيدا
وما للحى فى أكفان ميت لبوس بعدما ملئت صديدا!

وكان يصنع القصيدة ويتبعها خمس قصائد أوستا ليحصل على جائزتها فلا يحصل بعد الجهد على شيء ، ويعجب لذلك ويأخذه الشك فى شعره فيقول :

عجبت لقوم يقبلون مدائحى وينسون تثويبى، وفى ذاك معجب
أشعرى سفساف ؟ فلم يجتبونه؟ وان لاتكن هذى فلم لا أثوب

ولعله كان يتهم شعره أحيانا فيقول :

الشعر كالعيش فيه مع الشبيبة شيب
فليصفح الناس عنه فطعنهم فيه غيب

أو يعتذر بالفاقة من السخف :

لا تلحنى فى المنطق السخيف فاننى فى حالة اللهيف
وأحوج الناس الى رغيف

أو يقول :

قولا لمن عاب شعر مادحه أما ترى كيف ركب الشجر ؟
ركب فيه اللحاء والخشب اليا بس والشوك بينه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخـ لق رب الأرباب لا البشر

ثم يعود اليه اعتداده بكلامه فيلقي الذنب على الناس لجهلهم بمعاني الـــكلام .

ما خمــدت ناري ولكنهـــــا ألفت قلوبنـــا نارها خـــامدة

أو يقـــــول :

ما بلغت بي الخطـــوب رتبة من تفهم عنـــه الـــكلاب والقرده
وما أنا المنطق البهائم والطـــ ير ســـليمان قاهر المـــرده

أو يقول انهم بهائم لايفهمون الا البهائم :

بحقهم ان باعـــدوني وقربوا سواى وتقريب المباعد أوجب
خفافيش أعشاها نهار بضوئه ولازمها قطع من الليل غيهب
بهائم لاتصغى الى شدو معبد وأما على جافى الغناء فتطرب

ويخطر له حيناً أن الأمراء يحســـدون شعره لأنهم يقرضون الشعر فينفسون الجيد منـــه على الشعراء ، ولا يبعد أن يكون ذلك صحيحاً كما قـــال :

قد بلينـــا في دهرنا بمـــلوك أدباء علمـــتهم شـــــعراء
ان أجدنا في مدحهم حسدونا فحرمنا منهم ثواب الثنــــاء
أو أسأنا في مدحهم أنبـــونا وهجوا شـــعرنا أشـــد هجاء
قد أقاموا نفوسهم لذوى المد ح مقـــام الأنداد والنظـــراء

وكان من هؤلاء محمد بن عبد الله الذي قال فيه :

اخالك اذ جودت فيـــه مدائحي منعت ثوابي حاسداً لي على شعرى
أتحســـدني تجويد ربط نســـجته لتلبســـه ؟ يا للعجب من الأمر ؟
تذكر هـــــداك الله أني مـــادح وأنك ممدوح فلا تعد بي قدرى
ينافس في الشعر النظير نظـــيره وجل ملوك الناس عن ذلك النجر

فاذا لج به الغيظ واشتد عليه بلاء الحرمان من العمل والحرمان من المثوبة صرخ متعجبـــا :

أذو آلة ؟ فاستخدمونى لآلتى ... بقوتى ، والا فارزقونى مع الزمنى

أى ارزقونى مع العجزة والسقماء ، وهذه نهاية البؤس والخيبة ونهاية الحيرة التى لايهتدى فيها المسكين الى سبب مريح ، فلم يبق له من عزاء الا أن يوقن أن الدنيا هكذا طبعت على ظلم العارفين ومحاباة الأغبياء .

رأيت الدهر يرفع كل وغد ... ويخفض كل ذى زنة شريفة
كذلك البحر يرسب فيه در ... ولا تنفك تطفو فيه جيفة

وكرر هذا المعنى فى معارض شتى على قوافى مختلفة ، لأنه سكن اليه ووجد فيه عزاءه ولو الى حين .

وينبغى أن نذكر هنا شيئا لابد من ذكره فى هذا المقام لأنه لازم لادراك حقيقة الغضب الذى كان يستولى على نفس الشاعر المحروم اذا أجاد المديح ولم يظفر بالعطاء ، فقد كان حق الشاعر فى العطاء معترفا به يقبله الأمراء والوزراء ويقره العرف وتجرى عليه القدوة . فنحن لانعرف اليوم ذلك الحق للشاعر ولا نستطيع لهذا أن ندرك غضبه وأسفه اذا حرم وتوالى عليه الحرمان ؛ أما فى عهد ابن الرومى فغضبه من المنع وأسفه على فوات الربح من هذه المقاصد أمر لاغرابة فيه ولا اعتراض عليه ، فالحكم عليه انما يكون بمقياس أيامه لا بمقياس أيامنا التى لايجب فيها البذل على ممدوح ولا يجوز فيها الهجاء لشاعر محروم .

ومما ضاعف الاستخفاف بابن الرومى أنه كان متطيرا غريب الأطوار ، لا يأخذه الناس مأخذ الجد ولا يزال المعربدون منهم يتمدونه بالعبث ويتماجنون عليه لشدة فرقه وانزعاجه من الفأل السيىء .

يضحك من كل ما بكيت له ... كأن لذاته بآلامى

وكان بعضهم يصبحه بقرع بابه ، فاذا سأله من الطارق ؟ قال مرة ابن حنظلة ! فيمكث فى بيته لايريم عنه سحابة يومه ! وكانوا يسوقون

اليه رجلا أحدب كريه الرؤية يقابله بوجهه اذا خرج من منزله فيرتد على عقبه ! وكانوا يجورون عليه بالعبث فيتوعد فلا يحفلون فيهجو ولكن بعد مصابرة واعتاب . وكم قال لابن عروس :

يا ليت شعري وليت شعرك ان قلت وقلنا واستحكم القذع
ما ينفع الصارم اللسان اذا غودر يوما ، برأسه قطع
فارجع وبقيا أخيك باقية واندم وفي الحلم فسحة تسع

أو كما قال لبني السمري :

يا بني السمري لا تجشموني أن تثير القصيد كل دفين
قد تجاوزت ماتجاوزت عنكم وتغاضت على قذاكم جفوني
لا يغرنكم بجهلي حلمي وارعوائي الى حيائي وديني
ان لين المهز في السيف أمضى بغراريه في صميم الشئون

أو كما قال لغيرهم ولغيرهم من العابثين والماطلين الذين كانوا يضحكون مما يبكيه ويتفكهون بما يحز في قلبه ويدميه . فماذا أفاده العتاب وماذا دفعت عنه الشكاية ! لاشيء ! لأن الأعراض هانت على أصحابها في ذلك العصر فلا يبالون المذمة الا أن يكون فيها معنى الاجتراء على الجاه والقوة ، وهم أحرى ألا يبالوها من شاعر كابن الرومي ليس أسهل عليهم من أن يقولوا عنه انه هذيان ممرور ، فيضيق ذرعا بهم ويهجو كالمدفوع الى غير مايحب ، ويظهر ذلك منه في بعض القصائد كما يظهر من قوله :

لايغضب لعمرو من له خطر فليس يرضى بظلمي من له خطر

كأن يقول : لقد صبرت على عمرو فرضي الناس بظلمه اياي فاذا هجوته أنا الآن فما يحق لذي خطر أن يغضب له وهو منصف بيني وبينه .

وقد يعترف بالوسواس على نفسه ولكنه يرده الى سوء حظه واجحاف الأيام به كما قال حين رماه الناشيء بالوسواس .

أن أوسوس فحقيــق ، يسعد القرد وأنحس !
أصبح الناشيء ممــن يتغنى وهــو أخــرس
نافقــا عنـــد أناس تعسوا والدهر أتعس
ته على الدنيا وقل مــا شئت واظلم وتغطرس
لم يقدس منــك شيء ولك الجـد المقــدس
كيف لا يشــتد وسوا سي وأشــعارك تدرس
وضياء الشمس لايقبـ ـس والظلمــاء تقبس

***

فاذا عبث به العابثون وتحدثوا بنحسه لم يسره ذاك وحق له ألا يسر به وقال مناجزاً :

زعمت بــأنني نحس وأني مجيبك معلنــا لا أتقيكا

وانطلق يصخب ويثلب وهو فى رأيه معذور فى ذلك الجرم الذى جنوه عليه قبل أن يجنيه عليهم ، ومعذور حتى من الحسد الذى كان لايداريه ولا ينكره ولكن يقول فى التماس المعذرة له .

لاتلومن حاسداً ، ألم النفـ ـس من النحس ياأخى شديد

وزد على ذلك فجائعه فى بنيه وأحبابه واحداً بعد واحد وهو أحوج ما يكون الى معونتهم وعطفهم بين قوم كأنه غريب فيهم لا يفهمهم ولا يفهمونه ، وزد عليه طمع الناس فيه حتى كانت تسلبه ملكه الزهيدامرأة كما جاء فى بعض شعره ويغصبه منزله الذى يسكنه تاجر يستهين به وبما عسى أن يصــنع .

وراغمنى فيمــا أتى من ظلامتى وقال لى أجهدفى جهد احتيالكا
فما هو الا نسجك الشعر سادرا وما الشعر الا ضلة من ضــلالكا

***

لهذا وأمثاله كثرت أهاجى ابن الرومى واشتد اقذاعه وكان الذين يمدحهم بالأمس هم الذين يثلبهم بعد ذاك ، يكاد لايفصل المدح عن القدح فاصل أو يكاد يكون المدح والقدح متواليين فى صفحات الديوان،

لأن الديوان مرتب على حسب الحروف لا على حسب التواريخ والموضوعات ولو أننا نصبنا ميزان العدل لكان ابن الرومي ملوماً على المدح أضعاف لومه على الهجاء . فقد كان يكذب حين يمدح ويتوسل ولم يكن يكذب حين يهجو وينتقم ، وراجع ترجمة المهجوين في قصائدهم تجدهم كلهم أو أكثرهم لصوصا لاينقضي على أحدهم في المنصب أشهر أو سنوات حتى يعمر بيته بالمنهوب المسلوب من أرزاق الرعية الضعفاء ، ثم لا تنقضي فترة أخرى حتى يسلط عليه لصوص أكبر منه فينكبونه ويستصفون أمواله كأنهم تغافلوا عنه ريثما يجمع لهم تلك الأموال ، وان في كتب التاريخ لسوءات لهم غير هذه وآثاما جساما لايقال فيها أنها تخرص شاعر مغبون أو افتراء خصم متهم بالأقاويل ؛ فان كان الصدق عذراً للثالب الصادق فعذر ابن الرومي في التشهير والتجريح أوجه من عذره في الاطراء والمديح .

وقد اشتهر بالهجاء وأصبح له سلاحا لازما وقدرة معروفة بين شعراء عصره فراح يلوح به كما يلوح المهدد بسلاحه ويعجب به كما يعجب الفنان بعمله . ولو عوفي في نفسه ورزقه لما بقي له من الهجاء الا ناحيته هذه الفنية وألاعيبه الصبيانية . فانه على كل حال لم يحتقب قط من أدواته النية الخبيثة والطبع الشرير ، أو هو على حد قوله :

لو أروض الشيطان اذعن كالكـ	ـلب ، أو العود عضه الكلوب[1]
ولما ذاك أنني الرجل الشر	ير مني الخنا ومني الوثوب
بل لدى الانصاف يشفعه الاحـ	ـسان ما قارب الألد الشغوب

ونعود فنقول : لو كان الرجل أكثر شراً لكان الناس أكثر اتقاء له واجتنابا لكيده ، فقلت دواعيه الى سوء المقال وأعفى أعراضهم وأعفى لسانه فأراح واستراح .

---

(١) العود الجمل المسن والكلوب المهماز

هو وشعراء عصره

عاصر ابن الرومي في بيئته كثيراً من الشعراء أشهرهم في عالم الشعر الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعي والبحتري وعلي بن الجهم وابن المعتز وأبو عثمان الناجم .

وليس لهؤلاء ولا لغيرهم ممن عاصروه وعرفوه — أو لم يعرفوه — أثر يذكر في تكوينه غير اثنين فيما نظن ، هما الحسين بن الضحاك ودعبل الخزاعي .

فقد كان ابن الرومي معجباً بالحسين يروي شعره ويستملح أخباره ويذكرها لأصحابه ، وكان ابن الرومي يافعا يحضر مجالس الأدب ويتلقى دروسه والحسين في أوج شهرته يتناشد أشعاره أدباء الكوفة وبغداد ومدن العراق . حدث محمد بن الفضل الأهوازي قال : « سمعت علي ابن العباس الرومي يقول : حسين بن الضحاك أغزل الناس وأظرفهم، فقلت حين يقول ماذا ؟ فقال حين يقول :

يا مستعير سوالف الخشف ... اسمع لحلفة صادق الحلف
ان لم أصح ويلي ويا حربي ... من وجنتيك وفترة الطرف
فجحدت ربي فضل نعمته ... وعبدته أبدا على حرف

هكذا جاء في كتاب الأغاني — وجاء فيه أيضا عن ابن الرومي أنه قال :

أنشدنا أبو العباس ثعلب قال أنشدني حماد بن المبارك صاحب حسين بن الضحاك قال أنشدني حسين لنفسه :

لا وحبيك لا أصا ... فح بالدمع مدمعا
من بكى شجوه استرا ... ح وان كان موجعا
كبدي من هواك أسـ ... ـم من أن تقطعا
لم تدع سورة الضنى ... في للسقم موضعا

قال ابن الرومي . ثم قال لنا ثعلب : مابقي من يحسن أن يقول مثل هذا »

وروى عنه كتاب الأغانى روايات أخرى من هذا القبيل تدل كلهـا على الاعجاب والاستملاح ، ومثل ابن الرومى يعجب بشعر الحسين الأنيق الظريف المطبوع ولكنه لايمتزج بطريقته ولا يتزيى بزيه ، لأن طريقة الأناقة والصقل غير طريقة الامعان والنفـاذ التى طبع عليها ابن الرومى . فأنت تلمح أثر هذا الاعجاب فى أبيات من شعر ابن الرومى كقـوله :

يا وجنتيه اللتين من وهـج ... فى صـدغيه اللذين من دعج

فتعلم أنه نظم هـذا البيت وهو يذكر صيحة ابن الضـحاك من « وجنتى صاحبه وفترة طرفه » .

أو كقــوله :

عينى شـحا ولا تسـحا ... جل مصـابى عن البـكاء
تركـكما الداء مسـتكنا ... أصـدق عن صـحة الوفاء

فتعلم أنه نظمه وهو يذكر الأبيات التي روى فى أولها لابن الضحاك:

لا وحبيك لا أصـا ... فح بالدمـع مدمعـا
من بكى شـجوه اسـترا ... ح وان كـان موجعـا

وابن الضحاك يقـول :

كأنما نصب كأسه قمـر ... يكرع فى بعض أنجم الفلك

وابن الرومى يقــول :

فكأنها وكأن شـاربها ... قمر يقبـل عارض الشمس

فهو كان معجبا بظرائف ابن الضحاك ملتفتا اليها ولكنه لم يخرج عن طريقته التى طبع عليها ولم يزد فى اعجـابه على أن يقتبس منـه بعض الخطرات الرشيقة ، وهـو شىء غـير اقتباس الطريقة والتشابه فى السليقة .

وقد مات الحسين بن الضحاك وابن الرومى فى التاسعة والعشرين،

ولم نر فى تاريخه ولا فى تاريخ الحسين ما يشير الى تلاقيهما فى بغداد حيث عاش ابن الرومى معظم حياته ، أو فى غير بغداد حيث كان يرحل ابن الضحاك .

أما دعبل فابن الرومى عارضه فى موضعين ، أحدهما القصيدة الطائية التى نظمها دعبل حين اتهم « خالدا » بسرقة ديكه واطعامه لضيوفه وقال فى مطلعها :

أسر المؤذن خالد وضيوفه أسر الكمى هفا خلال الماقط
بعثوا اليه بنيهم وبناتهم ما بين ناتفة وآخر سامط
يتنازعون كأنهم قد أوثقوا خاقان أو هزموا كتائب ناعط
أكلوه فانتزعت به أسنانهم وتهشمت أقفاؤهم بالحائط

فزاد ابن الرومى فيها وأطالها وبلغ بها نيفا وستين بيتا وغير بعض ألفاظها فمما قال فى معارضته وتمثل فيه كل مزاجه وملاحظاته :

طبخوه ثم أتوا به قد أبرمت أوتاره لمترادف ومرابط
متجسلا لدجاجه متجلدا كتجلد المجلود بين ربائط
ولقد رمته يوم ذلك قدرهم بغطائط من غليه وغطامط
حملوا عليه كل ماء عندهم وفرات كوفتهم ودجلة واسط
واها لذاك الديك بين مساقط منه عهدناها وبين ملاقط
قوام أسحار مؤذن حارة «وصال» زوجات كمى مآقط
ينفى مناعسه بنفس شهمة ويشاهد الهيجا بجأش رابط

والموضع الآخر الذى عارض فيه دعبلا أبيات ثائية قال دعبل فى مطلعها :

أتيت ابن عمرو فصادفته مريض الخلائق ملتاثها

فعارضها ابن الرومى وزاد عليها من أبيات :

قواف أبى الوغد ابرزها فأخرجت للوغد أخباثها

أوابد قـد أخنست قبـله كهـول الرجال وأحـداثها

. . . .

ولا جـرم لي ان أساءت جنا ٭ مزرعـة كان حـراثها

ونشأ ابن الرومي ودعبل كذلك شاعر واسع الشهرة جذاب السيرة لغرابة أخلاقه ومخاطرته وتطويفه في الآفاق ، مستحسن الشعر بين من يؤثرون الفحولة اللغوية ، مفضل على المحدثين من طبقته كما قال البحتري وكان يتعصب له « دعبل » بن علي أشعر عندي من مسلم بن الوليد ، لأن كلام دعبل أدخل في كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم » . وكان دعبل فيما عدا ذلك متشيعا لآل علي غاليا في تشيعه فجذب ذلك كله نفس ابن الرومي الفتى نحوه وحبب اليه محاكاته ومجاراته ، وربما كانت الرغبة في مجاراته احدى دواعيه الى الهجـاء .

ومات دعبل وابن الرومي في الخامسة والعشرين ولا نعلم أنهما تعارفا أو كان بينهما لقـاء .

هـذان هما الشـاعران اللذان عاصرا ابن الرومي وكان لهما أثر يذكر في تكوينه . أما الآخرون فالثابت أنه كان على معرفة وصحبة مع اثنين منهما وهما البحتري وأبو عثمان الناجم وعرف البحتري في بيت الناجم ، وكان هذا صديقا له بقي على صداقته الى يوم وفاته ، وراوية يحفظ شعره وأخباره ويجري على طريقته في بعض تشبيهاته — فسأله البحتري أن يعرفه الى ابن الرومي ففعل وجرت بين الشاعرين صحبة غير طويلة ولا وثيقة ، لأن البحتري كان يدل على ابن الرومي بمكانه من الخلفاء والأمراء ، وكان ابن الرومي لايطيق الصبر على ذلك فهجاه وعاب شعره واتهمه بالسرقة ، فمن قوله فيه :

قبحـا لأشـياء يأتي البحتـري بهـا

من شـعره الغث بعـد الـكد والتعب

كأنها حين يصغي السامعون لها
من يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب أو هذر البناة اذا
أضحوا على شعف الجدران فى صخب
وقد يجيء بخلط فالنحاس له
وللأوائل ما فيه من الذهب

***

عبد يغير على الموتى فيسلبهم
حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما أن يزال تراه لابساً حللا
أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب

ثم عاد يذكره أيام رضاه ومودته والفرق بين مسالمته وحربه ويقول له بعد اقذاع كثير :

يا بحترى لقد أقبلت منقلبا
يوم اكتسبت هجائى شر منقلب

***

قد كنت تعرف منى فى الرضى رجلا
حلو المذاقة ، فاعرفنى لدى الغضب
تعرف فتى فيه طوراً مجتنى سلع
للمجتنين وطوراً مجتنى رطب

ونظن أن المنافسة بينهما لم تكن وحدها سبب هذا الهجاء ، وانما آنس ابن الرومى اغراء من العلاء بن صاعد بالبحترى ، لأنه خاطبه فى هذه القصيدة بما يظهر منه أن العلاء كان يستضعف هجاء الشعراء للبحترى ويبحث عمن يشتد عليه ويفحمه كما يؤخذ من هذا البيت :

أراك لم ترض ما أهدى له نفر   من شتم ام لئيم خيمها وأب

فأرضى ابن الرومي نفسه وأرضى العلاء بهجائه ، وكان ردالبحتري عليه ما علم القراء من اهدائه تخت المتاع وكيس الدراهم وابلاغه «أن الهدية ليست تقية منه ولكن رقة عليه لأنه لم يحمله على ما فعل الا الفقر والحسد المفرط» .

عرف ابن الرومي البحتري وابن الرومي شاعر مشهور بالافتنان في المعاني والقدرة على الهجاء وكان البحتري يحب مجاراته في بعض قصائده . فقال له في أول لقاء بينهما أنه عزم على أن يعمل قصيدة على وزن قصيدته الطائية في الهجاء فنهاه ابن الرومي عن ذلك لأنه ليس من عمله . فاذا كان بينهما اقتباس أو معارضة فالبحتري هو المقتبس وهو الراغب في المعارضة . على أننا لا نخاله استعار من ابن الرومي شيئاً يزيده في مذهبه الذي نبغ فيه لأنهما نمطان متباينان ، ولكل منهما اعتداد بنفسه يكفيه ويغنيه .

أما على بن الجهم (المتوفى سنة ٢٤٩ هـ) ، فقد كان بينه وبين ابن الرومي برزخ واسع من اختلاف المذهب في الدين والشعر . فابن الرومي متشيع وابن الجهم ناصب يذم عليا وآله « ولا يلتقي الشيعي والناصب » كما يقول ابن الرومي ... وكان ابن الجهم شديد النقمة على المعتزلة وعلى « أهل العدل والتوحيد » منهم خاصة يهجوهم ويدس لهم ويقول في زعيمهم أحمد بن أبي دؤاد :

ما هذه البدع التي سميتها   بالجهل منك العدل والتوحيدا

وابن الرومي كما مر بك من هذه الجماعة . فمذهبه في الدين ينفره من ابن الجهم ولا يرغبه في مجاراته ، ولو تشابها فيما عدا ذلك من المزاج والنزعة لقد يهون هذا الفارق ويسهل على ابن الرومي الاغضاء عنه وهو ناشيء يتلمس القدرة ويخطو في سبيل الشهرة . ولكنك تقرأ شعر ابن الجهم في فخره ومزاحه ، فيخيل اليك أنك تقرأ كلام جندي يتنفج أو يعربد . لخلوه من كل عاطفة غير عواطف الجندالذين

يقضون أوقاتهم بين الفخر والضجيج واللهو والسكر ، وليس بين هذه الطبيعة وطبيعة ابن الرومي مسرب للقــدوة أو للمقـاربة في الميـل والاحساس ، ولا كان في شعر ابن الجهم شيء يشعر مثل ابن الرومي أنه يقتدى به ويحتاج الى مجاراته ، فيميل به هذا الشعور الى الاعجاب بالشاعر الذي أبعده عنـه المذهب والمزاج .

***

وقد ولد ابن المعتز في سنة سبع وأربعين ومائتين ، فلما ايفع وبلغ السن التي يقول فيها الشعر كان ابن الرومي قد جاوز الأربعين أو ضرب في حدود الخمسين ، ولما نبغ واشتهر له كلام يروى في مجالس الأدباء كان ابن الرومي قد أوفى على الستين وفـرغ من التعـلم والاقتباس . ولو انعكس الأمر وكان ابن المعتز هو السابق في الميلاد لما أخذ منه ابن الرومي شيئا أو لكان أفسد سليقته بالأخذ عنه ، لأن ابن المعتز انما امتاز بين شعراء بغداد في عصره بمزاياه الثلاث ، وهي البديع والتوشيح والتشبيه بالتحف والنفائس ، وابن الرومي لم يرزق نصيباً معدوداً من هذه المزايا ولم يكن قط من أصحاب البديع وأصحاب التوشيح أو أصحاب التشـبيهات التي تدور على الزخـرف وتستفيد نفاستها من نفاسة المشبهات .

ويجوز أن الشاعرين لم يتعارفا ولم يتلاقيا في مجلس ، لأن ابن الرومي كان قليل الغشيان جداً للمجالس التي كان يحضرها الخلفاء وولاة العهود . فضلا عن تفاوت السن والخطة ، وفضلا عن سبب آخر قد يكون من موانع اللقاء بينهما وهو أن ابن الرومي هجا المعتز ومدح المستعين حين تنازعا الخلافة وتقاتلا عليها . وكان ابن الرومي من حزب المستعين لأن بغداد كانت معه وهي وطن ابن الرومي ، ومحمد بن عبد الله بن طاهر كان ينصر المستعين وهو يومئذ أكبر ممدوحيه . ونحن نذكر هذا السبب الأخير للاحاطة به ولا نعيره كبير التفات ، لأن ابن المعتز كان طفلا رضيعاً حين تقاتل أبوه وعمه ، ولا يحتمل كثيراً أنه وعى بعد ذلك كل ماقاله ابن الرومي في تلك الأيام .

ممدوحوه :

لابن الرومي ممدوحون كثيرون يزيدون على الأربعين ، يطول بنا البحث ولا نتهي الى غرض يفيدنا فيما نحن فيه لو أننا أجملنا تواريخهم اجمالا سريعا بله التفصيل والانعام ، ولو كان للمدح في زمن ابن الرومي بواعث نفسية غير طلب العطاء لوجب أن نعنى بتراجم الأشخاص الذين حركوا في نفس الشاعر تلك البواعث واستحقوا منه اكباره وثناءه ، لأن العناية بتراجمهم في هذه الحالة عناية بالشاعر نفسه وبواعث نظمه ومعايير وصفه وثنائه ، ولكن الشعراء كانوا يمدحون ولا يقصدون من المدح الا الارضاء والتفنن في معاني التعظيم ، فمن العبث أن نحصي هنا تراجم لاتزيدنا علما بالشاعر وليس العلم بها لذاتها مقصوداً في هذا المقام ، وحسبنا أن نلم بتاريخ الأسرتين اللتين خصهما الشاعر بمعظم مدائحه وكانت له صلة طويلة بهما وعلاقات مذكورة في ترجمة حياته ، وهما أسرة آل طاهر وأسرة آل وهب ، وكلاهما من أكبر الأسر التي عرفت في تاريخ الوزارة والقيادة في الدولة العباسية .

***

فآل طاهر أسرة قديمة تنتسب الى أمراء الفرس الأولين ويذكر منها في عالم الحرب والأدب والنجدة أفراد كثيرون . وأول من نبغ منها واشتهر في عهد بني العباس طاهر بن الحسين بن مصعب بن رزيق بن ماهان ، أسلم جده رزيق على يد عبيد الله طلحة الطلحات الخزاعي والي سجستان فنسب اليه ولقب بالخزاعي لهذا السبب لا لانتمائه الى قبيلة الخزاعة من جهة النسب .

وقد ولد طاهر بقرية بوشنج من أعمال « مرو » سنة تسع وخمسين ومائة حيث كان جده مصعب واليا يتولى أعمال مرو مع أعمال هراة . ثم كان الخلاف بين الأمين والمأمون فأبلى طاهر في خدمة المأمون ــ الفارسي الأم ــ أحسن بلاء وأخلص له ونصح في ولائه

وتوطيد ملكه ، فولاه خراسان وأطلق يده فيها فأصبحت دولة طاهرية مستقلة فى حكومتها لا تربطها ببغداد الا خطبة المنبر ، وقيل أن طاهرا قطع الدعاء للخليفة يوما فسممه خادم معه كان موكلا به من قبل المأمون فأصبح ميتا .

وكانت لآل طاهر مع ولاية خراسان ولاية الشرطة فى بغداد وهى من الولايات النافعة لذوى النفوذ ، فاجتمعت لهم أسباب القوة بين العاصمة وذلك الاقليم الخطير الشأن فى حياة الدولة العباسية .

وولد لطاهر ابنه عبد الله فنشأ فى رعاية المأمون نشأة فاضلة وشابه أباه فى النجدة والاقدام وبذه فى الأدب والمروءة . تولى مصر وأعطاه المأمون مال خراجها وضياعها لسنة ، فوهبه كله وفرقه فى الناس ورجع صفرا من ذلك . فغاظ المأمون فعله فدخل اليه يوم مقدمه فأنشده أبياتا قالها فى هذا المعنى وهى :

نفسي فداؤك والأعناق خاضعة — للنائبات أبيا غير مهتضم
اليك أقبلت من أرض أقمت بها — حولين بعدك فى شوق وفى ألم
أقفو مساعيك اللاتى خصصت بها — حذو الشراك على مثل من الأدم
فكان فضلى فيها اننى تبع — لما سننت من الانعام والنعم
ولو وكلت الى نفسى عييت بها — لكن بدأت فلم أعجز ولم ألم

«فضحك المأمون وقال والله مانفست عليك مكرمة نلتها ولا أحدوثة حسن عندها ذكرك ، ولكن هذا شيء اذا عودته نفسك افتقرت ولم تقدر على لم شعثك واصلاح حالك . وزال ماكان فى نفسه» .. ويقال أن البطيخ « العبدلاوى » المعروف بمصر منسوب اليه ولعله نسب اليه لأنه كان يستطيبه كما يقول ابن خلكان » .

ولعبد الله شعر جزل وتلحين جيد وهو القائل « ينبغى أن يبذل العلم لأهله ولغير أهله ، فان العلم أمنع لنفسه من أن يصير الى غير أهله » ومن كلامه « سمن الكيس ونبل الذكر لا يجتمعان » .

ومحمد بن عبد الله هذا هو الذى أدركه ابن الرومى ومدحه وظن أنه ينفس عليه شعره فقال له :

أتحسدني تجويد ربط نسجته ... لتلبسه ؟ يا للعجب من الأمر
تذكر هداك الله أني مادح ... وأنك ممدوح، فلا تعدني قدري

ونحسب أنه لم يظلمه ، لأنه تعود أن ينظر في شعر مادحيه نظرة الناقد المتصعب ، بعث اليه حاجبه محمد بن أبي عون بأنوار من بستانه وريحان وكتب معه :

قد بعثنا بطيب الريحان ... خير ما قد جنى من البستان
قد تخيرته لخير أمير ... زانه الله بالتقى والبيان

فوقع على ظهر رقعة :

عون ياعون قد ضللت عن القـ ... ـصد وعميت عن دقيق المعاني
حشو بيتيك قد وقد فالى كم ؟ ... قدك الله بالحسام اليماني (١)

وكان محمد عظيم النفوذ في الدولة تميل الخلافة حيث يميل ، نصر المستعين فرجحت كفته على أخيه المعتز ودانت له بغداد وما وراءها وأوشك أن يتفرد بالملك وحده ، ثم ارتاب في المستعين فتخلى عنه فلم يجد المستعين بدا من خلع نفسه وتمت الغلبة عليه لأخيه . وينسب اليه أنه قال لما انهزم محمد بن خالد في بعض الوقائع بين جنود المستعين وجنود المعتز : « لا يفلح أحد من العرب الا أن يكون معه نبى ينصره ! »

ومات محمد في ذي الحجة من سنة ثلاث وخمسين ومائتين أى حين كان ابن الرومي في الثانية والثلاثين ، قال ابن الأثير : « في ليلة أربع عشرة من ذي الحجة انخسف القمر جميعه ومع انتهاء خسوفه مات محمد ابن عبد الله بن طاهر بن الحسين وكانت علته التي مات بها قروحا أصابته في حلقه ورأسه فذبحته وكانت تدخل فيها الفتائل ، ولما اشتد مرضه كتب الى عماله وأصحابه بتفويض ما اليه من الولاية الى أخيه

---

(١) الموشح للمرزباني

عبيد الله بن طاهر . فلما مات تنازع ابنه طاهر وأخوه عبيد الله الصلاة عليه فصلى عليه ابنه وتنازع عبيد الله وأصحاب طاهر حتى سلوا السيوف ورموا الحجارة ومالت العامة مع أصحاب طاهر وعبر عبيد الله الى داره بالجانب الشرقي فعبر معه القواد لاستخلاف محمد فكان أوصاه على عماله . ثم وجه المعتز بعد ذلك الخلع الى عبيد الله فأمر عبيد الله للذى أتاه بالخلع بخمسين ألف درهم » .

وعبيد الله هذا كان شاعراً كأخيه وأبيه وأكثر أفراد أسرته ، وكان يقاول البحترى ويناجزه ، وهو الذى نظم ديوانا على الحرف فى شكر العلاء بن صاعد فمهد العلاء الى ابن الرومى بالرد عليه ، وهو القائل :

ان الأمير هو الذى   يبقى أميراً بعد عزله
ان زال سلطان الولا   ية لم يزل سلطان فضله

وكان كأخيه محمد فى نقد الشعر ولا سيما اذا مدح به غيره ، فهو الذى سمى قصيدة ابن الرومى النونية فى مدح اسماعيل بن بلبل بدار البطيخ ! لكثرة ما ذكر فيها من أسماء الفاكهة ، فظرف فى النكتة وان لم ينصف فى نقد القصيدة .

وقال ابن خلكان فى ترجمته : « ... كان عبيد الله المذكور أميراً ولى الشرطة ببغداد خلافة عن أخيه محمد بن عبد الله ثم استقل بها بعد موت أخيه ، وكان سيداً واليه انتهت رئاسة أهله ، وهو آخر من مات منهم رئيساً ، وله من الكتب المصنفة كتاب الاشارة فى أخبار الشعراء وكتاب رسالة فى السياسة الملوكية وكتاب مراسلات لعبد الله ابن المعتز وكتاب البراعة والفصاحة وغير ذلك ، وحدث عن الزبير بن بكار وغيره ، وكان مترسلا شاعراً لطيفاً حسن المقاصد جيد السبك رقيق الحاشية ، ومن شعره ماذكره ابن رشيق فى كتاب العمدة فى باب الاستطراد فقال : ومن الاستطراد نوع يسمى الادماج ، ونحو ذلك قول عبيد الله بن عبد الله بن طاهر لعبيد الله بن سليمان بن وهب حين وزر للمعتضد :

أبى دهرنا اسعافنا فى نفوسنا
وأسعفنا فيمن نحب ونكرم
فقلت له نعماك فيهم أتمها
ودع أمرنا ، أن المهم المقدم

« ... وله ديوان شعر ، ونقتصر من نظمه على هذا القدر ، وكانت ولادته سنة ثلاث وعشرين ومائتين وكانت وفاته ليلة السبت لاثنتى عشرة ليلة خلت من شوال سنة ثلاثمائة ببغداد ... »

ولعبيد الله أخ يسمى سليمان هو الذى هجاه ابن الرومى لأنه أخلف رجاءه فى رد داره . وكانت بينه وبين عبيد الله قطيعة وملاحاة شديدة ثم اصطلحا فخلد ابن الرومى هذا الصلح فى قصيدة دالية اقتبسنا منها فيما تقدم بعض أبيات :

وانتهت الى عبيد الله رئاسة قومه كما قال ابن خلكان ، الا أن دولتهم فى خراسان ذهبت منهم فى أيامه واستولى عليها فى سنة تسع وخمسين ومائتين ذلك المخاطر الجرىء يعقوب بن الليث الملقب بالصفار من الصفر لأنه كان فى صباه تاجرا فقيرا يعمل فى النحاس ، واقتصرت ولاية عبيد الله وسطوة قومه على الشرطة فى بغداد فكان هذا أول بوادر الزوال فى ذلك البيت المجيد ، ولحق ابن الرومى من ذلك مالابد أن يلحقه منه ، فضلا عن حسبانه عليه من عثرات جده ودلائل شؤمه !

***

أما أبناء وهب فكانوا أهل كتابة لاشأن لهم بالحرب وقيادة الجيوش جاء فى الفخرى أنهم كانوا « من قرية من أعمال واسط وكانوا نصارى ثم أسلموا » .

وعملوا فى الكتابة من مبدأ الدولة الأموية ثم حظوا عند العباسيين فاشتهر منهم اثنان هما الحسن بن وهب بن سعيد وأخوه سليمان .

وكان الحسن كاتبا شاعراً ولاه محمد بن عبد الملك الزيات ديوان الرسائل ومدحه أبو تمام فولاه البريد فى الموصل وكانت بينه وبين أبي تمام صداقة فلما مات هذا رثاه بقصيدة يقول منها :

فان تراب ذاك القبر يحوى حبيبا كان يدعى لى حبيبا
لبيبا شاعراً فطنا أديبا أصيل الرأى فى الجلى أريبا
اذا شاهدته رواك فيما يسرك رقة منه وطيبا
أبا تمام الطائى انا لقينا بعدك العجب العجيبا
فقدنا منك قرما لانرانا نصيب له مدى الدنيا ضريبا

ولم يزل الحسن مقربا مجددا حتى نكبه المتوكل مع ابن الزيات فى سنة ثلاث وثلاثين ومائتين .

وأخوه سليمان كتب للمأمون وهو فى الرابعة عشرة . حدث ابنه عبيد الله عنه أنه قال : « كان مبدأ سعادتى أنى كنت — وأنا صبى — بين يدى محمد بن يزداد وزير المأمون . وكنا جماعة من الصبيان بين يديه اذا راح الليل الى داره بات واحد منا فى دار المأمون بالنوبة ، لمهم عساه يعرض فى الليل وكانت ليلة نوبتى فخرج خادم وقال : هاهنا أحد من نواب محمد بن يزداد ؟ فقال الحجاب له نعم ! ها هو ذا ، فأدخلنى الى المأمون فقال لى . اعمل نسخة فى المعنى الفلانى ، ووسع بين سطورها وأحضرها لأصلح منها ما أريد اصلاحه . قال : فخرجت سريعا وكتبت الكتاب بغير نسخة وبيضته وأحضرته اليه فلما رآنى قال : كتبت النسخة ؟ قلت : بل كتبت الكتاب . فقال : بيضته ؟ قلت نعم ! فزاد فى نظره الى كالمتعجب منى، فلما قرأه تبينت الاستحسان على وجهه ورفع رأسه الى ، وقال : ما أحسن ما كتبت ياصبى ! ولكن أريد أن تقدم هذا السطر وتؤخر هذا السطر ، وخط عليهما بقلمه ، فأخذت الكتاب وخرجت وجلست ناحية ثم محوت السطرين وعملت ما أراد وجئته بالكتاب ، وكان قد ظن أنى أبطله وأكتب غيره ، فلما قرأه لم يعرف مبدأ المحو فاستحسنه وقال لى : يا

صبى ! لا أدرى من أى شيء أعجب ! أمن جودة محوك أم من سرعة فهمك أم من حسن خطك أم من سرعتك ، بارك الله فيك ! فقبلت يده وخرجت ، وكان ذلك أول علو منزلتي وصار المأمون لايجرى مهم الا قال : « هاتوا سليمان بن وهب » .

واستوزره المهتدي « ولقبه الوزير حقا لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها (١) » . استكتبه يوما عشرة كتب مختلفة الى جماعة من العمال ، فلما وضعت الكتب بين يديه قال له وقد قرأها : أحسنت ياسليمان ، ونعم الرجل أنت لولا المعجل والمؤجل! وذاك أن سليمان كان اذا ولي عاملا أخذ منه مالا معجلا وأجل مالا الى أن يتسلم عمله .. ونكبه الواثق وحبسه فقال وفي هذا الشعر غناء :

نوائب الدهر أدبتني وانما يوعظ الأديب
قد ذقت حلوا وذقت مرا كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر بؤس ولا نعيم الا ولي فيهما نصيب

ثم خرج من الحبس ليلة مات الواثق ، ولكنه كان مطموعا فيه لكثرةماله واشتهاره بالرشوةفقبض عليه الموفق ومات في حبسه سنةاثنتين وسبعين ومائتين ، وقيل سنة احدى وسبعين ... ولما قبض الموفق عليه وعلى ابنه عبيد الله تذاكر جماعة أنه انما استكتبها ليقف منهما على دخائل موسى بن بغا وودائعه فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما فقال ابن الرومي وكان حاضرا :

ألم تر أن المال يتلف ربه اذا جمّ آتيه وسد طريقه
ومن جاور الماء الغزير مجمه وسد مفيض الماء فهو غريقه(٢)

وسليمان بن وهب هو أبو عبد الله وجد القاسم ، وكلاهما وزر

---

(١) الأغاني
(٢) الأغاني

للمعتضد وتلقى مدائح ابن الرومى الكثيرة ، ولاسيما القاسم . فانه كان له القسط الأوفر من جميع مدحه .

وكانت أول ولاية عبيد الله للوزارة فى عهد المعتضد ثم بويع المعتضد سنة تسع وسبعين ومائتين فأقره على وزارته ولبث فيها الى أن مات سنة ثمان وثمانين ومائتين ، وكان كاتبا حاذقا وسائسا حصيفا وفيه يقول الشاعر :

اذا أبو قاسم جادت يداه لنا ... لم يحمد الاجودان البحر والمطر
وان مضى رأيه أو حد عزمته ... تأخر الماضيان، السيف والقدر
وان أضاءت لنا أضواء غرته ... تضاءل النيران الشمس والقمر
من لم يبت حذراً من حد صولته ... لم يدر ما المزعجان الخوف والحذر
ينال بالظن ما يعيى العيان به ... والشاهدان عليه العين والأثر

ويروى أنه لما مات عزم المعتضد على أن يستأصل شأفة أولاده ويستصفى أموالهم، فحضر القاسم ابنه واستعان ببدر المعتضدى وكتب خطابا بألفى دينار فاستوزره المعتضد (١)

قال صاحب الفخرى « كان القاسم بن عبيد الله من دهاة العالم ومن أفاضل الوزراء، وكان شهماً فاضلاً لبيبا محصلا كريما مهيبا جباراً، وكان يطعن فى دينه ... »

وقال ابن خلكان : « كان الوزير المذكور عظيم الهيبة شديد الاقدام سفاكا للدماء ، وكان الكبير والصغير منه على وجل لايعرف أحد من أرباب الأموال الا نقمه . وتوفى سنة احدى وتسعين ومائتين فى خلافة المكتفى وعمره نيف وثلاثون سنة ، وفى ذلك يقول عبد الله ابن الحسن بن سعد :

شربنا عشية مات الوزير ... سروراً ونشرب فى ثالثه
فلا رحم الله تلك العظا ... م ولا بارك الله فى وارثه

---

١ الفخر

وابن خلكان قد أخذ هذا الوصف من مروج الذهب للمسعودى، وفى هذا الكتاب أن القاسم قتل عبد الواحد عم الخليفة المكتفى والخليفة يجهل ذلك ولا يريده . وكان القاسم يغريه به « فوكل به من يراعى خبره وما يظهر من قوله اذا أخذ الشراب منه فسمع منه وقد طرب وهو ينشد شعر العتابى :

تلوم على ترك الغنى باهلية ... طوى الدهر عنها كل طرف وتالد

الى أن يقول :

ذرينى تجئنى ميتتى مطمئنة ... ولم أتجشم هول تلك الموارد
فان نفيسات الأمور مشوبة ... بمستودعات فى بطون الأساود
وان الذى يسمو الى درك العلا ... ملقى بأسباب العلا والمكايد

فقال له بعض ندمانه وقد أخذ منه الشراب : يا سيدى أين أنت مما تمثل به يزيد ابن المهلب :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... حياة لنفسى مثل أن أتقدما

فقال له عبد الواحد : مه ! لقد أخطأت الغرض وأخطأ ابن المهلب وأخطأ قائل هذا البيت وأصاب أبو فرعون التميمى حيث يقول :

وما بى شىء فى الوغى غير أننى ... أخاف على فخارتى أن تحطما
ولو كنت مبتاعا من السوق مثلها ... لدى الروع ما باليت أن أتقدما

فلما انتهى ذلك الى المكتفى ضحك وقال : قد قلت للقاسم ليس عمى عبد الواحد ممن تسمو همته اليها .. أطلقوا لعمى كذا وكذا . فلم يزل القاسم بعبد الواحد حتى قتله » .

وكان القاسم مكروها على خلاف أخيه الحسن الذى كان يحبه الناس ويحسنون الظن به فلما مات الحسن قال أبو الحارث النوفلى :

قل لأبى القاسم المرزا ... قابلك الدهر بالعجائب

مات لك ابن وكان زينـا وعاش ذو الشين والمعايب
حياة هـذا كموت هـذا فلست تخلو من المصـائب

قال أبو بكر الصولى النديم : « وقد رأيت أبا الحارث هذا وكان رجـلا صدوقا »

ونظم آخر فى هذا المعنى فقال :

قل لأبى القاسم المـرزا وناد يـاذا المصـيبتين
مات لك ابن وكان زينـا وعاش شين وأى شـين
حياة هـذا كموت هـذا فالطم على الرأس باليـدين

ولكن عبيد الله أباهما كان على رأى يخالف رأى الناس فى ولديه، فكان يقدم القاسم ويهمل الحسن ، حتى راجعه فى ذلك ابن الرومى بقصيدة سبقت الاشارة اليها ، ولعله رأى من دهاء ابنه القاسم وغدره أنه أصلح للحكم فى ذلك الزمان ، وعلم أن الخلق الكريم أداة لاتنفع فى هذا الغرض فأخر ابنه الحسن عن منزلة أخيه .

والقاسم هذا هو الذى أجمعت كتب التاريخ على أنه قتل ابن الرومى بالسم لأنه أشفق من فلتات لسـانه .

وفــاته

يقول ابن خلكان في تاريخ وفاة ابن الرومي : « توفي يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأول سنة ثلاث وثمانين وقيل أربع وثمانين وقيل ست وسبعين ومائتين ، ودفن في مقبرة باب البستان » .

فأي هذه التواريخ صحيح ؟

ان الذين جاءوا بعد ابن خلكان تابعوه في هذا الشك الذي لا مسوغ له اعتماداً على روايته بغير بحث في شعر الشاعر ولا في كتب المؤرخين الذين سبقوا ابن خلكان . ولا مسوغ لهذا الشك كما قلنا لأن ابن الرومي أثبت لنا أنه بلغ الستين وعاش الى مابعد سنة ثمانين اذ يقول :

طربت ولم تطرب على حين مطرب
وكيف التصابي بابن ستين أشيب

فهو لم يمت في سنة ست وسبعين على التحقيق ، ولا يظن أن الستين هنا تقريبية لضرورة الشعر وأنها قد تكون خمسا وخمسين أو ستا وخمسين ، فانه ذكر الخمس والخمسين في موضع آخر حيث قال :

كبرت وفي خمس وخمسين مكبر
وشبت فالحاظها المها عنك نفر

وليس من المعروف عنه أنه كان يعيي بنظم مايريد .

ولو راجع ابن خلكان كتاب مروج الذهب للمسعودي لعرف منه أن ابن الرومي كان حيا بعد ست وسبعين ، فلا محل للقول بموته في تلك السنة . فقد جاء في تاريخ المعتضد من ذلك الكتاب أن قطر الندى بنت خماروية وصلت الى مدينة السلام مع ابن الجصاص في ذي الحجة (١) سنة احدى وثمانين ومائتين ، ففي ذلك يقول علي بن العباس الرومي :

---

(١) الطبري يقول ان دخولها بغداد كان لليلتين خلتا من المحرم سنة ٢٨٢

ياسيد العرب الذى زفت له   باليمن والبركات سيدة العجم

الى آخر الأبيات ، وهذا فضلا عن مقطوعات أخرى نظمها الشاعر فى العرس الذى احتفل به الخليفة سنة اثنتين وثمانين .

فمن المحقق اذن أن ابن الرومى تجاوز سنة ست وسبعين ، ولم يبق لنا الا أن نبحث فى السنتين الأخريين أى سنتى ثلاث وأربع وثمانين .

فعندنا تاريخ اليوم والشهر من أولاهما وليس عندنا مثل ذلك من الثانية ، وهذا مما يرجح وفاته فى سنة ثلاث وثمانين دون أربع وثمانين .

ويقوى هذا الترجيح أن مضاهاة التواريخ تثبت لنا أن جمادى الأخرى من سنة ثلاث وثمانين بدأت يوم جمعة فيكون يوم الأربعاء قد جاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى فى تلك السنة كما جاء فى تاريخ الوفاة .

وقد ضاهينا هذا اليوم على التاريخ الأفرنجى فوجدناه يوافق الرابع عشر من شهر يونيو ، أى يوافق ابان الصيف فى العراق ، وابن الرومى مات فى الصيف كما يؤخذ من قول الناجم ، أنه دخل عليه فى مرضه الذى مات فيه وبين يديه ماء مثلوج، فيجوز لنا على هذا أن نجزم بأن أصح التواريخ هو التاريخ الأول وهو « يوم الأربعاء لليلتين بقيتا من جمادى الأولى سنة ثلاث وثمانين » .

***

والأقوال بعد ذلك مجمعة على موت ابن الرومى بالسم ، وانالذى سمه هو القاسم بن عبيد الله أو أبوه .

ولكن الروايات فى هذا الخبر لاتخلو من ضعف واضطراب ، فالرواية التى أوردها ابن خلكان تقول : ان الوزير أبا الحسين القاسم ابن عبيد الله بن سليمان بن وهب وزير الامام المعتضد كان يخاف من هجوه وفلتات لسانه بالفحش فدس عليه ابن فراش فأطعمه خشكنانجة مسمومة وهو فى مجلسه فلما أكلها أحس بالسم . فقال له الوزير :

الى أين تذهب ؟ فقال الى الموضع الذى بعثتنى اليه ، فقال له : سلم علي والدي ! فقال له : ما طريقي على النار ... »

وضعف هذه الرواية ظاهر . لأن عبيد الله بن سليمان مات فى سنة ثمان وثمانين (١) أى بعد آخر تاريخ فرض لموت ابن الرومي بأربع سنوات ، فكان حيا عند وفاة الشاعر ، ولا معنى لأن يقول القاسم له سلم على والدى ووالده بقيد الحياة .

والرواية التى أوردها الشريف المرتضى فى أماليه أصح من هذه الوجهة لأنها تقول ان عبيد الله كان حيا عند موت ابن الرومى وأنه هو الذى أوعز بقتله ، ولكنها تقول أيضاً أنه قد اتصل « بعبيد الله بن سليمان بن وهب أمر على بن العباس بن الرومي وكثرة مجالسته لأبى الحسين القاسم . فقال لأبى الحسين : قد أحببت أن أرى ابن روميك هذا. فدخل يوماعبيد الله الى أبىالحسين وابن الرومى عندهفاستنشده من شعره فأنشده وخاطبه فرآه مضطرب العقل جاهلا فقال لأبى الحسين بينه وبينه : ان لسان هذا أطول من عقله ، ومن هذه صورته لا تؤمن عقاربه عند أول عتب ولا يفكر فى عاقبته ، فأخرجه عنك فقال : أخاف حينئذ أن يعلن مايكتمه فى دولتنا ويذيعه فى تمكننا ، فقال يابنى ! آنى لم أرد باخراجك له طرده . فاستعمل فيه بيت أبى حية النميرى :

فقلن لها سرا فديناك لا يرح سليما ، والا تقتليه فالمى

فحدث القاسم ابن فراش بما جرى وكان أعدى الناس لابن الرومى وقد هجاه بأهاج قبيحة ، فقال له الوزير أعزه الله أشار بأن يحتال حتى يستراح منه وأنا أكفيك ذلك فسمه فى الخشكنانج فمات ... قال الباقطانى : والناس يقولون ما قتله ابن فراش وانما قتله عبيد الله » .

وضعف هذه الرواية ظاهر كذلك . لأن عبيد الله كان يعرف ابن

---

(١) راجع الفخرى

الرومى سنوات وقد مدحه ابن الرومى وتردد عليه وتشفع لديه بين ولديه فلا حاجة به الى أن يطلب رؤيته قبل موته ليختبره كما جاء فى هذه الرواية . أما الأخبار الأخرى المنثورة فى الكتب فهى مزيج مرتبك من هاتين الروايتين .

ويصعب علينا أن نستخلص الحقيقة من الخلف والاضطراب ، فاذا قلنا ان عبيد الله هو القاتل كما نقل الباقطانى فيجوز على هـذا الزعم أنه هو الذى قال له : سلم على والدى وليس ولده القـاسم ، فينتفى بذلك موضع الضعف فى الرواية الأولى ، ولكننا ننفيه بفرض لايجوز الاعتماد عليه .

واذا أردنا أن نمزج بين الروايتين ونسقط منهما ما يجب اسقاطه فالخلاصة منهما أن عبيد الله خاف هجاء ابن الرومى فأوعز الى ابنه أن يسمه لأنه كان أقرب الى مخالطته ومنادمته، ولا صحة لما بعد ذلك من حديث القاسم وابن الرومى وانما هو حديث غلبت فيه فكاهة القصة على صـدق التـاريخ .

***

بين هذه الشبهات المتضاربة شبهة تعرض للذهن ولا يجوز اغفالها فى هذا المقام وهى تبيح لنا أن نسأل : ألا يحتمل أن يكون حـديث السم كله خرافة مخترعة لا أصل لها وأن ابن الرومى مات ميتة طبيعية تشتبه أعراضها بأعراض التسمم المعروفة فى زمانه ؟ فمن كلام الناجم الذى زاره فى مرض وفاته نعلم أنه كان يشكو من الحاح البـول فلما لاحظ النـاجم ذلك قال :

غداً ينقطع البـول ويأتى الهول والغول

وأنه كان قد أعد ماء مثلوجا لأنه « قلما يموت انسان الا وهـو ظمئان » وكان يقـول فيمـا روته الأمالى وهـو يشرب المـاء ولا يروى :

وأراه زائداً فى حـرقتى فكأن الماء للنـار حطب

والظمأ والحاح البول عرضان من أعراض « مرض السكر » وهو مرض يحدث لصاحبه التسمم ولاسيما بعد أكل الحلوى والافراط فيها ، وابن الرومي لم تكن تعوزه أسباب الاصابة به لأنه كان منهوما بالحلوي والأطعمة الثقيلة ، مستسلما للشهوات مسرفا في الشراب مع ضعف أعصابه واعتلال جسمه ، فمن الجائز أنه أصيب به فاشتد عليه في شيخوخته وفصده الطبيب وفسد الجرح كما جاء في رواية زهر الآداب فأودى ذلك بحياته . ويسهل فى هذه الحالة أن يشيع حديث السم ولواحقه لما كان يعترى ابن الرومي من كثرة التوهم أو لما كان مشهوراً عن القاسم من سوء الطوية والضراوة بالغدر والفتك بحيث لايكبر عليه قتل شاعر هجاه ؛ فاذا كان الموت قد حدث بعد وليمة فى بيت القاسم فهذا مما يؤكد التهمة ويصعب على الناس أن يعللوه بغير السم والمكيدة ، وان كان الطعام وحده كافياً للقضاء على رجل جاوز الستين فى شيخوخة متهدمة مهملة طالت اصابته بمرض دفين لم يكن علاجه ميسوراً فى أيامه :

هذه شبهة تعرض للذهن بين مختلف الشبهات ، وكل قيمتها عندنا أنها مما لايصح اغفاله فى تحقيق وفاة الشاعر . فهى احتمال كل ما فيه أنه غير مستحيل .

***

أما أن القاسم كان أهلا لأن يغدر بابن الرومي وأن ابن الرومي كان عرضة لغضب ذلك الوزير الفاتك المغتال فهو احتمال جد قريب ؛ فالقاسم جرىء مستخف بالدماء وابن الرومي قانط سريع الغضب . وليس أيسر من أن ينسى القاسم رجلا كابن الرومي حين أقبلت الدولة عليه وعلى أبيه وآله وتبدلت مجالسهم الأولى وأخذوا فى شأن من الصولة والأبهة غير شأنهم الذى كانوا فيه ، وليس أيسر من أن يطمع ابن الرومي فى عمل أو مرتب أو مكافأة تغنيه حين أقبلت الدولة على ممدوحيه وأصحابه بالأمس فى أيام التطلع والانتظار ، ومن هنا يبدأ الغضب فاللوم والوشاية فالمبالغة فى الجفاء فالهجاء من الشاعر فالوعيد

من الأمير الذى ليس بين وعيده وانجازه عائق من خوف ولا لمحاسبة ضمير . وسلسلة القصائد التى تشفع بها ابن الرومى وسأل العمل واعتذر من أحاديث الوشاة سلسلة طويلة يسهل ترتيبها لولا أنه لافائدة من هذا الترتيب : فحسبنا منها أن القاسم سمع الوشايات التى تحدث بها جلساؤه ومنافسو ابن الرومي والمحنقون عليه لهجائه ، فأمعن فى جفائه والاعراض عن توسلاته وشفاعاته ، فلم يفلح ابن الرومى فى استعطافه بمثل قوله :

بلغ البغاة على حيث أرادوا　　　والله كائدهم بما قد كادوا
وهو الشهيد على أنى لم أقل　　　بعض الذى قد أبدءوا وأعادوا
وهب السعاة أتوا بحق واضح　　　أين الكرام ؟ أبدلوا أم بادوا

. . . .　　　. . . . . . .

عفر الملوك عن الهجاة مدائح　　　مدحوا نفوسهم بها فأجادوا

ولم يفلح فى استعطافه بأضعاف هذا الكلام وهو كثير .

وحسبنا منها أن القاسم كان يتوعد ابن الرومي بالقتل فقال الشاعر يقابل بين ماوشى به السعاة اليه وما وشوا به الى القاسم .

تحدثت الأملاء أنك حابسى　　　على غير أجرام وأنك مغتالى
وما قيل املاء الرجال وقالهم　　　بأسهل من قيلى عليك ومن قالى

ثم يستطرد الى الترضي والاستعطاف :

أخالك لو عاينتنى فى حفيرتى
بكيت عظامى الباليات وأوصالى

وسرك أن أحيا كما كنت مرة
ببذل الفداء الجزل والثمن الغالى

فلا تجفنى حيا ولا تبك رمتى
كمنصرف عني يسائل أطلالى

وتكرر وعيد القاسم بالقتل فتكرر استعطاف ابن الرومى وتذكيره بسالف المودة :

أيقتلنى من ليس لى منـه ناصر
عليـه ، وأعوانى عليـه مـكارمه
أبى ذاك أن الحـكم بينى وبينه
وان علو القـدر فى يخـاصمه

وقد طالت السعايات وطال التوسل حتى اجتمع من ذلك ديوان غير صغير فى حجمه ولا فى معانيه وابتكاراته ، وابن الرومى فى كل ذلك لايرى من القاسم الا :

غضباً ألح من السحاب الاسحم ورضى أعز من الغراب الاعصم

فضاق صدره وجاهره بالهجاء وأفرغ كل مافى جعبته من قـذع أخفـه :

يامن اذا ما رأته عـين والـده
بين الرجـال اتقـاهم بالمعـاذير
أقسـمت بالله أن لو كنت لى ولـداً
لما جعلتـك الا فى المطـامير

وقال فى آل وهب عـامة :

متى آل وهب يرتجى الرى حـائم اذا كنتم ملاك سيل المحـامد

واتهمهم فى اسلامهم لأنهم كانوا قديما نصـارى فأسلموا فقال فيهم هذه القصيدة :

وأحييتم دين الصـليب وقمتم
بتشييد « بيعات » وهـدم مساجد

وابطـال ما كان الخليفة جعفـر تخـيره زيا لـكل معـاند

يشير الى ابطالهم زى أهل الكتاب الذى أمر به الخليفة المتـوكل

فى أيام غلوائه ونقمته على أصحاب النحل جميعاً وقراء الفلسفة وعلم الكلام .

فليس من المنتظر بعد هذه القطيعة وهذا الهجاء أن يتورع القاسم عن قتل ابن الرومى اذا استطاعه ، وهو مستطيعه كما استطاع قتل عم الخليفة بغير جريرة ودبر لذلك تدبيره الذى لم يعلم به الخليفة الا بعد موته ، ومتى توعد القاسم بالحبس والقتل فليس هو بالذى يتردد فى انجازه وعيده أو يعجز عنه ، وليس ابن الرومى بالذى يتخذ الحيطة من مكيدة يراد بها وهو يسأل القاسم عطفا وينخدع فى ظواهره بغير عناء .

***

وبقية المرحلة بعد هذا قصيرة :

ذهب ابن الرومى الى داره وهو يتوقع الموت ويتلمس الشفاء و « لامفر من الموت ولا من قضائه المحتوم » كما قال وغلط عليه الطبيب أوعز عليه دواؤه فكانت اصابة المقدار . فتلقاه الموت آخر الأمر كما تلقته الحياة : نفساً يساورها القلق ويتوفز فيها الحس ولاتزال من خوف الألم فى ألم : اطمأنت الى القضاء المحتوم اطمئنانها وأبت أن تطمئن الى آلامه وصرعاته ، فاستحضرت المدية الرميضة تحاول أن تتعجل بها الموت اذا اشتدت عليها سكراته وأبطأ نزوله ، ولم تخش من ذلك عقاب الدين وله عليها ذلك السلطان المرهوب ، وللساعة عندها « هول دونه الهول » وبعده حساب عسير لاشك فيه .

تلك خاتمة الترجمة التى استخرجناها من شعر ابن الرومى وعثرنا فيها بتفاصيل ودقائق لا تستخرج من شعر شاعر غيره . فكأنما انتزعها من قبضة العدم انتزاعا وتشبث بها كما تشبث بالحياة فغلب غليها اهمال التاريخ غلبا . . والفضل فى ذلك لتلك الملكة الفنية التى خلقت لتحس وتعبر عما تحسه وتسجل تعبيرها فى سجل الفنون ، والتى أرهفتها الأسقام والآلام حتى أصبحت وسواسا يبالغ فى تحريه واستيفائه كما يبالغ كل وسواس فى التوكيد والتقرير .

الفصل الرابع

عبقـــرية ابن الرومى

فرغنا فى الفصل السابق من حياة ابن الرومى لنتكلم فى هـذا الفصل عن عبقريته وهى زبدة حياته والغرض الذى من أجله عاش ومن أجله يكتب الكاتبون عنه . فما تحرك فى حياته حركة الا كان لعبقريته منها نصيب أوفى نصيب . حتى لكأنه كان لايتحرك ولا يتنفس ولا يطعم ولا يشعر الا ليتخذ من ذلك كله مادة حياة ويترجم ما عمل وما علم فى قالب الفن ترجمة البر الأمين ، وصفوة القول فى هذه العبقرية أنها كانت عبقرية يونانية لولا الافراط والانهماك ، أو أنها كانت عبقرية يونانية مكبرة الجوانب بعض التكبير .

ولسنا نصفها هذا الوصف لأنه تفسير سهل لهذه العبقـرية النادرة ولكن لأنه وصف موجـز يـدل على أجـزائها المختلفة بقليـل من الكلمات .

فربما كان القول بأن ابن الرومى رجل حساس متوفز الأعصـاب ملبى المزاج نشأ فى حضارة زاهية فأجابته وأجابها وأخذت منه وأخذ منها فنبغ على ذلك المثال الفريد لأنه لابد فى الشعر من مثال فريد ــ ربما كان هذا أقل فى العجب من تفسير عبقريته بأنها عبقرية يونانية على اعتبار أنها موروثة عن آبائه اليونان ... اذ من هم آباؤه اليونان! لاندرى أهم من اغريق الجزر أم من اغريق البلاد المعروفة باسم اليونان أم من اغريق آسيا الصغرى التى كانت تدور الحروب فيها وحـولها بين المسلمين ودولة الروم . ومن الصعب الذى يحتاج الى التفسير أن تقول أن هؤلاء الاغريق جميعاً سليقة واحدة وأمة واحدة وعنصر واحـد يتحدر منه الرجل ويتنقل الى بيئة أخرى وينجب الأبنـاء فى بيئتـه

الجديدة فيجتمع فيهم كل ما تفرق من خصائص العبقرية الفنية التى تسمى الآن بالعبقرية اليونانية .

ثم نحن لانعلم أن الاغريق فى قديم عهــدهم كانوا عنصراً واحداً ينتمى الى سلالة واحدة ، لأن امتزاج الأنساب بينهم وبين الأسيويين ثابت لاشك فيه واقتباسهم من عقائد الأسيويين وفنونهم ولغاتهم ثابت كذلك أقطع ثبوت . ولا يمكن أن نجزم برأى فى وراثة الفطرة الفنية ولا سيما الفطرة فى الشعب كله حتى لو عرفنا الأصل الذى تحدر منه ابن الرومى بين أصول اليونان الكثيرة . فقد كان فى بلاد اليونان نفسها ألوف من أبناء الشعب اليونانى المحاطين بالبيئة اليونانية فى جميع ظواهرها وبواطنها فلم ينبغ منهم فى عصر ابن الرومى شاعر مثله ولا نبغ منهم فى العصور السابقة التى أزهرت فيها آدابهم وفنونهم شاعر من طرازه فى جميع خصائصه وملكاته . فلو أننا نقلنــا ابن الرومى من الأدب العربى الى الأدب اليونانى لكان فذا فى أدبهم كما كان فذا فى أدبنا ، ولم تنقض الحاجة الى تفسيره بهذه النقلة من أدب لغته الى أدب أصله ، ولو أننا بحثنا عن مزية أصيلة فى الفطرة اليونانية تنتقل مع الدم وتسرى فى خلال التكوين لأعيانا أولا أن نحصر هذه الفطرة ثم أعيانا بعد ذلك أن نحصر هذه المزية .

فنحن لا نفسر عبقرية الشاعر حين نسميها بالعبقــرية اليونانية ؛ ولكننا نصفها فى كلمات موجزة وصفا يقربها الى الأذهان ويطبعها بهذا الطابع المعــروف عنــد المطلعين على الآداب . وما من شك فى أن الشــاعر الذى تحدر من أصل يونانى أيا كان مقره غير الشاعر الذى تحــدر من أصل عربى أيا كان مقره . ولكن التفــــريق بين هذين الشاعرين شىء والقول بأن الشاعر لايحس هذا الاحساس ولا ينظم هذا النظم الا اذا كان من أبناء اليونان شىء آخر . فحسبنا أننا نعرف ما نريد حين نذكر العبقرية اليونانية ولا نحاول بعد ذلك الخروج الى تعليل الأصول والتعسف فى تقسيم خصائص الشعوب .

وانما وصفنا ابن الرومى بهذه الصفة لأنه صاحب عبقــرية تعبد

الحياة ، وتحيا مع الطبيعة ، وتلتقط الصور والأشكال ، وتشخص المعاني ، وتقدم الجمال على الخير أو لاتحب الخير الا لأنه لون من ألوان الجمال ، ثم هى تنظر الى الدنيا نظرتها الى المعرض المنصوب للتملى والمتعة لانظرتها الى الحصن المغلق أو الصومعة الموحشة أو غير ذلك من نظرات الأجيال والأديان ، ولا نعرف صفة أجمع لهذه الخصال كلها من صفة العبقرية اليونانية التى اتسمت بها فى الجملة فنون الاغريق، فقد كان الأغريق بجملتهم كما كان ابن الرومى بمفرده ، لو أن الأغريق كانوا يصيبون من كل متعة بمقدار وابن الرومى كان لايعرف فى أمر من الأمور مقداراً أقل من الافراط والانهماك .

عبـادة الحيـاة

ولننظر أولا الى حب الحياة الذى كان أول ما اشتهر به اليونان وأول ما تستشفه من فن هذه العبقرية الحية فى كل جزء من الأجزاء وكل حاله من الحالات . فابن الرومى كان من أخلص محبى الحيـاة بين محبيها الكثيرين ، أو كان على الأصح الأوضح من مدمنى الحياة بين شرابها غير المدمنين .

وحب الحياة خليقة نادرة وان ظن أنها أعم شىء بين النـــاس وعامة الأحياء . فليس الحب ــ سواء حب حيـــاة أو حب شىء من أشيائها ــ سهلا رخيصا يطمع فيه كل من يريد . فمن الناس من يحب الحياة كأنه مسوق الى حبها ، ومنهم من يحبها كأنه مأجور على عمله، ومنهم من يحبها كأنما يحب شيئا غريبا عنه ، ومنهم من يحبها كمـا (يحب) الحيوان الأعجم ماهو فيه ، ومنهم من يحبها حب العـاشق الذى يختار معشوقه أو يستوى عنده الحب على القسر والحب عـلى المشيئة لأنه يريد ما يقسر عليه ويأبى أن يفرض للفراق وجودا أو يتوقع لهواه تغييرا ، فهو سعيد بأن يحب وأن يسمح له بأن يحب ، وهويحب الحياة لأنه حى لا موت فيه ولا عمل لكل حاسة فى نفسه الا أن تحس وتحيا وتستجد احساسا وحياة ولا تشبع من الاحساس والحيـاة ، وهكذا كان ابن الرومى يعبد الحياة عبادة لايبتغى عليها أجرا غـير ما يبتغيه خلص العابدين؛ فكان حيا لا مكان فيه للموت الا الخـوف منـه والتفكير فيه .

وانك لتتابع أبياته الكثيرة فى هذا الغزل أو فى هذه الفتنة أو فى هذا السكر فيخيل اليك أنه شارب قبض على الكأس يود أن يجرعها مرة واحدة من فرط التعطش والخـوف عليهـا لولا أنه يستعذبها ويستطيبها فيرتشف منها رشفة بعد رشفة ويعود اليها ينظر ما فـرغ منها وما بقى فيهـا . ويضن ويشـتاق ويشـعر بمرارة الفقـد لفرط شـعوره بحلاوة المتعة ، فما نقصت من تلك الكأس ـ الحياة ـ قطرة الا أحس بطيبها وأحس بألم فقدها وعرف مقدارها وقاس من الـكأس

حيزها وعاد يترشف لينسى فيزداد ذكرا على ذكــر وخســارة بعــد خســارة . وأى ذكر ؟ وأى خســارة ؟ وأى ألم ؟ وأى فجيعة ؟

لعمرك ما الحياة لــكل حي اذا فقد الشباب سوى عذاب
فقل لبنــات دهرى فلتصبنى اذا ولى باسهمهــا الصــياب

ومن هذه اللهفة بعد اللهفة تعرف كيف بلغ العشرين وكيف بلغ الثلاثين وكيف بلغ الخمسين وكيف بلغ الســتين فى قصــائد شتى ومناسبات عدة لا موضع هنا لاحصائها ولكنها تدلك اذا راجعتها على مغالاته بهذه الوديعة وضنه بتسليمها والتفريط فيها وحرصه عــلى ذخيرتها حرص الشحيح الذي يود أن يزيد فى ماله المحسوب وهــو يراه ينقص ســاعة بعــد ساعة ولمحة بعد لمحة .

وهو اذا ذكر الشباب لم تكن صورة الشباب فى ذهنه أنه فترة من الزمن ، أو ظواهر من المتعة والعافية ، وانما يذكره وهــو ينفذ الى صميمه وباطنه ولبابه الذي لايحسب بالأيام ولا معــول فيــه الا على جدة الشعور وجلاء الدنيا فى بشاشتها الأولى كأنها الثمرة المقطوفة ولها من الشمس صبغة جديدة ومن الطل مسحة غضة ومن العصــير المكنوز وليمة تنادى الشهوة وتفتح اللهوة .

فلا يعنيه أن يدوم له الشباب وانما يعنيه أن تدوم له الدنياالقديمة وهى فى جدة البواكير وفى طرافة المفاجأة التى لاتذال والا فمــا يغنيه أن يدوم الشباب والدنيا أمامه مذالة المنظر مجــــرودة اللون مسلوبة من تلك المفاجأة فى كل نظرة وفى كل لقاء ؟

لو يدوم الشباب مدة عمرى لم تدم لى بشاشة الأوطار

أجل . هذا هو الشباب فى صميمه وباطنه ولبابه . والشباب عنده أيضا أن يستقبل الحياة لأنها لاتكون جديدة الا بهــذا الاستقبال

أطالع ما أمامى بابتهــــاج ولا أقفو المولى باكتئاب

والشباب عنده دولة يولى صاحبها على هذه الدنيا فتطيعه وتعطيه من خيراتها كل ما تملك وكل ما يصبو اليه .

سقى الشباب وان عفا آثار معهده القتير
ما كان الا الملك أو دى تاجه وهوى السرير

والشباب عنده هو الحياة ، لافرق بين فقده وفقد الحياة الا أن فاقد الشباب يعلم بموته وفاقد الحياة لايعلم ولا يأسى على ما فات .

وفقد الشباب الموت يوجد طعمه صراحا ، وطعم الموت بالموت يفقد

والشباب عنده مفقود لاعزاء بعده الا عزاء الموت القريب .

فما لى عزاء عن شبابى علمته سوى أننى من بعده لا أخلد
وان مشيبى واعد بلحاقه وان قال قوم انه يتوعد

والشباب عنده مبكى ولا يوفى البكاء الا بالدم .

لاتلح من يبكى شبيبته الا اذا لم يبكها بدم

ومرثى لاينقطع رثاؤه حتى الممات :

سأثنى بآلاء الشبيبة باسطا لسانى بها حتى أحين فاقبضا

والخير الأكبر هو أن يحيا الانسان ، والشر الأكبر هو أن يموت ؛ ولا سيئة عنده لهذا الخير العميم الا تنغيص ذلك الشر العميم .

سوءة للحياة والموت حتم ولبذل الزمان واسترداده

وكل ما فى الحياة من قلة الغبطة أن الأحياء يموتون :

كيف العزاء ومافى العيش مغتبط ولا اغتباط لأقوام يموتونا
متى نعش فبلى الأحياء يدركنا وان نمت فبلى الأموات يعفونا

وعلى هذا النحو يقول :

رأيت حياة المرء رهنا بموته وصحته رهنا كذلك بالسقم
اذا طاب لى عيش تنغصت طيبه بصدق يقينى أن سيذهب كالحلم
ومن كان فى عيش يراعى زواله فذلك فى بؤس وان كان فى نعم

فالخلود الخلود .! لاشيء دون الخلود يرضيه ويستقر عليه مناه ،

والا فبنو الحياة بائسون محرومون لأنهم لايعيشون الا لأنهم يعيشون كما يقول المتشائسون الذين لايحبون هذا الحب ولا يعبدون هـذه العبادة ولا يحسون هذا الاحساس . وما تكلمنا بالمجاز حين قلنـا أنه يعبد الحياة لأنه ـ على ما في شعره من هذه الأبيات المفرقة في شتى القصائد ـ قد كان يعلم ويقول ان للحياة دينا يحرم ويحلل ويأمر ويطاع ولو عارض أوامر الدين :

شربت وقـد كان الشـبـاب محللا
لى الراح ما كـان الكتـاب محرما
وقد طـابق الشيب الكتـاب فحرمت
على فيـك تحريمين ان كنت مسـلما

وذكر المحرمات في قصيدة أخرى فقـال :

لم تحـلل لمن أتاها ولـكن ... لم يحل دونها من الشيب حام
وأتى الآن دونها فهى اليـو ... م حرام على كل الحـــرام
سوءتى ان أطلعت شيبى فيما ... لم أطع فيه حاكم الحـكام
وعظ الله والكتـاب فصمـ ... ـت وأقـدمت أيما اقـدام
ونهى الشيب بعـد ذاك فأسلمـ ... ـت وأحجمت أيمـا احجـام

فقد كان يدين في خواليه بهـذا الدين ويستوحي منـه شريعة التحليل والتحريم ، وتهم خواطره بالتبتل فيثنيه عنه هذا التبتل الذى لاتسكت دعوته ولا ينقطع رسوله :

أبى لأخى الدنيـا التبتل أنهـا ... لها زينـة في كل حـين تزيفها
اذا ما جلاها في الرياض ربيعها ... يروق عيـون النـاظرين رفيفها
وأخـرى اذا ما أينعت ثمراتهـا ... ورقت حواشـيها وطاب خريفها
تراءى لنا في زخـرفين كلاهما ... اذا استوحف الأهواء طال وحيفها

وقد كان همه الأكبر أن يحيا لأنه مهيأ النفس للاحساس بالحياة، ولو كان همه على مابه من الخصاصة واللهفة أن يطلب القوت وينصرف الى ذرائع العيش لما كان بالملوم .

●●●

وتعلق ابن الرومى بالحياة أقل شيء غرابة وأقرب شيء الى طبيعة الأمور . نعم أنه كان سقيم الجسم عسير الرزق مخيب الآمال فكان أحرى لذلك أن يبغض الحياة أو يحبها حب المجبر الملوم ، الا أن المرء لايحب الحياة على مقدار سعادته بها واستجابة آماله فيها ، كما أن المرء لايحب المرأة على مقدار ماينال من حظوتها ويغنم من اقبالها ، بل يحب هذه أو تلك كلما امتلأت بها نفسه واشتغل بها حسه واشتبكت بها ذكرياته وامتزجت بها رغباته ، وابن الرومى كان صاحب نفس لا توصف الا بأنها أداة مهيأة للنظر والسمع والتلقى عن الوجود من حيثما ألقى اليه بأثر من آثاره وخبر من أخباره دق أو جل وأسعد أو أشقى :

العين لا تنفك من نظر والقلب لاينفك من وطر

ومن أبهر مايبهرك فى هذه اليقظة الحسية حاسة اللون الذاكية المتوهجة التى تطالعك من كل وصف يصف به الوجوه أو الأزهار أو الكئوس أو الحلى أو الخمر أو غير هذه المناظر التى تلامس البصر بألوانها فانك قل أن ترى فى وصف شاعر من شعراء العالم أجمع نظيرا لهذه الحاسة الشفافة المتوفرة التى تختلج لكل لمحة من لمحات اللون وكل شعاع من أشعة النور وتفطن الى ألطف ما يبديه للعين من محاسن الامتزاج والمقابلة وأصفى ما يجلوه من دقائق المباينة والمشاكلة . فيصيح صيحة الوهل حين يرى الوجنة الحمراء الى جانب الصدغ الأدعج .

ياوجنتيه اللتين من وهج فى صدغيه اللذين من دعج
ما حمرة فيكما أمن خجل ؟ أم صبغة الله؟ أم دم المهج ؟

ويصيح هذه الصيحة كلما رأى هذا المنظر :

ليت شعرى أسحر عينيك داء الـ قلب أم نار خدك الوهاج

ويقول فى مثل هذا المعنى :

تلقى جنى التفاح فى وجناته وترى جنى العناب فى تطريفه
متعت منه مسامعى ومراشفى بنشير لؤلئه وماء رصيفه

ويصف قينة فلا يكاد يعرض من مناظرها لغير الألوان التى فى وجهها وثيابها .

وقينة ان منحت رؤيتهـا   رضيت مسموعها ومنظرها
شمس من الحسن فى معصفرة   ضاهت بلون لهـا معصفرها
فى وجنات تحمر من خجل   كأن ورد الربيع حمـرها

ويقول فى ساقية :

بنت كرم تديرها ذات كـرم   موقد النحر مثمر الأعناب
حصرم من زبرجد ، بين نبع   من يواقيت جمرها غير خاب
فوق لبات غادة ترك الخـا   لى من كل صبوة وهو صاب
تحمل الكأس والحلى فتبدو   فتنة الناظرين والشراب

وفى قينة :

وشرابنـا وردية   لكئوسها شرر يطير
حمراء فى يد أحمر الو   جنات ملثمة مهـير

وفى مثلهـا :

اذا هى قامت فى الشفوف أضاءها   سناها فشفت عن سبيكة سابك

وفى قيـان مجتمعات :

لابسات من الشفوف لبوسا   كالهواء الرقيق أو كالسراب
ومن الجـوهر المضىء سناه   شـعلا تلتهبن أى التهـاب

وليس ألطف من قوله فى وصف الأعناب السـود :

سود لهن من الظلماء ألوان

وفى العنب الأبيض :

لم يبق منـه وهج الحـرور   الا ضياء فى ظروف نـور

أما الخمر فربما كان نصيب عينه من نشوتها أجمل لديه وأحب اليه من نصيب السكر عند الشاربين — اذ تراه لايصف سكرها كما يصف الوانها وألوان أقداحها بل هو يكاد يحسبها لوناً شائعاً فى الفضاء كما قال :

صفراء تنتحل الزجاجة لونها فتخال ذوب التبرحشو أديمها
لطفت فقد كادت تكون مشاعة في الجو مثل شعاعها ونسيمها

وكما قال في موضع آخر :

نضا الدهر عن آسارها جل لونها فغادرها من لونها في غلائل
ثوت تصطلى شمس الظهائر برهة الى أن أفادت لون شمس الأصائل

وهكذا يقول فى الرياض التى

توقد فيها كلما تلمع الضحى كواكب يذكو نورها حين تشمس

أو فى الشقائق التى هى :

ترف لأبصار كحلن بها ليرين كيف عجائب الحكم
شعل تزيدك فى النهار سنى وتضيء فى محلولك الظلم
أعجب بها شعلا على فحم لم تشتعل فى ذلك الفحم

وهكذا يقول فى كل شيء .

وليست حاسة البصر متفردة بهذه القوة بين حواس ابن الرومى ولاحظها من الذكاء والتوفز بأوفر من حظ غيرها ، فان الرجل كان يسمع ويشم ويذوق ويتلمس كما كان يبصر ويتصور ، فلا تقصر حاسة من حواسه عن أختها ولا تشكو احداهن كلالا أو فتورا فى حصتها من التمييز والشعور ، وهو القائل في وصف صوت :

صوت ندى وأنفاس مساعدة كأنما نفس منهن أنفاس
يظل سامعه لدنا مفاصله كأنما فترت أوصاله الكاس

وفي وصـف مغنيـة :

مد في شـأو صـوتها نفس كا
ف كأنفـاس عاشـقيها مـديد
وأرق الدلال والغنـج منـه
وبراه الشـجا فـكاد يبيـد
فـتراه يمـوت طـورا ويحيـا
مسـتلذ بسـيطه والنشـيد
فيـه وشى وفيـه حلي من النـ
غم مصوغ يختـال فيـه القصـيد

فكأنه قد بلغ في تحسس الصوت مرتبة الموسيقيين الذين يتمثلون للانغـام ألوانا وزخارف وأوشية تكاد تنطبع فى صـفحة الخيـال أو تكاد تدركها العين لشدة بروزها فى قرارة الوجدان . وهو لا يدع لك أن تشرح أو تستخلص ما تقرأه من كلامه حتى يقول لك بالعبـارة الصريحة أنه يصل بين الرؤية والسماع ويترجم بين الحاستين فينقـل الى لغة العيون ما تضمنته لغـة الآذان . واليك ما يصف به احـدى القيـان :

ذات صـوت تهزه كيف شاءت ... مثلما هـزت الصـبا غصن بان
يتثنى فينفض الطـل عنـه ... في تثنيـه مثـل حب الجمان
ذلك الصوت فى المسامع يحكى ... ذلك الغصن فى العيون الروانى

ثم يستطرد الى تمييز الأنغام فيقول :

جهورى بلا جفـاء على السـ ... ـمع مشـوب بغنـة الغـزلان
فيه بم وفيـه زير من النـ ... ـغم وفيـه مثالث ومثـان
فتراه يجل فى السـمع حينـا ... وتراه يـدق فى الأحيـان
رخمتـه ورقرقته وضـاهى ... فعلها الأحمـران والأسمران
فهو يحكى ترقرق النهى فى الر ... يح لعيني ذى غلة صـديان
يلج السـمع مسـتمرا الى القلـ ... ـب بلا آذن ولا اسـتئذان

وانك اذا قرأت مدائحه الأخريات في القيان المحسنات وأهاجيه في شنطف ودبس وأبي سليمان ومن لايجيد هذه الصناعة من المغنين والمغنيات علمت أن له أذنا واعية تهفو الى السماع الجميل وتنفر من السماع القبيح ، واذا قرأت مبتكراته في خصائل الأزهار والرياحين ولذة الاستمتاع بروائحها وتمييزه لمراتبها علمت أنه كان يستروح من جمال مشموماتها مثل ما كان يستروح من جمال مناظرها ، واذا قرأت ما قال في الموز الذي « يدفعه البلع الى القلوب » وفي المشمش الذي اذا رأيت بستانه « فأيقن بحق أنه لطبيب » وفي الدجاجة التي تلوح له « سميطة صفراء دينارية » والتي « يكاد اهابها يتفطر » . أو قرأت مقطوعاته في القطائف والفطائر واللوزينج والحلوى التي كان يقرظها ويفتن في تشبيهها علمت كيف كان النهم بالمناظر والطعوم بابا عنده للنهم بالطعام ، بل حسبك من دليل على شراهة حاسة الطعم عنده وقوة التذاذه بها قوله انه ما كان ليحفل بالموت أو ليجزع من القبر « لولا فواكه أيلول .. ! »

وحاسة اللمس في هذه الأداة الحسية اليقظى كحواس البصر والسمع والشم والطعم في الدقة والرفاهة والانتباه . فها هو ذا يصف الريح الشمالية :

وشمأل باردة النسيم   تشفي حرارات القلوب الهيم

. . . .

شاردة في الليل بالنميم   بين نشير الروض والخيشوم

كأنها من جنة النعيم

وها هو ذا يصف الليل في شهر أيلول :

ياحبذا ليل أيلول اذا بردت   فيه مضاجعنا والليل سجواء

وجمش القر فيه الجلد فائتلفت   من الضجيعين أحشاء فأحشاء

أو هاهو ذا يصف البارد :

ألذ من معتـق الرسـاطون وقهـوتى قطـر بل وكركين
رجـرجة من ماء ليل تشرين كرونق السيف اليمان المسنون
باتت على طود نياف العرنين تنفحهـا الريح برس ممنون
فى شطر كوز صنع طب افنون أخضر فى خضرة جرو اليقطين
ألـست يا محرومها بمغبون

فها هنا تلمس معه برد الهواء الذى « يجمش » الجلود والاحشاء بل ها هنا يخيل اليك أن لبرد الماء في « شطر الكوز » الأخضر ثقـلا راسباً ينقع الغلة بالرجرجة قبل أن ينقعها بالشراب ، وأن الشـاعر ما اختار « معتق الرساطون » من أسماء الخمـر الا لأنها كلمة مجسمة أشبه بالرصاص البارد الذى ترى لاستقراره راحة كراحة الظمئـان بعد الارتواء . ثم تعيد نظرك فى الأبيات فتعجب ماهى الحاسة التى لم تشترك في وصف هذه الأبيات ؟؟ أهى حاسة البصر وهى ترى للماء رونقا كرونق السيف اليمان المسـنون ، وترى خضرة الكوز كأنه جرو اليقطين ، وترى «شـطر »الكوز وهو كأنمـا تفلق من برودة ما فيـه ، وترى صـنعة الكوز فاذا هى صـنع قادر صناع ؟ أم هى حاسة السمع وهى تصغى الى رجرجة المـاء ونفح الريح ؟ أم هى حاسة الرى وهو هنا ناقع لايبقى من الظمأ بقية فى الصدور ؟ أم هى حاسة الخيال وهو يرتفع بالكوز الى رأس الطـود النيـاف العرنين ويشبع القلب بالخمر المجلوبة من قطر بل وكركين ؟ فأوجز ما يقال فى تصوير ابن الرومى لهذا الكوز أنه قد التهمه حسا بكل مافيه من منظور ومسموع ومشروب ومتخيل وملموس .

فهذه أيها القارىء نفس تامة الأداة تشـعر شعوراً شديداً بالحياة من حيثما واجهتها وتداخل الطبيعة فى كل جزء من أجزائها . فقد عاش صاحبها يوما يوماً من عمره ، وناحية ناحية من وجـدانه ولابس الحياة ولابسـته .

ودامت الدنيـا له غضـة كأنها الجـارية الناهد

وليس الأمر كله حسا بالظواهر كذلك الحس الذى لا مذهب له وراء العيون والآذان والآناف ، ولا هو بالدقة التى ترهف الحواس ارهافا فلا يكون قصاراها الا أن تقابل بين المرئيات والمسموعات أو بين هذه وتلك وبين المشمومات والملموسات ... كلا ! فان هذه اليقظة الحسية لتصاحبها يقظة فى الشعور الباطنى تسرى به فى كل مسرى وتنفذ به الى كل منفذ وتترجم العواطف والأخلاق كما تترجم المناظر والألحان ، فاذا تتبع « المكر » فى خبايا الفكر فهو القائل فى ذلك قولا لا يسبقه فيه شاعر :

لك مكر يدب فى القوم أخفى ... من دبيب المدام فى الأعضاء
أو دبيب الملال فى مستهامـ ... ـين الى غاية من البغضاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيـ ... ـب الى قاصد له بالتواء

واذا جال الحزن فى نفسه بدت منه على الكون غشاوة ولاح له كأنما نفخ فى الصور ودمر كل عامر .

وأظلمت الدنيا وباخ ضياؤها
نهارا ، وشمس الصحو حيرى على القمم

. .

. . . .

وأبدى اكتئابا كل شيء علمته
واضعاف ما أبداه من ذاك ما كتم

ثم عرف انه هو الحزن الدخيل ، وليست الدنيا البادية للعيان هى التى يراها بتلك النظرة الشاحبة فقال :

كذاك أرى الأشياء اما حقيقة
بدت لي واما حلم مستيقظ حلم
ولم يحلم اليقظان الا وقد أتت
على لبه دهياء هائلة الفقم

وقد يتأمل المـرأة فاذا هــو محيط — في بيت واحد — بسر «الأنوثة» كله ، وبما في المرأة من ضعف وقوة ، وبما هنـالك من العجب في أن تكون هذه المخلوقة العجيبة انسانا كالرجل وهي والرجل جسـدان مختلفان وطبعان متبـاينان ، وأن تكون غريبة عنـه وهي قرينة له ماعن مقـارنتها محيص . وذلك كله ملحوظ في البيت الذي يقـول فيـه :

ومن عجائب ما يمنى الرجـال به　　مستضعفات لنا منهن أقـران

ولا عجيبة هنا الا العجيبة التي يحسها من أحس سر الأنوثة وسر الرجولة وأحاط بالتوفيق الغريب بين هذين الانسانين حيث يفترقـان وحيث يلتقيان ، واستوعب لغز « الجنس » ببديهة واسعة لم يحجبها عن ذلك اللغـز أن الجنسـين أشيع ما يرى في عالم الانسـان والحيوان .

وأما وقد ذكرنا المرأة ولغز الجنس المنوط بها ، فقد يـكون من الواجب أن نعرف مقدار ماشغلته من هـذه النفس وحركته من هـذا الاحساس ، فاذا كان ابن الرومي عابدا للحياة ، فالمرأة ولا ريب كاهنة هذا المعبد التي تتم على يديها مراسم العبادة ، ومحورها الذي تلتف حوله الشعائر والقرابين ، واذا كان ابن الرومي نفسـا تيقظت فيهـا أداة الحس والشعور ففي المرأة ولا ريب تلتقي أشـد مغريات الحس وأعمق بواعث الشعور . ولابد من شأن لهذه «المخلوقة» في حيـاة هذا الشاعر . فما هو هذا الشأن ؟ وما حقيقته ؟ وما مداه ؟ وهل هو شأن (المرأة) أو شـأن (امرأة) خاصة أو أكثر من امرأة خاصة ؟ وهل عشق ؟ وهل أحب ؟ وهل عرف ماهو الحب الذي نعني به شيئا أكثر من العشق وأكثر من الغـرام ؟؟

فأما هذا الشأن فقد كان ولا يعقـل الا أن يكون ، وما فرغ ابن الرومي قط من شأن النساء ولا كره الشيخوخة الا لأنها تصـده عن المرأة أو تصد المرأة عنه ، فلأجلها قبل كل شيء كان يخاف غائلة السن ولأجلها قبل كل شيء كان يتمنى خلود الشباب :

أخشى كسادي على النساء اذا أسـ ـنت والسن جمة الخبل
وانني من كسادهن على سـ ـنى لأولى بالخوف والوجل

ولأجلها كذلك تمنى أن تنعكس أيام العمر فيتقدم فيه الهرم ويتأخر فيه الشباب :

فالعيش طعمان عند ذائقه مر التوالى مستعذب الأول
من عسل تارة ومن صبر لهفى لتأخير عقبة العسل
لو أنها أخرت لطاب بها العيـ ـش وان جاوزت شفا الأجل

وفي وسعك أن تقول انه عرف « العشق » الذى لايعرفه الا من تثبت علائقه بامرأة واحدة دون سائر النساء ، فوصف ما وجده من هذا العشق فى غير موضع وقال من ذلك:

قد كنت أبكى لأصحاب الهوى زمناً
فهل لى الآن من باك فيبكينى
أهكذا يجد العشاق كلهم ؟
يا رحمتا للمحبين المساكين !

وقال :

الحب داء عياء لا دواء له
تضل فيه الأطباء النحارير
قد كنت أحسب أن العاشقين غلوا
فى وصفه فاذا فى القوم تقصير
سقيا لأيام لم أخبره تجربة
الا بما وصفت عنه الأخابير

بل جرب الغيرة فقال فى تهوينها على العاشق مالا يقوله الا غيور :

اذا خلة خانتك بالغيب عهدها
فلا تجعلن الحزن ضربة لازب

وهب أنها الدنيا التي أنت موقن
بفرقتها اذ أنت في شأن لاعب

فهو قد عشق وغار وكابد لوعة الرغبة التي يحصرها العشق في انسانة واحدة بين سائر النساء وفارق وناجى وذكر وقال من ذلك في معشوقة فارقها على أمل اللقاء :

أعلى العهد أنت أم حلت عنه
جعل الله قبل ذاك مماتي
لست أنسى امتناع صبرك للتود
يع والبين مؤذن بشتات

الا أن هذا كله عشق وليس فيه حب . وقد يكفي الاحساس والعاطفة لاضرام العشق واغرام المرء بامرأة يشتهيها ويغار عليها ويشعر نحوها بذلك الشعور الفطري الذي ركب في عامة الرجال وعامة النساء . أما الحب الذي نعنيه فلا يكفي فيه الاحساس والعاطفة ولابد فيه من « الروحانية » أو الزهد والتضحية ونكران النفس ومن ثم نكران الحياة ويقترن ذلك بالتصوف والارتفاع بالمرأة الى مافوق مرتبتها في الطبيعة وفوق حظها من محاسن الأجسام . اذ الطبيعة لاتعرف في المرأة الا أنها أنثى وكذلك العاشق ، أما المحب فانه قادر على أن يفيض من روحانيته نوراً على من يحب وأن يحفها بهالة علوية قد يهابها وقد يخشع لها في بعض المواقف خشوع المتنسكين . ولم يكن لابن الرومي نصيب من هذه الروحانية ولا من ذلك النور ، فما كانت المرأة في حسه أو عاطفته الا أنثى طبيعية ومخلوقاً جميلا فيه متعة للأعين ومسرة للقلوب ، ونساؤه كلهن نساء المتعة والمسرة على نسق واحد يلخصه مثل هذا البيت :

حوراء في وطف قنواء في ذلف لفاء في هيف عجزاء في قبب

وهو في هذا أيضا وفي « للعبقرية اليونانية » وللصورة التي رسمها اليونان لجمال « فينوس » فقد كان اليونان طبيعيين في الجمال

وطبيعيين فى العشق ولم يكونوا روحانيين فى شعر ولا فلسفة ولا تصوير . وخلاصة الحب عندهم أنه نسخة من حب «خلوى ودفنيس» فى غابة حفلت بالألوف من نسخ هذا الحب بين أزواج الطير والحيوان، فاذا تنزه فهو حب عصفور لعصفورة أو ظبى لظبية أو حيوان جميل لحيوانة جميلة ، يخلو من الكثافة ويزدان بالخفة والرشاقة ، ولكنه لايخلو من « الجسدانية » ولا من « الطبيعية » ولا يفارق الأرض ليصعد الى سماء « الروحانية » والنور . واذا تنزه بعد ذلك فهو صداقة حامية يشترك فيها الفكر والذوق والغريزة ، ولا ينفسح فيها مجال كبير للنزاهة والتقديس .

حب الطبيعة

وننتقا .. ذلك الى الخاصة الأخرى من خواص الطبيعة اليونانية وهى حب ا مة .

فقد وصف الطبيعة شعراء كثيرون ولم يمنحها الحياة الا قليلون! أما الذين منحوها حياة نحبها وتحبنا ونعطف عليها وتعطف علينا ونناجيها وتناجينا فأقل من هؤلاء القليلين .

وذلك أن الشاعر قد يؤخذ بأحمرها وأبيضها وأصفرها وأخضرها ويفتن بما فيها من الزراكش والأفانين ثم لايعدو بذلك أن يمدح شيئاً قد يجد مثله فى ألوان الحلى وأصباغ الطنافس ونقوش الجدران ، أو نحن نخطو وراء ذلك خطوة فنقول أنه لايعدو بذلك أن ينظر الى دمية فاتنة يروقه منها وجه مليح وقوام ممشوق وحسن مفاض على الجوارح والأوصال ،ولكنه لايتطلع منها الى عطف ولا يفتش فيها عن طوية .

وقد يستريح الشاعر الى الطبيعة لأنها ظل ظليل ، ومهاد وثير ، وهواء بليل وراحة من عناء البيت وضجة المدينة ، فلا يعدو بذلك أن يستريح اليها كما تستريح كل بنية حية الى الماء والظل والهواء — كذلك تهجع السائمة فى المروج ، وكذلك تهتف الضفدع فى الليلة القمراء .

وقد يمنحها الشاعر حياة من عنده أو من عند الخرافات والأساطير فاذا هى ..يضة لاتصلح للتعاطف والمناجاة ولا يصدر عنها الا الفزع والأحجام ولا تقوم بينه وبينها الا الحواجز والعداوات .

أما الطبيعة التى تحب وتناجى وينم التعاطف بين الشاعر وبينها عن ثروة غزيرة من الشعر والشعور فهى طبيعة الحور الخافقات فى الهواء ، والعرائس السابحات بين الأمواج ، والعذارى الراقصات فى عيد الربيع ، والجنيات الهامسات فى رفرفة النسيم ورقرقة الغدير وحنين الصدى وحفيف الأغصان ، أو ان شئت فقل انها هى الطبيعة

العامرة بمافى البروق والرعود والسماوات والأعماق من بطولة وعظمة، ونضال جياش بالغضب الظافر ، والسطوة المجيدة ، والخطر المثير، والشجاعة التي تقدم ولا تحجم وترجو ولا تخاف ، أو ان شئت فقل انها هي الطبيعة التي تبث الاغراء في كل شيء حتى ليحذر الملاح لجة البحار مخافة أن تستهويه بنات الماء من وراء زرقة الأمواج ، فيثب الى أحضانها وكأنما يثب الى أحضان عروس طال بها عهد الغياب :

فعلى هذا النحو تنجلى الطبيعة للعبقرية التي تحبها وتمنحها الحياة . فليست هي دمية ولا حلية ، وليست هي مروحة للهواء ولا مجلسا للمنادمة ، ولكنها قلب نابض وحياة شاملة ونفس تخف اليها وتأنس بها و « ذات » تساجلها العطف وتجاذبها المودة ، ثم هي عمار لا خواء فيه وأسرة لاتبرح منها فى حضرة قريب يناجيك وتناجيه ويعاطيك الاخلاص وتعاطيه .

وقد كان ابن الرومى يحب الطبيعة على هذا النحو ويستروح محاسنها نفسا تصبى الناظر اليها وتتبرج له « تبرج الأنثى تصدت للذكر » ويرى وراء هذه الزينة التي تبدو على وجهها عاطفة من عواطف العشق تتعلق بها العفة والشهوة تعلقها بالعاطفة الانسانية الشاعرة :

فهى فى زينة البغى ولكن   هي فى عفة الحصان الرزان

ولا يقول هذا القول على سبيل الاستعارة اللفظية ولكنه يقوله ويصف الطبيعة الوصف الذى يقتضيه ذلك الشعور ويمليه ذلك التصور، فيشف وصفه لها عن شغف الحى بالحى وشوق الصاحب الى الصاحب ، وتسمع من تشبيبه بها رنة طرب أو شجو لا تخرج الا من نفس مفعمة بأصداء الطبيعة قد نفذت الى طويتها وشاركتها فيما تتخيله لها من حزن وسرور فهو يحيا مع الشمس الغاربة حين تضع على الأرض « خدا أضرع » من دهشة الفراق ، وهو يحيا مع

النوار حين تخضل بالدمع عيونه وتهبط مع الليل شجونه ، وهـــو يحيا مع الذباب المغرد والطير الساجع فى ساعة الغروب التى يمتـــزج فيها الحنان الذائب بالشوق الخفيف ، وهـــو ينتظم ذلك كله فى أنشودة واحدة لم تدع مزيداً لفن اللون والحـركة ولا مزيداً لوحى الخيال والسليقة :

اذا رنقت شمس الأصيل ونفضت ... على الأفق الغربى ورسا مذعذعا
وودعت الدنيا لتقضى نحبهــــا ... وشوّل باقى عمرها فتشعشعا
ولاحظت النـــوار وهى مريضة ... وقد وضعت خدا الى الأرض أضرعا
كما لاحظت عـــواده عين مدنف ... توجـــع من أوصابه ما توجعــا
وظللت عيون النور تخضل بالندى ... كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينها صـــورا اليهـــا روانيا ... ويلحظن ألحاظا من الشجو خشعا
وبين اغضـــــاء الفراق عليهما ... كأنهما خـــلا صـــفاء تـــودعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة ... من الشمس فاخضر اخضرارا مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريحان ظله ... وغنى مغنى الطــــير فيـــه فسجعا
وغـــرد ربعى الذباب خــــلاله ... كما حثحث النشوان صنجا مشرعا

وهو يعرف الربيع حياة تتحرك فى الوحش والطير كمـــا يعــرفه زخرفا تتحلى به الأرض والسماء . لأنه وليمة الحياة للأحياء :

تجد الوحوش به كفـــايتها ... والطـــير فيه عتيـــدة الطعم
فظباؤه تضـــحى بمنتطـــح ... وحمـــامه يضحى بمختصم
ان الربيع لكالشباب وان الصيـ ... ـف يكســــــعه لـــكالهرم

وهو ينتشى مع الطيور والأغصان اذا بعثت الشمال بتحيتها و

هبت سحيرا فناجى الغصن صاحبه ... موسوسا وتنادى الطير اعـــلانا
ورق تغنى على خضر مهـــــــدلة ... تسمو بهـــا وتشم الأرض أحيـــانا
تخـــال طائرها نشوان من طرب ... والغصن من هـــزه عطفيه نشوانا

وهو يستمع الى الروضة فى بكائها وشدوها اذ هى :

يتداعى بهـــا حمـــائم شتى كالبواكي وكالقيان الشوادي
من مثـــان متمات قـــران وفـــراد مفجعـــات وحـــاد
تتغنى القـــيان منهن في الأ يك وتبكي الفرادشجو الفراد

وهو يفهم الشعر الذي لاينشده صاحبه للأجر والصنعة :

لكن كما راقت القمري جنته فظل يتبـــع تغـــريداً بتغريد

وهو يحسن الاصـــغاء الى سر الحيـــاة الكامنة في هذه الأرض وينصت الى ما يبوح به الربيع في نجواها اذا

لم يبق للأرض من سر تكاتمه الا وقد أظهرته بعد اخفـــاء
أبدت طرائفوشي منزواهرها حمرا وصفرا وكل نبت غبراء

وهو يشتهي جمـــــال الطبيعة من كل جارحة في نفسه اذا بدت للعـــين :

برياض تخايل الأرض فيهـــا خيـــــلاء الفتـــاة في الابراد
منظـــر معجب ، تحيـــة أنف ريحهـــــا ريح طيب الأولاد

وقد بلغ من قوة هذا الاحساس فيه أن تجاوز حيز البديهـــة الى حيز التفكير ، كأنه التفت الى نفســه فأدرك من طول المراقبة وتواتر الاحساس المتشابه علة أنسه بالطبيعة ، وعلم أنه أنس مستمد ممـــا يفيضه عليها من دلائل الحياة ، فقال في أبيات يصف بها الأغصان :

تلاعبها أيدي الرياح لذا جـــــرت
فتســـمو ، وتحنـــو تارة فتنـــكس
اذا ما أعارتها الصـــــبا حـــركاتها
أفادت بها أنس الحيــــــاة فتؤنس

ولما شغف بالشباب ذلك الشغف المتوهج لم ينس معه الشـــغف بالطبيعة ولم يفرق بين ربيعه وربيعها وبين ثمراته وثمراتها : بل خـــلع من شـــبابه عليها وخلع من شبابها عليه ومزج بينهما مزجا لا تخـــاله

يكون الا فى مهجة واحدة وجسد واحد . فاذا تذكر الشباب فاسمع ما هذا الذى يذكره بالشباب :

يذكرنى الشباب صدى طويل الى برد الثنايا والرُّضاب
وشـــح الغانيات عليـه الا على ابن شيبة جون الغراب

. . . .

يذكرنى الشباب جنان عدن على جنبات انهـــار عذاب
تفيىء ظلها نفحات ريــح تهز متـون أغصـان رطاب
اذا ماسـت ذوائبها تداعت بواكى الطير فيها باتتحاب
يذكرنى الشباب رياض حزن ترنم بينهـا زرق الذبـاب
اذا شمس الأصائل عارضتها وقد كربت توارى بالحجاب
وألقت جنـح مغربها شعاعا مريضا مثل ألحاظ الكعاب
يذكرنى الشباب سراة نهى نمير المـاء مطرد الحجـاب
قرته مزنة بـكر وأضحى ترقرقه الصـبا مثل السراب
على حصباء فى أرض هجار كأن ترابهـا ذفر المـلاب
له حبـك اذا اطـردت عليه قرأت بهـا سطوراً فى كتاب
تذكرنى الشباب صبا بليل رسيس المس لا غبة الركاب
أتت من بعدما انسحبت مليا على زهر الربا كل انسحاب
وقد عبقت بها ريا الخزامى كريا المسك ضوع باتتهـاب
يذكرنى الشباب وميض برق وسجع حمـامة وحنين ناب
فيا أسـفا ويا جزعا عليه ويا حزنا الى يوم الحساب
أأفجع بالشباب ولا أعزى ؟ لقد غفـل المعزى عن مصابى
تفرقنـا على كره جميعـا ولم يك عن قلى طول اصطحاب
وكانت ايكتى ليـد اجتنـاء فعادت بعـده ليـد احتطاب
أيا برد الشباب لكنت عندى من الحسنات والقسم الرغاب
بليت على الزمان وكل بـرد فبين بلى وبين يد استلاب
وعـز على أن تبـلى وأبقى ولكن الحوادث لا تحـابى

لبستك برهة لبس ابتـــذال ... على علمي بفضلك في الثياب
ولو ملكت صــونك فاعلمنه ... لصنتك في الحريز من العياب

وهذا حنين الى الطبيعة وشبابها وحنين الى العمر وشبابه لاتدرى أين يبتدىء أحدهما وأين ينتهى الآخر . فهما حنين واحد وشباب واحد وفاكهة واحدة وروضة واحدة . وانك لتذوق الفاكهة فتذوق فيهاطعم الشفاه والخدود وتجد فيها مس الضفائر والنهــود وتجمع فيها بين وليمة الحب ووليمة البستان بعد أن تسمعه يقول :

متع الظبى من جنى غصنك اللذ ... ن يمتعك منه قبــل انخضاده
من عناقيــده وتفــاحه الغض ... ورمــانه ومن فرصـــــاده

أو بعــد أن تســمعه يقــول :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعــان : تفــاح ورمــان
وفوق ذينك أعنــاب مهـــدلة ... سود لهن من الظلمــاء ألــوان
وتحت هاتيك عناب تلوح بـــه ... أطرافهن قلوب القــوم قنــوان
غصــون بان عليها الدهر فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البـــان
ونرجس بات سارى الطل يضربه ... واقحوان منــير النــور ريــان
ألفن من كــل شيء طيب حسن ... فهن فاكهة شــتى وريحـــان

فلا افتراق عنده بين الطبيعة والشعور ، يكاد لاينظر الىالحسان الا تذكر الروضة والبستان ، أو يكاد لاينظر الى الروضة والبســتان الا بنظرة تثير الرغبة وتوقظ الأشــجان .

ولو كان للطبيعة فى بلاد العراق ظواهر أخرى غير هذه الظواهر التى توزع وصفها فى قصائده ومقطوعاته لقرأت له فى تلك الظواهر الأخرى وصفاً على هذا الأسلوب يحييها ويناجيها ويلهمها القــول والعمل ويزودها بالسير والأحاديث ، كما ترى فى الأساطير المــروية عن بلاد الرعود والبراكين والمغاور والآجام لأنتــا لا نحسب هــذه القريحة قادرة على أن تتخيل شيئاً من الأشياء بغير حياة ، ولا على أن تفصل بين عالم الطبيعة وعالم الحياة فى أى البلاد

التشخيص والتصوير

والقريحة المطبوعة على اعطاء الحياة مطبوعة كذلك على اعطاء الشخوص ، أو على ملكة التشخيص .

ولكننا نحب أن نستثنى هنا ذلك التشخيص الذى تلجىء اليه ضرورة اللغة وتسهيل التعبير مع علم المتكلم بما فى كلامه من المجاز والمفارقة . فقد يتكلم الشاعر أو غير الشاعر عن الشمس بضمير المؤنث، وعن القمر بضمير المذكر ، وقد يسند اليهما فعال الأحياء العاقلة وغير العاقلة ، ولكنه بعد تعبير لفظى ليس وراءه تصور وليس وراء التصور — ان كان — أثر من الشعور ، ولاسيما الشعور المتبادل بين طرفين متعاطفين .

وانما المقصود بالتشخيص تلك الملكة الخالقة التى تستمد قدرتها من سعة الشعور حيناً أو من دقة الشعور حيناً آخر ، فالشعور الواسع هو الذى يستوعب كل مافى الأرضين والسموات من الأجسام والمعانى، فاذا هى حية كلها لأنها جزء من تلك الحياة المستوعبة الشاملة ، والشعور الدقيق هو الذى يتأثر بكل مؤثر، ويهتز لكل هامسة ولامسة فيستبعد جد الاستبعاد أن تؤثر فيه الأشياء ذلك التأثير وتوقظه تلك اليقظة وهى هامدة جامدة صفر من العاطفة خلو من الارادة ، وهذا الشعور الدقيق هو شعور ابن الرومى بكل ما حوله ، وسبب ما عنده من قدرة الأحياء وقدرة التشخيص : قدرة التشخيص التى هى ملكة مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين ، وليست قدرة التشخيص التى هى حيلة لفظية تلجئنا اليها لوازم التعبير ويوحيها الينا تداعى الفكر وتسلسل الخواطر .

خذ مثلا للمعانى « التشخيصية » التى يأتى بها اللفظ والمعانى التشخيصية التى يأتى بها الشعور من أبيات ابن الرومى فى مشهد الشمس ساعة الغروب .

فقد ينظر بعض الشعراء الى الشمس فى هذا المشهد فيجعلهاحسناء

مفارقة ، ومادامت حسناء مفارقة فهي معشوقة أو عاشقة ؛ وما دامت معشوقة أو عاشقة فهناك قصة غرام تدور على هذا المعنى الى حيث ينتهي بها المطاف ؛ وكل هذا لأن الشمس مؤنثة في اللغة العربية وحسناء في تشبيهات الشعراء ! فهي قصة مولدة من لفظ عرضي قد يكون لها نصيب من الشعور ؛ وقد لايكون لها أقل نصيب ، أما الشيء الذي لايمكن أن يخلقه اللفظ ولا التشبيهات ولا تسلسل الخواطر فهو الشعور العميق بوحشة الغروب وماينعكس من ذلك الشعور العميق على الشمس من ترنيق وضراعة وانكسار ونظر يائس كنظر المريض الى العواد ووجوم شائع بينها وبين عيون النور التي تغرورق على الأغصان لتدمع وتلحظ ألحاظا خشعا من الشجو والاغضاء فلابد اذن من شعور يسبق التشخيص ويلقي عليه ظله ويثبت فيه من حياته ، وأيا كان لفظ الشمس من التأنيث أو التذكير وأيا كان موقعها من تشبيهات الشعراء ، فان هذا الشعور لايتغير ولا يضعف ولا يزول .

هذا الشعور هو الذي يسبق كل تشخيص لابن الرومي أو كل « صورة مشخصة » في شعره ، سواء تكلم عن بلد أو يوم أو خليفة أو فترة من العمر أو معنى محسوس أو غير محسوس .

فأنت تستخرج من بغداد « صورة مشخصة » حين يقول عنها :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ... ولبست ثوب العمر وهو جديد
فاذا تمثل في الضمير رأيته ... وعليه أغصان الشباب تميد

وأنت ترى للمهرجان والنيروز « شخصين » يشبان ويشيبان ويدينان بالأديان ويحدوهما الشوق وتلوح عليهما الهيبة حين يلوحان لك في قوله :

شبب المهرجان لهوك فيه ... فغدا من غطارف الشبان
وكذاك النيروز رد عليه ... بك شرخ الشباب ذى الريعان
ولذكرت ذا وذاك جميعا ... مسنن الملك في بني ساسان
عمرا برهة على دين كسرا ... وهما الآن بعده مسلمان

. . . .

فعلى منظـرهما هيبـة العـز ونور الاسلام والايمـــان
واحباك حب مولى شــكور فهما وامقــان ، بل عاشـقان
كل يوم وليلة فرط شــوق ونزاع اليـــك يطلعـان
فبهــذا وذاك حتى يجيئـا غلة فـوق غـلة الظمئـان
لو أصـابا الى الغلاط سبيلا غالطا الحاسبين فى الحسبان
أو يخلى عنـان ذاك وهـذا سبقا موقتيهما فى الـزمان
ولودا اذا همـا بك حـلا لو يقيمـان ثم لا يرحـلان
وعـزيز عليهما أن يكونا عنك لولا الازعـاج يرتحلان
لو أطاقا هنـاك للدهر قسرا حرنا سائقيه أى حــران

ولهنوات النفوس « شخوص » عنده يخاطبها وتخـاطبه ويعتب عليها وتعتب عليه وتسمع بينه وبينها هذا الحوار :

ليتنى ماهتكت عنـكن سترا فثوتن تحت ذاك الغطـــاء
قلن : لولا انكشافنا ما تجلت عنك ظلمـاء شبهة قتمـاء
قلت: أعجب بكن من كاسفات كاشفات غواشى الظلمـــاء
قد أفدتننى مع الخبر بالصا حب أن رب كاسف مستضاء
قلن : أعجب بمهتــد يتمنى أنه لم يزل عـلى عميـــاء

الى آخر ذلك الحـــوار .

والشباب روح أو ملك يعيش كما يعيش الرجل وزميله من الجان فى بعض الأســـاطير .

أخى وألفى وتربى كان مولدنا معا وربتنى الأيام حيث ربا

والود كائن حى يعالجه القتل أو يترك الى الهرم فيموت :

أمت وديك عبطـة فمـه دعه على رسـله يمت هـرما

والعوسج شرير « ملعون » يهجى ويسخر منه ويقال فيه :

عذرنا النخـل فى ابداء شـوك يـذود به الأنامل عن جنـــاه
فمــا للعوسج الملعـون أبدى لنا شـوكا بلا ثمـــر نـراه

تراه ظن فيـــه جنى كـريما   فأظهر عـدة تحمى حمـــاه ؟!
فلا يتســـلحن لدفع كف ،   كفاه لؤم مجنـاء كفـــاه !

واذا كانت هذه قدرة ابن الرومى على خلق الأشـكال للمعانى المجردة أو خلق الرموز لبعض الأشكال المحسوسة فان القدرة التى سبق بها الشعراء فى الأمم كافة بغير شك ولاتردد هى قدرته البـالغة على نقل الأشكال الموجودة كما تقع فى الحس والشعور والخيال . أو هى قدرته على التصوير المطبـوع ، لأن هذا فى الحقيقـة هـو فن التصوير كما يتاح لأنبغ نوابغ المصورين . فلست أعرف فيمن قرأت لهم من مشارقة ومغاربة أو يونان أقدمين وأوربيين محدثين شاعراً واحداً له من الملكة المطبوعة فى التصوير مثل ماكان لابن الرومى فى كل شعر قاله مشبهاً أو حاكياً على قصد منه أو على غير قصد ، لأنه مصـــور بالفطرة المهيأة لهذه الصناعة فلا ينظر ولا يلتفت الا تنبهت فيه الملكة الحاضرة أبداً وأخذت فى العمل موفقة مجيدة سواء ظهر عليها أو سها عنها كما قد يسهو المصور وهو عامل فى بعض الأحايين .

انما التصوير لون وشكل ومعنى وحركة ، وقد تكون الحـركة أصعب مافيه لأن تمثيلها يتوقف على ملكة الناظر ولا يتوقف عـلى ما يراه بعينه ويدركه بظاهر حسه .ولكن تمثيل هذه الحركة المستصعبة كان أسهل شىء على ابن الرومى وأطوعه وأجراه مع ما يريد من جـد أو هزل وحزن أو سرور ، وقد مر بك وصفه لمشيته التى «يغربل فيها» وللأحدب الذى شبهه بالمصفوع وهو يتجمع ويتهيأ للصفع ويخشاه ! فأضف اليه هنا وصفه لحركة الكتان فى حقله :

وجلس من الكتان أخضر ناعم   توسنه دانى الرباب مطـير
اذا درجت فيه الشمال تتابعت   ذوائبه حتى يقـــال غـــدير

ووصفه لحـركة الرقاق فى يد الصـانع :

ما بين رؤيتها فى كفـــه كـرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمـــر
الا بمقـدار ما تـنداح دائرة   فى صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

ووصفه للقمر في سريانه :

وأسفر القمر الساري فصفحته ريا لها من صفاء الجو لألاء

ووصفه لحركة الري في النبات :

ويحور الخريف وهو ربيع وتسور المياه في العيدان

ووصفه للحركة البطيئة في سير السحائب:

سحائب قيست بالبلاد فألفيت
غطاء على أغوارها ونجودها
حدتها النعامى مثقلات ، فأقبلت
تهادي ، رويداً ، سيرها كركودها

فأنك تقرأ هذه الأبيات وأمثالها مما سبق أو لم يسبق في هذا الكتاب فيروعك منها — أول ما يروع — صدق تمثيلها للحركة في الجملة والتفصيل . ليس أصدق من وصف ذوائب الكتان بالغدير وهي تتلاحق مع الريح ، ثم يتمم تصوير الحركة هنا تصوير اللون الأخضر والملمس الناعم والغيم الذي يسري على جلس الكتان مع الليل في وقت الوسن ويسف بحواشيه المطيرة الى الأرض البليل. فالصورة كاملة لاتنقص منها سمة من سمات المكان والزمان والحركة ولا حظ من حظوظ العين واللمس والخيال ، ومثلها صورة الرقاق وهي تكبر في لمح البصر كما « تنداح » الدوائر في صفحة الماء ، ومثلها صورة الليلة القمراء وهي كاملة متحركة من بداية الأسفار الى السريان الى الصفحة الريا التي تطالعك بالامتلاء والنداوة الى الصفاء المحيط بكل هذا فاللألاء المشرق على ذلك الصفاء . ليس في البيت كلمة واحدة الا لها مكانها من الصورة ونصيبها من التلوين والتمثيل والتبيين ، ومثل ذلك المياه التي تسور في العيدان كأن لها وجيبا أو دبيبا يتتبعه الناظر بعينه ويصغي اليه بأذنه ، والسحائب التي لاتفرق بين حركتها وركودها لأنها أطبقت على أغوار البلاد ونجودها ، وهات ما شئت من صور له في وصف الانسان والحيوان والنبات والجماد فانك

لتجدن فيها كلها مثل هذا الصدق ومثل هذه الحركة ومثل هذه الحياة وقد يكون قولنا هذا من تحصيل الحاصل بعدما سلف من بيان احساسه باللون ويقظته لكل مايراه أو يسمعه أو يلمسه أو يدركه من ظواهر الأجسام وبواطن العواطف والأخلاق ، ولكنه تحصيل حاصل غير مألوف ولا مستغن عن بعض الابانة وبعض التفصيل .

ولو كان ابن الرومى مصوراً لما استغرب منه هذا الولع بالألوان والظلال والأشكال والحركات . لأنه كان لايستطيع اذن أن يشرع فى عمله قبل أن يلتفت الى عناصر الصورة المحسوسة ويجيلها فى روعه ويهيئها للظهور على قرطاسه . أما الشاعر فلا ضرورة فى نظم الشعر تقسره على أن يلتفت هذا الالتفات الدقيق الى كل لمحة من لمحات اللون والظل وكل صغيرة من صغائر الشكل والحركة . فاذا التفت الى ذلك فى عامة شعره بغير ضرورة قاسرة ولا طريقة مسبوقة فانما يلتفت اليه لأنه مطبوع على التصوير ينظر الى حوله فينطبع ما يراه فى حسه وان دق وخفى ـ كما ينطبع النور البعيد الضئيل فى مصور الفلكى المحكم التركيب .

وبودنا أن نثبت الآن قصيدة « المهرجان » النونية برمتها لأنها نموذج واف لشعر ابن الرومى فى هذا الباب، ولكنا نجتزىء منها بما يأتى وفيه الدلالة الكافية على هذه الملكة النادرة قال :

يمن الله طلعة المهرجان ... كل يمن على الأمير الهجان

. . . . . .

مهرجان كأنما صورته ... كيف شاءت مخيرات الأماني

. . . . . .

وأديل السرور واللهو فيه ... من جميع الهموم والأحزان

لبست فيه حفل زينتها الدنـ ... ـيا وزاقت فى منظر فتان

وأذالت من وشيها كل برد ... كان قدما تصونه فى الصوان

وتبدت مثل الهدى تهادى ... وادع الجيب عاطل الأبدان

فهى فى زينـة البغى ولكن ... هى فى عفة الحصـان الرزان
كادت الأرض يوم ذلك تفشى ... سر بطنانها الى الظهـران

. . . .

وتعود الرياض مقتبـلات ... ناعمات الشكير (١) والافناز

. . . .

زخرفت يوم نعمه حجـرات ... جد موطـوءة من الضيفان

. . . .

حجرات ميممات بنـاها ... من فضول المعروف أكرم بان
لم يكن يقتنى المسـاكن حتى ... يتقن المجـد أيمـا اتقـان
فأذيلت فيها تهاويل رقـم ... قائمـات بزينـة المزدان
ثم قام الكمـاة صفين من كـ ... ل عظيـم فى قومه مرزبان
كلهم مطرق الى الأرض مغض ... وعلى سيفه هنـالك حـان

. . . .

وتجـلى على السرير جبـين ... ذو شعاع يحول دون العيان
يمكن العـين لمحـة ثم ينهى ... طرفهـا عن ادامة اللحظـان
فله منـه حاجب قد حمـاه ... كل عين ترومه بامتهـان
فاستوى فوق عرشـه بوقار ... وبحلم من الحـلوم الرزان
ثم قام المجـدون مثـولا ... ضاربين الصـدور بالأذقان
ليس من كبرياء فيـه ولكن ... كل وجه لذلك الوجه عـان
فثنوا سؤدد الأمير وعـدوا ... فيه آلاءه بـكل لسـان
حين لم يجشموا التزيد لا بل ... ما تعدوا ما حصـل الكاتبان

. . . .

فقضوا من مقالهم ما قضـوه ... ثم آبوا بالرفـد والحمـلان
بعد ما ارتعـوا الأنامل فيما ... لا تعـداه شهوة الشهوان
من خـوان كأنه تطـع الرو ... ض وان كان فى مثال خوان
فوق الطير فى الصحاف وحاشى ... ذلك الطير من جفـاء الجفان

. . . .

(١) الشكير النبت الصغير

ثم سام الأمير سوم الملاهى وخلا بالمدام والندمان

. . . .

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوان
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات وهى صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادي الغنى عن الترجمان

. . . .

أوتى الحكم والبيان صبيا مثل عيسى بن مريم ذى الحنان

. . . .

لو تسلى به حديثة رزء لشفى داء صدرها الحران
عجباً منه كيف يسلى ويلهى مع تهييجه على الأشجان

. . . .

فترى فى الذى يصيخ اليه أمرات المحزون والجذلان

فتأمل فهل ترى فى وسع المصور القدير أن يلتفت الى لون أوظل أو شكل أو خط أو حركة فى المهرجان لم يلتفت اليها ابن الرومى فى هذه القصيدة ؟ وتأمل الشاعر هل تراه فى قصيدته الا كما قلنا فى بعض مقالاتنا : « كالرسام الذى بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه والأشكال يتفرسها ويطيل النظر الى ملامحها واشاراتها وما تشف عنه من المعانى ، وتشير اليه من الدلائل ويراقبها فى التفاتاتها ومواقفها وحركاتها لينثنى بعد ذلك الى لوحته فيثبت عليها ما توارد على بصره وقريحته من الألوان والمعارف والهيئات من حيث هى تحفة فنية تستهوى الحواس والأذواق ؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان واختيال الدنيا بمنظرها فيه وبرود الوشى التى أذالتها للناظرين، واللهو والسرور الذى

شمل كل شيء وأديل له من جميع الهموم والأحزان ، ثم يرسم حجرات الأمير بزخارفها وتهاويلها وضيوفها الغادين اليها الرائحين منها ، وقيام الكماة صفا بعد صف مطرقين الى الارض مغضين بالأبصار حانين على السيوف . ثم يرسم الأمير فوق سريره . وقد طلع على الجمع بوجه مهيب يسكن العين منه لحظة ثم ينهاها عن ادامة اللحظان ، ثم يذكر لك وقار الامارة وسمات الحلم والرزانة بين قوم يعنون له ويجلون قدره من الحب والتبجيل لا من الصلف والكبرياء ؛ ثم يرسم المادحين بين يديه يرتلون عليه الثناء ضاربين الصدور بالأذقان وينصرفون من حضرته بالعطايا والحملان ، بعد ما شبعوا من خوان يلوح في مثل قطع الروض وان سمي بالخوان ؛ ثم يرسم القيان الكواعب الابكار عاطفات على المزاهر عطف الأم على الرضيع بنهود مفعمات ؛ ولكنها صغر من درة الألبان ، ثم يرسم أثر الغناء على وجوه السامعين ؛ فاذا هو شجن وسلوى وأمرات من الحزن والجذل وطرب يشوبه السكون وسكون يشوبه الطرب ... فلا تزال في القصيدة تنتقل بين أبياتها من صورة الى صورة ومن منظر الى منظر ومن حركة الى حركة حتى تأتي عليها وقد استعرضت في خيالك متحفاً واسعاً من الأشكال والخطوط عملت فيه القريحة والنظر واشترك فيه الفن والاحساس وروى لك أصدق الرواية عن عين تلمح وتعي ونفس تحس فتستوعب وخيال يدخر الجمال المنظور فيثرى بالألوان والسمات ... »

زعموا أن بعضهم قال لابن الرومي : « لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز وأنت أشعر منه ؟ فقال للائمه : أنشدني شيئا من قوله الذي استعجزتني عن مثله ، فأنشده قوله في الهلال :

أنظر اليه كزورق من فضة ... قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال زدني . فأنشده قوله في الآذريون وهو زهر أصفر في وسطه خمل أسود

كأن آذريونها ... والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب ... فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه ! تالله لايكلف الله نفساً الا وسعها . ذاك انما يصف ماعون بيته وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظروا اذا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس » الى آخر القصة .

وقد تصح هذه القصة أو لاتصح ، ولكنها على الحالتين تدل على رأى شائع فى التشبيه بين الذين كانوا يتعاطون الأدب فى عصر ابن الرومى وبين الذين يتعاطونه فى هذهالأيام . فلابن المعتز تشبيهاتكثيرة أبلغ من هذه التى مرت فى القصة وأجمل وأنقى فى المعنى والديباجة ، ولكنهم لايختارون له فى مقام التحدى والتعجيز الا هذه الأبيات وأمثالها ، لظنهم أن نفاسة التشبيه انما تقاس بنفاسة المشبه به وأن الغرض من التشبيه انما هو مضاهاة أبيض على أبيض وأصفر على أصفر ومستدير على مستدير ومستطيل على مستطيل مما يرى بالعين ولا فضل فيه للشعور والتخيل ، فالشاعر الذى يصف النجوم ويشبهها بالجواهر والحلى هو الشاعر غير مدافع وهو المثل الأعلى فى هذه الصناعة .. ثم يليه الشعراء على حسب الأشعار فى سوق المشبهات ! وقصارى ما يطلبه الشاعر من التشبيه أن يثبت لك أنه رأى شيئين من لون واحد وشكل واحد كأنك فى حاجة الى مثل ذلك الاثبات الذى لاطائل تحته ، فاما أنه أحس وتخيل وصور احساسه ، وتخيله باللفظ المبين والخواطر الذهنية الواضحة ، فليس ذلك من شأنه ولا هو مما يدخل عنده فى باب البلاغة والشاعرية ، وهذا خطأ بعيد فى فهم الوصف والشعر يخرج بهما عن القدرة النفسية الى القدرة الآلية التى تحكى المناظر الظاهرة كما تحكيها المصورة الشمسية . فالمسافة عظيمة جدا بين شاعر يصف لك ما رآه كما قد تراه المرآة أو المصورة الشمسية ، وشاعر يصف لك ما رآه وشعر به وتخيله وأجاله فى روعه وجعله جزءا من حياته . وليس يعنيك أنت أن يكون الشاعر صحيح العين مطلعاً على المرئيات المتشابهة ليتصل مابينك وبينه ويقترب وجدانك من وجدانه ، ولكن ما يعنيك منه أن يكون انساناً « حيا »

يشعر بالدنيا ، ويزيد حظك من الشعور بها ، وتلك هى مزية ابن الرومى فى وصفه وتشبيهه ومزيته فى شعره كله من أوائل شبابه الى اليوم الذى مات . وينبغى هنا أن نذكر مرة أخرى أن ملكة الشعر غير ملكة الوصف ليستا بشىء واحد كما يفهم كثير من القراء ، فمن وصف وشبه ولم يشعر فليس بشاعر . ومن شعر وأبلغك مافى نفسه بغير وصف مشبه فلا حاجة به اذن الى سرد الصفات لتتم له ملكة الشاعرية .

***

من ثم نقول أننا اذا قسمنا العبقريات الفنية الى أقسام وفصائل فخير ما نفهم به عبقرية ابن الرومى أنها عبقرية يونانية على المعنى المفهوم بين قراء الآداب من هذه الكلمة ، اذ لانعرف صفة لعبقرية ابن الرومى هى أوجز ولا أبين من هذه الصفة المجموعة فى كلمة واحدة : فانه كان محبا للحياة فى خفة وطفولة وأريحية دائمة كالحب الذى عهدناه فى جملة الفنون اليونانية ، وكان مشخصا لمحاسن الطبيعة وعناصرها كما شخصتها أساطير اليونان وولدت منها بنات الماء وعرائس الغاب وأرباب السحب والبحار وغيرها من ولائد الذوق والخيال ، وكان مأخوذاً بالجمال فى كل شىء كما أخذوا به فى كل شىء ، مستغرقا فى الحس الدنيوى كما استغرقوا فيه . أما أنه كان كذلك لأنه من سلالة اليونان فذلك قول لانجزم به ولا نجزم بنفيه ، لأنه يستطيع أن يكون كذلك ولو لم يكن من تلك السلالة التى اختلطت فيها سلالات الشرق والغرب والشمال والجنوب ، فما اختص اليونان بابداع الفنون واستجلاء الجمال ، ولا يحسن بأحد أن يدعى ذلك لشعب من الشعوب . وكل ما امتازوا به على غيرهم أنهم منحوا الفنون حرية لم تمنحها الشعوب القوية التى توطدت فيها الدولة وتوطد فيها الدين فاشتمل على العلوم والفنون وأحاطها بقيود المراسم والموروثات ، فلما خضع اليونان لمثل هذا السلطان نضب فيهم ذلك المعين الحر وأخلدوا الى المراسم والموروثات ، الا قليلا من الحنين المتجدد الى الفن القديم وامتياز

اليونان بالحرية فى الفن فضل عظيم، ولكن ما مقدار مايسرى منه فىالدم ويثبت مع الغرائز ويتنقل مع السلالات ؟؟ وماهــو الحد الفارق بين اليونانية وغير اليونانية في الشعوب الكثيرة التى يتناولها اسم اليونان فى آسيا وأوربا وقبل التاريخ وبعد التاريخ ؟؟ فأنت ترى أن القول بالوراثة اليونانية فى ابن الرومى ليس أسهل ولا أصوب من القــول بانفراد هذه الظاهرة الغريبة التى لاتزول غرابتها من بعض الوجــوه حتى لو ظهرت فى بلاد اليـــونان . وقد يكون فيما مر بك من شرح مزاجه ونشأته تعليل صالح لهذا الاحساس المتوفز يساعد على تفسيره بعض التفسير، فحسبنا اذن من كلمة العبقرية اليونانية أنها كلمة مفهومة فى لغة الآداب وان لم تكن مفهومة فى لغة الأنســاب .

الفصل الخامس

فلسفة ابن الرومى

لكل شاعر كبير فلسفة للحياة ، أو فهم لها على وجه من الوجوه. وهذه هى مزية الشاعر الكبير على الشعراء الصغار .

فاذا قرأت عشرين شاعراً كبيراً فأنت أمام عشرين نسخة من الدنيا، أو أمام عشرين مثالا لها كل منها مخالف لغيره مستقل عنه فى طريقة تمثيله . لأن الشاعر الكبير يشعر بكل شىء حوله . فما من مظهر ولا مخبر الا وله موقع من قلبه وصدى فى ضميره . ولأنه مستقل فى ادراكه وشعوره ينحو نحو نفسه ولا ينحو نحو غيره ، فاذا قرأت شعره فهناك الدنيا كلها ممثلة فى ذلك الشعر على طريقته التى لا تشبهها طريقة . ولا كذلك الشاعر الصغير أى الشاعر الذى تضيق نفسه بسعة الدنيا فلا يشعر الا بجانب صغير من جوانبها الكثيرة ، والذى يتبع غيره فى ادراكه وشعوره فلا يثبت على قدميه لحظة الا ريثما يتكىء على سند من سابقيه أو معاصريه ، فان هذا الشاعر الصغير شذرة من الدنيا وليس بمثال كامل للدنيا برمتها . وقد تكون هذه الشذرة أجمل وأتقن وأحب واشهى من المثال الكامل فى مساحته الواسعة ومنظره الجسيم ، ولكنه شذرة على كل حال أو خريطة بلد واحد لن تغنيك — بالغة ما بلغت من روائها واتقانها — عن خريطة الأرض الكاملة ، وان قصرت فى الرواء والاتقان .

فمن الشعراء الكبار من يريك الدنيا كأنها معرض للجمال ، أو يريكها كأنها متنزه للفرجة ، أو كأنها كعبة للعبادة ، أو ميدان للقتال ، أو طريق للعبور ، أو ملعب للسرور ، أو يريك الدنيا كما هى ، وذلك أكبر الشعراء وأعلاهم فى مراتب الالهام . أما الشاعر الذى تسأل

نفسك بعد قراءته : ما هى الدنيا ؟ وما مثالها فى خلدك ؟ فلا تهتـدى الى جواب ! فليس بالشاعر الكبير وان عد فى المجيدين من الشعراء .

فلابد للشاعر الكبير من ادراك الدنيا كلها ، ولابد لهذا الادراك من صورة تختلف كثيرا أو قليلا من سائر الصور ، وهذا هو الذى نعنيه بفلسفة الشاعر ولاتتخطاه الى معنى الفلسفة الشائع بين المفكرين. اذ لو قصدنا الى هذا لوجب علينا أن نقول ان الفلسفة أبعد المطالب عن ابن الرومى وأن ابن الرومى أبعد الناس عن الفلسفة ، بل لوجب علينـا أن نقول أكثر من ذلك : ان قريحـة ابن الرومى كانت نقيض القريحة التى يحتـاج اليها الفيلسوف ، لأن الفيلسوف يجرد كل شىء ليراه بعين الفكر حيث تلتقى الكليات وتنعـدم الفوارق والأجزاء ، وابن الرومى كان يجسم كل شىء ليراه بعينى الفنان فى عالم الأنوار والأشكال والخطوط والحركات .

وربما خطرت للقـارىء وسـاوس ابن الرومى وأوهامه وأسراره فحسـبه من أهل الباطن الذين ينظرون الى الدنيـا نظرة الروحانية ، وقرب ما بينه وبين الفلاسفة المجردين على هذا الاعتبار . فيجب علينا كذلك أن نبادر الى القول بأن ابن الرومى كان نقيض أهل الباطن المتعمقين كما كان نقيض الفلاسفة المجردين ، لأن أهل الباطن يتجاوزون الظواهر الى البواطن ويحسبون الظواهر وهما أو كذبا لا وجود له الا فى الحس الضالل المخدوع . أما ابن الرومى فكان يعكس الأمر فيلبس الأسرار ثوب الظواهر ويلحق عالم الخفاء بهذا العالم المجسـم المحسوس ، فالباطنيون ينفون الظواهر ويثبتون الأسرار وابن الرومى ينفى الأسرار ويثبت الظواهر ، وكان يلحى الناس لأنهم يغفلون عن نذير الخفاء ولا يتقونه كما يتقون نذير العيان . لأن الخفاء عنده ان هو الا عيان يراه ويلمسه ويتجنبه ويلقاه .

لقد كان الرجل « جديد » الإحساس فى شبابه وهرمه ، فعالمه أبداً عالم الطفولة الخالدة الذى يدا[illegible] يباد[illegible] أبداً ببهجة جـديدة أو خوف جديد : طفولة خالدة ولكنها مروعة لفرط ما ألح عليها من السقم

والألم . فهى فى هذه المأدبة الالهية التى تسمى بالدنيا فاغرة الحس أبدا لكل طارىء جديد من طوارىء الاغراء والترويع ، طفولة لم تزدها السنون الا امعانا فى الطفولة واغراقا فى اللعب وشوقا الى الحلوى ورهبة من العصا واحتيالا على هذه الرهبة ، فلن ترى فى شعره كله قولة واحدة الا هى قولة الطفل الكبير الذى يفهم أضعاف ما يفهم الكبار ولكنه لا يحس الا كما يحس الأطفال .

أيتكلم عن الصبر ؟ أيتكلم عن العزلة ؟ نعم ويتكلم عن الزهد والعفة والتقوى وعما شئت من الحكم والنصائح !؟ وزد عليه أنه يتكلم عنها كلام النية والعقيدة لا كلام الخبث والرياء ، ثم ماهو الا أن تعروه بادرة واحــدة من بوادر الفــرح أو الحــزن وغــوايه واحــدة من غوايات الربيع أو الخريف حتى تذهب جميع هذه الحكم والنصائح فى الرياح وينطلق الطفل الكبير مصفقا للمتعة الجديدة أو صارخا من الألم الجديد لأن الكلمة العليا فى هذه « الفلسفة » للاحساس الطارىء لا للفكر السابق أو الاحساس القــديم .

أتسميها اذن فلسفة « ابيقورية » تنشد اللذة أينما كانت وتهــرب من الألم أينما كان ؟؟ ان كنت تسمى الطفل الذى يتهافت على الحلوى ويجفل من العصا « ابيقوريا » فلك أن تعد ابن الرومى فى جمــاعة الأبيقوريين ، ولكن الأبيقورية فى رأيى ليست « جدة » الاحساس المتفزز للمسرات والآلام وانما هى فتور الاحساس واستكانة الشيخوخة الى ما يريح ، ونفورها مما يزعج ويثير . وهى فى معناها الشائع نقص فى الاحساس وليست بزيادة فيه . والا فهل تظن أبا نواس شعر بلذعة الألم أو بنضرة السرور قط ؟؟ هذا هو الأبيقورى فى الأبيقوريين . . . وهو كما تعلم واحد من أولئك المترفين الذين يطلبون اللذة ويشفقون من الألم لأنهم فاترون فارغون لا لأنهم مرهفو الحس مفعمون بالحياة . أما ابن الرومى فكان يألم ويسر لأن حياته هى الألم والسرور ، أو لأنه لابد له من أن يحس ولابد للاحساس من أن يكون بعض الألم وبعض السرور ، وليس فى وسعك أن تعطله من الاحساس بهذا أو بذاك

الا اذا عطلته من الحياة ، وليس فى وسعه هو أن يطلب اللذة باختياره أو يجتنب الألم باختياره . لأن الجدول الرقراق لا يطلب الصفاء ولا يجتنب الكدر ، وانما يصفو ويكدر لأنه ماء ولن يكون الا من الماء .

فعالم ابن الرومى هو عالم الطفولة الخالدة لا عالم الشيخوخة الوادعة أو عالم « الأبيقوريين » .

والطفولة الخالدة هى الاحساس الجديد بالألم والاحساس الجديد بالسرور . ولقد دام له هذا الاحساس الجديد كأحسن ما يدوم بعد فقد الشباب ، ولكنه لفرط طمعه فى الحياة كان لايقنع الا بأن يجمع بين « بشاشة الأوطار » وقدرة الشباب .

الفصل السادس

صناعة ابن الرومى

قولا لمن عاب .. عاب شعر مادحه   اما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء والخشب اليا   بس والشوك دونه الثمر
وكان اولى بان يهذب ما يخلق   رب الارباب لا البشر

يتفق لقارىء الشعر أن يعرض له فى مطالعاته بيت غير منسوب الى صاحبه فينسبه الى شاعر معروف عنده ثم يجد بعد البحث أن فراسته قد صدقت وأن البيت لذلك الشاعر بغير خلاف ، ولكنه قد يعلم السبب الذى دعاه الى نسبة البيت اليه وقد يتعذر عليه أن يرد ظنه الى سبب غير البداهة التى لا تعلل . لأن سمات الشعراء التى تبدو فى قصائدهم وأبياتهم بعضها ظاهر يسهل تتبعه والاستدلال عليه وبعضها خفى يجرى فى الكلام مجرى الملامح فى الوجوه . تعرفها وتعرف بها الأبناء والآباء ولكنك لا تردها الى سبب محدود .

وليس كل الشعراء ذوى ملامح واضحة يعرفهم بها القراء ؛ ففى العربية مثلا ألوف من الشعراء لا تعد منهم مائة بين أصحاب الملامح الواضحة التى تعرفهم بها فى القصيدة الواحدة بله البيت الواحد . وفى طليعة هؤلاء من الشعراء المحدثين — غير ابن الرومى — المتنبى والمعرى والشريف الرضى ، والبقية درجات فى هذه الخصلة تعرفهم بسهولة حيناً ، ولا تعرفهم حيناً الا بعد جهد وتحقيق .

بعض هذه الملامح أو العلامات نفسى لا نعود اليه فى هذا الفصل لأنه سبق فى مواضع متفرقة من الفصول المتقدمة ، وبعضه لفظى يرجع الى الصياغة وأسلوب التعبير والنزعة الفنية التى ينفرد بها الشاعر بين

الشعراء وان تساووا فى الاجادة كما ينفرد الجميل بين ذوى الجمال بسمة خاصة تستحب فيه وان تساووا كلهم فى الجمال . وهذا الذى نعنيه بالصناعة وتتم به مباحث هذا الكتاب .

فالعلامات البارزة فى قصائد ابن الرومى هى طول نفسه وشدة استقصائه المعنى واسترساله فيه ، وبهذا الاسترسال خرج عن سنة النظامين الذين جعلوا البيت وحدة النظم وجعلوا القصيدة أبياتا متفرقة يضمها سمط واحد ، قل أن يطرد فيه المعنى الى عدة أبيات وقل أن يتوالى فيه النسق تواليا يستعصى على التقديم والتأخير والتبديل والتحوير. فخالف ابن الرومى هذه السنة وجعل القصيدة (كلا) واحداً لا يتم الا بتمام المعنى الذى أراده على النحو الذى نحاه . فقصائده « موضوعات » كاملة تقبل العناوين وتنحصر فيها الأغراض ولاتنتهى حتى ينتهى مؤداها وتفرغ جميع جوانبها وأطرافها ، ولو خسر فى سبيل ذلك اللفظ والفصاحة .

ولا ريب أن هذا الاستقصاء كان سبباً من أسباب الاطالة ولكنه لم يكن كل السبب ، لأن ابن الرومى كان يطيل القصائد حفاوة بالممدوحين واكباراً لشأنهم واظهارا لعنايته بارضائهم ، وكان يرى فرضا عليه للممدوح أن يستصعب ولا يستسهل ، فاذا طرق القوافى السهلة اعتذر من تقصيره كما قال لعبيد الله بن عبد الله من قصيدة نيفت على سبعين ومائتى بيت :

كل مدح فى غيركم فثباب ... ما أثيبت عبادة الأوثان
هاكها ، لا أقول ذاك مدلا ... قول ذى نخوة بها وامتنان
بين أثنائها مديح نفيس ... من لبوس الملوك والفرسان
ذو قواف كأنها حلق الأصد ... اغ فى البيض من خدود الغوانى
راق معنى ورق لفظاً فيحكى ... رائق الخمر فى رقيق الصحان
ان تكن سهلة القوافى فليست ... فى المعانى بسهلة الوجدان
فابتذلها فى يوم لهوك واغلم ... انها بعد من ثياب الضيان
وابسط العذر فى ارتخاص القواف ... واتباعى سهولة الأوزان

أنت ألجأتنى الى ما تراه   بالذى فيك من فنون المعانى
أى وزن وأى حرف روى   لهما بالمديح فيك يدان
ضاق عن مأثراتك الشعر الا   فاعلات مفاعل فاعلان
ليس مدح يفى بمدحك الا   صلوات المليك فى القرآن
لا ولا حمد كفء نعماك الا   حمد سبع من الكتاب مثان

أو كما قال لأبى القاسم التوزى الشطرنجى من قصيدة ناهزت مائة وخمسين بيتاً :

ولك العذر مثل قافيتى فيـ   ـك اتساعاً فانها كالفضاء
وتأمل فانها الف المد   لها مدة بغير انتهاء

وله رأى فى اطالة الشعراء واطالته يقول فيه :

كل امرىء مدح امرءاً لنواله   وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لو لم يقدر فيه بعد المستقى   عند الورود لما أطال رشاءه
غيرى فانى لا أطيل مدائحى   الا لأوفى من مدحت ثناءه
وأعد ظلماً أن أقل مديحه   عمداً وأسخط ان أقل عطاءه

على أنه كان يستريح الى الاطالة كما يستريح « الجواد الكريم » الى سعة المضمار ، لأنها تشبع لذة القدرة على النظم والتمكن من اللغة وتنفى ظنة العجمة التى كانوا يعيرونه بها ويتهمونه فى شعره من أجلها فلغبطة فى نفسه — لا لارضاء الممدوح وحده — كان يركب القوافى الصعبة ويتعمد رياضة الحروف العصية ، فيذل له أعصاها حتى الثاء والخاء والذال والزاى والظاء والغين والهاء وغيرها من الحروف النادرة فى الروى الناقصة فى شعر أقدر الشعراء ، وكانت فيه غيرة القول ونخوة المنافسة وهمة الوثوب الى الغاية . فكان هذا «الجواد الكريم» يطرب للسباق كلما مرت به خيل السباق ، فاذا سمع الكلام الجيد لم يبرح أن يعارضه بكلام من بحره وقافيته ومعناه ، ولم ينس أن يجرب قوته الى جانب كل قوة ويحرك شاعريته الى جانب كل شاعرية . ففى ديوانه معارضات كثيرة للنابغة وأبى مسلم وأبى نواس والحمدونى

ودعبل وغيرهم ممن تروى لهم الأبيات المستحسنة والحكم المأثورة . ومثل هذا لا يقصر فى المضمار اذا نشطت القريحة وتفتحت أشواط الكلام .

وحبه هذا للمعارضة وتجربة القدرة هو الذى كان يدعو الى النظم فى هذا المعنى أو ذاك من المعانى الطريفة التى كانت تروقه فى شعر بعض الشعراء . كالمتأنق المغرم باللبس الجميل يستملح الكساء على لابسه فيود لو يكون له كساء من طرازه وصنفه ولكنه لايفكر فى سرقته واغتصابه ، مثال ذلك : قال أبو تمام :

غربته العلى على كثرة الأهـ ل فأضحى فى الأقربين جنيبا

فأعجب هذا المعنى ابن الرومى فقال :

رب أكرومة له لم نخلها قبله فى الطبـاع والتركيب
غربته الخلائق الزهر فى النا س وما أوحشته بالتغريب

وقال :

أعاذك أنس المجد من كل وحشة فانك فى هذا الأنام غريب

وقال :

فآنس الله نفساً أنت صاحبها فانها من معاليها بمغترب

. . . . . .

لولا عجائب لطف الله ما نبتت تلك الفضائل فى لحم ولاعصب

وقـال :

وحيد فريد فى المحامد آنس بوحدته مستأثر بالفضائل

وقال :

الله يكلؤه والله يؤنسه فانه بمعاليه قد اغتربا

ويروى صاحب الأغانى بيتا آخر نظر اليه ابن الرومى مثل هذه النظرة اذ يقول ابراهيم بن العباس :

لفضل بن سـهل يد   تقـاصر عنهـا الأمل
فباطنهـا للنـدى   وظـاهرها للقبـل

فيقول ابن الرومى

أصبحت بين خصاصة ومـذلة   والمرء بينهما يمـوت هزيـلا
فامـدد الى يداً تعـود بطنهـا   بذل النـوال وظهرها التقبيلا

وجاء فى الجزء الثالث من زهر الآداب أن الحسين بن الضحاك أنشد أبا نواس قوله :

كأنما نصب كأسـه قمـر   يكرع فى بعض أنجم الفـلك

فنعر نعرة منكرة : فقال له الحسين : مالك ؟ فقد رعتنى ! قال: هذا المعنى أنا أحق به منك ، ولكن سترى لمن يروى . ثم أنشده بعد أيام :

اذا عب فيهاشارب القوم خلته   يقبل فى داج من الليل كوكبا

قال صاحب زهر الآداب : « وقال ابن الرومى فكان أحسن منهما »:

أبصرته والـكاس بين فم   منـه وبين أنامـل خمس
فكأنهـا وكأن شـاربها   قمر يقبـل عـارض الشمس

فهذه المآخذ القليلة جداً فى شعره تعاب ولكنها أخلق بأن تعد من المعارضة والمسابقة ولا تعد من السرقة والغصب . أو هى على كل حال ليست من سرقة المعدم الذى لا رزق له الا رزق غيره . لأنها لو سقطت من شعره جملة وسقط معها عشرة أضعافها لما نقصت ثروته ولا مست قدرته على التوليد والابتكار أقل مـاس . ولو جازت المقاصة فى هذا البـاب لكان ابن الرومى دائنا طالبا ولم يكن مدينا مطـلوبا ، لأن ما أخذ من الشعراء أقل بكثير مما أخذه منه الشـعراء .

وهناك المعانى الشائعة والنكات الشعبية العامة التى ليست لأحد ولكنها لكل أحد . أى التى يأخذ منها كل انسان ويضيف اليهـا كل انسان ، أو التى هى كالهواء يتساوى منه نصيب من يشاء . فمن هذه المعانى الشائعة حتى فى هذا الجيل وحتى بين الأميين الذين لا يقـرءون

الشعر والأدب أن اللحية تشبه بالمخلاة . وينسب الى سعيد بن وهب فى كتاب الوزراء والكتاب أنه قال فى قصة لا محل لذكرها هنا :

قل لمن رام بجهل مدخل الظبى الغرير
بعد ما علق فى خد يه مخلاة الشعير
ليته يدخل ان جا ء من الباب الكبير

وفى كنايته عن اللحية « بمخلاة الشعير » على هذه الصيغة ما يفيد أن النكتة « معهودة » وأن الاشارة اليها على هذا النحو غمزة مفهومة، فمن الخطل فى النقد أن يقال ان ابن الرومى عمد الى بيت سعيد بن وهب فسرقه حين قال :

علق الله في عذاريك مخلا ة ولكنها بغير شعير

فان سعيدبن وهب وابن الرومى فى هذا الاقتباس يستويان ، ويزيد ابن الرومى بتصرف جديد فى المعنى . . وهو أن المخلاة فارغة ؟

وقد يلحق بهذا قول صاحب الصناعتين بعد ما أورد البيتين الآتيين مثلا للمبالغة فى الهجاء :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

فهو يقول « والناس يظنون أن ابن الرومى ابتكر هذا المعنى وانما أخذه مما حكاه أبو عثمان . . أن بعضهم قبر احدى عينيه وقال أن النظر بهما فى زمان واحد اسراف » فصاحب الصناعتين أصاب حين نفى ابتكار ابن الرومى للمعنى ولكن من تراه أولى منه بفضل الابتكار؟ ولقد كان ابن الرومى يخطىء لو أنه عدل عن نظم معناه هذا لأن أبا عثمان سبقه بتلك الحكاية ، فحسبه منه أنه تصرف فيه وأنه مسح المبالغة عنه ، لأنه لم يقل أن « عيسى » يتنفس من منخر واحد ولكنه قال انه لو استطاع لفعل ! . . . . .

لكن الحذلقة التى لا يقاس اليها شىء من هذا هى زعم بعض النقاد أن ابن الرومى سرق البيتين اللذين أنشأهما قبيل وفاته ! وهما :

غلط الطبيب على غلطـة مورد عجزت موارده عن الاصـــدار
والناس يلحون الطبيب وانمـا خطأ الطبيب اصـــابة المقـدار

فأبو عبد الله بن عبدوس الجهشـــيارى صاحب « كتاب الوزراء والكتاب » يروى عن على بن أبى طالب كرم الله وجهه أنه قال « اذا نقصت المدة كان الهلاك فى العدة » ثم يزعم أن ابن الرومى سرق البيتين من هذه الكلمة . . وصاحب زهر الآداب يزعم أنه أخذهما من يحيى ابن خالد حين « دخل على الرشيد فأخبر أنه مشغول فرجع فبعث اليه الرشيد : خنتنى فاتهمتنى . فقال اذا نقصت المدة كان الحتف فى الحيلة والله ما انصرفت الا تخفيفا »

ولا نظن أن عصرا مضى من عصور الاسلام خلا من أناس يؤمنون بأن الحذر لايغنى من القدر ، أو يقول عامتهم كما يقـول العـامة فى زماننا « وقت القضا يعمى البصر » . فقول ابن الرومى أن «خطـأ الطبيب اصابة المقدار » انما هو عقيدته لا يزعم أحد أنه سرقها الا اذا زعم أن المسلم فى هذا العصر يسرق عقائده من المسلمين فى العصور السابقة ! ثم يبقى بعد ذلك أن قوله « خطأ الطبيب اصابة المقدار » هو أبلغ تعبير جديد عن ذلك المعنى القديم . وما كان النقاد ليتورطوا فى مثل هذا النقد لولا أن التعسف فى اظهـار السرقات كان فى زمن من الأزمان — أو فى زمن الجمع والتأليف — آيتهم على سعة الرواية والعلم باقدار الشعراء .

***

وتلاحظ فى صناعة ابن الرومى لازمة الأفعال المزيد والمشـتقات التى يستخدم منها فى جميع الصيغ والأوزان : فأسـماء الفاعل والمفعول والزمان والمكان وصيغ التفضيل والمبالغة والصفات المشبهة والمصادر تكثر فى شعره كثرة لم نلاحظها فى شعر غيره ؛ ونحسب أن الافراط فى استخدام المشتقات والأفعال المزيدة هو الوسـيلة التى لابد منهـا للشاعر العربى الذى يريد أن يتناول المعنى من جميع نواحيه ويتـدرج به فى مختلف درجاته . اذ ليس فى اللغة العربية ظروف كالظروف التى

يشتقها الافرنج من معظم الصفات والأسماء باضافة صغيرة فى أول الكلمة أو فى آخرها فتدل على المعنى المقصود وتدل كذلك على اختلاف الدرجة والقوة فى أداء ذلك المعنى . فاذا أراد الشاعر العربى أن يلتفت الى هذه الفروق فلابد له من الاستعانة على ذلك بالمشتقات والأفعال المزيدة كما كان يفعل ابن الرومى . الا أنه كان يسرف فى جمعها معا حتى تنبو بها الاذن فى بعض الأبيات . كقوله :

صاغة صواغة صيغاً بدعاً لم تلق فى خلد

أو قوله :

أبصر بيضاء فى القذال فلا نفر كنفر رأيته نفره

أو قوله :

يترك بالحول حول حولها وهو سواء وموق مائقها

أو قوله :

قلت أن تغلبوا بغالب مغلو ب فحسبى بغالب الغلاب

وهى ركاكة منه كان ينساها فى استطراده وربما كان يهونها عليه وسواسه . لأن طبيعة الموسوس لا تنفر من التكرار كما تنفر منه سائر الطبائع . على أنه كان يجمع بعض المشتقات والحروف المتشابهة المخارج فتساغ — وقد تستحسن — فى أصعب القوافى كما قال فى الجيمية :

سلام وريحان وروح ورحمة عليك وممدود من الظل سجسج
ولا برح القاع الذى أنت ربه يرف عليه الأقحوان المفلج

فان للراء والحاء « راحة » فى القلب تزداد بالتكرار وتمهد لما بعدها من الظل الممدود والتضعيف المقبول فى هذه القافية العصية .

أو كما قال من قافية الخاء

يا صارخاً فى جموع ليس تصرخه للظالمين غدا فى النار مصطرخ

أو من قافية الفـاء :

ومنعم كالماء يشـفى ذا الصدى كشفائه ويشف مثـل شفيفه

ويوقعه الاستطراد — ولك أن تقول الاستغراق فى المعنى — تارة فى اهمال اللفظ وتارة أخرى فى الأساليب النثرية التى لا ينفسح غيرها للاسهاب والأطناب والتفصيل والتفريع والمراجعة والاستدراك . فينظم فى هذه الحالة وكأنه ينثر ، الا أنه لا يخلو من الشاعرية ولا يسف الى طبقة « المتن » المنظوم و « الألفيات » التى ليس فيهـا من الشـعر الا أنها موزونة مقفاة .

ومع هـذا تستطيع أن تقول انه لم يجعل اللفظ شـغلا شاغلا فى صناعة ولم يحفل به الا لأداء المعنى الذى يريده . فيخيل اليـك وأنت تطرد فى قراءته أنه يرتجل القصائد ارتجالا ويفيض بها فيضا لمطاوعة لفظه وغزارة مدده . فهو يجيد فى تركيب أبياته واحكام قوافيه ولكنه لا ينتزع الاجادة بالجهد والترويض ؛ وما عليه الا أن يعنى ما يقول فيقول ما يعنى بغير اخلال ولا التواء ، وما عليه الا أن يرسم فيجىء البناء على ما رسم وتقوم الأركان على ما دعم .

ومن الشعراء من تلمح له الكلمة فى قصيدة وكأنها تمن على الشاعر بفضل وتستطيل بدالة . لأنها أطاعته ولبت رجاءه ورضيت بمقامها فى حظيرته . فاذا بحثت عن أمثال هذه المفردات والتراكيب فى قصـائد ابن الرومى فلست واجـدها هناك ؛ لأن كلماته تقبل الى مواضـعها وكأنها تعلم أن الفضل فى مقامها للشاعر لا لها وأن الدالة فى اختيارها له لا عليه ، ومن ثم لم يشغل باللفظ ولم يبد على معناه أثر الجهد فيه ، وبهذا سلم من لعب الجناس اللفظى والمحسنات المموهة مع أنه نشـأ فى العصر الذى نشأت فيه هـذه المحسنات . وعجيب هـذا منه وهو المتطير الذى كان يلقى باله الى أقل تجانس فى الكلمات وأضـعف تشابه فى الحروف ليستخرج منـه النذر والبشـائر ويعلق عليه القنوط والأمل ، ولكنه عجيب فى الظاهر دون الحقيقة . لأنه انما كان يبـالى بالكلمات حين كان يأخذها مأخذ المتطيرين وهى حينئذ لها معنى عنده

ومن ورائها نبأوفيها شعور . فليست هى خواء ولا تمويها ولا بهرجا زائفا كبهرج العابثين والمزوقين ، انما كان يجانس لمعنى يراه هو ويراه من يتطير مثله ولا يجانس لتزويق فارغ ولهو سخيف ، فاذا لم يكن متطيرا فلا جناس ولا اكتراث باللفظ الا لما فيه من معنى ظاهر مستقيم وما له من فصاحة ونضارة ؛ أو يتفق له جناس اللفظ كما كان يتفق للشاعر الجاهلى والشاعر المخضرم قبل عهد التنميق والصناعة ؛ فلا غرابة فى أن نجد له أو لشاعر مخضرم مثل هذا البيت :

فيسبيك بالسحر الذى فى جفونه ويصبيك بالسحر الذى هو نافثه

أو مثل هذا البيت :

تصبيك ان حكمت وان طلبنا لديك العرف كنت حيا تصوب

أو مثل هذا البيت :

ليس ينفك طيرها فى اصطحاب تحت أظلال ايكها واصطخاب

وهكذا كان فى كل تجنيسه الذى لا تعسف فيه وليس هو بالكثير البارز فى ديوانه الكبير . فاذا جنس فى غير ذلك فهو عابث متعمد للعبث وليس بملفق محسنات ولا بطالب تزويق كما قال .

لو تلففت فى كساء الكسائى وتلبست فروة الفراء
وتخللت بالخليل واضحى سيبويه لديك رهن سباء
وتكونت من سواد أبى الأسو د شخصا يكنى أبا السوداء
لأبى الله أن يعدك أهل العلـ م الا من جملة الأغبياء

فالذى يقرؤه هنا لا يخطر له بتة أنه يزوق ويزخرف ولا يشك لحظة فى أنه يعبث ويهزل ، وأنه لا يحاول أن يبيع الناس بهرجا بثمن ذهب وعرضا بثمن جوهر

أما ما يستشهد به البديعيون من كلامه كقوله فى غير الجناس :

آرلؤكم ووجوهكم وسيوفكم فى الحادثات اذا دجون نجوم
فيها معالم للهدى ومصابح تجلو الدجى والأخريات رجوم

فهو أقرب الى التقسيم الفلسفى منه الى محسنات اللفظ وترصيعاته .

وغني عن القول أننا لم نقصد بما تقدم أن ابن الرومي كان على سذاجة الجاهليين والمخضرمين في صوغ الشعر وفهم فنون البلاغة . فان هؤلاء كانوا ياتون بالقول البليغ ولا يعرفون علته ؛ وكانوا يطربون للشعر ولا يتوخون مذاهب نقده ؛ وليس في وسع شاعر عباسي أن يكون كذلك بعد ما أولع القوم بالبحث في جميع العلل والأسباب واصطلحوا في البلاغة على الحدود والأسماء وخرجوا من حالة «العفو» الى حالة « الوعى » ومن سهو الجنة التى كانوا غافلين فيها عن النعيم والعذاب والخجل والعيب الى يقظة الدنيا التى يؤخذون فيها بالتكاليف ويدركون فيها المحاسن والعيوب ، وابن الرومي أولى ألا يكون على تلك السذاجة الجاهلية أو المخضرمة وألا يسهو عن محاسن كلامه وعيوبه وهو الذى لم يسه قط عن شيء فيه ولم يكن له من هم الا أن يحصى خطرات ذهنه وخلجات فؤاده ، فهو شاعر ناقد وبليغ له مذهب في البلاغة ورأي في المعاني وحجة في الاختيار . ونوادره في ذلك قليلة ولكن النادرة التى ننقلها بعد كافية للابانة عن وجود هذه الملكة فيه وعملها في نقد كلامه ونقد كلام غيره قيل انه سمع هذه الأبيات :

أيها الظبى المليح القد مجدول مهفهف
أنا من ميلك في مثـ ـيك مرعوب مخوف
لا تميلن فانى خائف أن تتقصف

وهى لابن أبى فنن (١) . فقال في البيت الآخر : انما أراد منه أن يسيل من لينه ونعمة أعضائه فأسرف حتى أخطأ ؛ وذلك أنه جعل اللين للفرط يتقصف . وانما كان ينبغي أن يقول لو عقد لانعقد من لينه فضلا عن أن يسيل وهو سليم من التقصف : ثم أسرع الى معارضة القائل بهذين البيتين :

---

(١) ص ٧٤٣ من كتاب الموشح .

أيهـــا القـــائل انى خـائف أن تتقصـــف
ليس هـــذا الوصف الا وصف مصـــلوب مجفف

فملكة الابتكار في ابن الرومى كانت مصحوبة بملكة الانتقـاد ، وفصاحته كانت فصاحة الذى يحاسب نفسه ويحمل تكليفه لا فصاحة غير المكلفين فى جنـة السـهو والتوفيق !

كذلك لايفهم من سهولة شعره وتدفقه وأخذ بعضه بأطـراف بعض أنه كان قليل التهذيب له والرجعة اليه . فربما فرغ من القصيدة وأمضى بها الى ممدوحه ثم عاد الى تنقيحها والزيادة عليها وردها مرة أخرى كما فعل فى المهرجانية التى تتبعها وأطالها وكتب فى ذلك يعتذر الى عبيد الله بن عبد الله .

قصـيدة كـرها مثقفهـا عليك ان ثقفت عـلى مهل
أعجلها الوقت عن رياضـتها فأقبلت ريضـا على عجل

لم أحتشم كرها عليـك ولا سدى منهـا مواضع الخلل
لأننى عالم بأنك لاتعتـــب فيما أصلحت من عمـل
وليس مثلى ينـام عن خـلل فى مدح ممـدوحه ولا زلل

على أنه — لطول رياضة الكلام الموزون — قد أسلـت له طـريقة فى النظم يقسر بها المعنى على الظهور ولو اضطر الى الحشو واللف والاعتراض فلا تشعر الا وقد استدار له البيت على أحســن تركيب وأصبح الحشو فى يديه حسـنا يزيد المعنى ولا يعيبه . فاذا أراد أن يقول « لاتكذب الأخبار بالهوى » ولم يساعده الوزن قال :

لاتكن بالهـــوى تكذب بالأخبـا
ر حتى تهـــين مـا لا يهـــان

فاكسـب المعنى قوة لم تكن له فى عبارته البسيطة . لأنه حين صاغ البيت هذه الصياغة كأنما ينهى عن « خلق » التكذيب لاعن «فعـل»

التكذيب مرة واحدة أو مرات . فمعنى « لاتكن مكذبا الأخبار بالهوى » غير معنى « لاتكذب الأخبار بالهوى » . لأن العبارة الأولى تفيد زيادة في النفي لاتدخل في مدلول العبارة الثانية : تفيد النهي عن « طبيعة » التكذيب أو عن أن « يكون » الانسان مكذبا ، ولا تقتصر على استنكار التكذيب في هذه الحادثة أو في تلك .

واذا أراد أن يقول أن البوم أفشل الطير وحال الوزن دون هذا المعنى البسيط قال :

واعتبر أن أفشل الطير ، في الطير ، وفينا ، كروّسات البوم .

فبلغ في اظهار فشل البومة مالا تبلغه العبارة الأولى . لأنه بين فشلها بالنظر الى مقاييس الطير وبالنظر الى مقاييس بني الانسان : فهي فاشلة كما يراها نظائرها في عالم الطيور وفاشلة كما نراها نحن في عالمنا الانساني ؛ وذلك معنى لاتجده في قول من يقول : ان البومة أفشل الطوائر ، وتلك كانت طريقته في الحشو « المبارك » المقبول ، وفي تدوير النظم حتى يستدير له على أحسن تقويم .

***

وقد كان ابن الرومي كأبناء عصره يقدم الغزل بين يدي مدحه ووصفه جريا على سنة لم يكن في ثقافة عصره مايدعوه الى استغرابها والنظر في تنقيحها ؛ الا أنه يعمل هذه السنة ويتصرف في تقديم الهجاء بالغزل فلا يقصره على الوصف والمديح ، فيخرج بذلك بعض الخروج من حكم التقليد والمحاكاة العمياء ويختار لصناعته بعض الاختيار .

ألم تر أنني قبل الأهاجي أقدم في أوائلها النسيبا
لتخرق في المسامع ثم يتلو هجائي محرقا يكوى القلوبا

وقد يتصرف غير هذا التصرف كما قال :

واشغل قريضك بالنسيب وبالفكاهة والمزاح

كذلك كان يحكى أبناء عصره فى تصعيب اللفظ وتعمد الغريب حين كان ينظم فى الطرد ووصف الأسد وما اليه . لأن الشعراء العباسيين جعلوا الطرد خاصة معرضاً للبداوة الشعرية والفحولة العربية . فكانوا فى ذلك على حد مايقال عربا أكثرمن العرب وجاهليين أكثر من الجاهليين .

أما لفظه من حيث هو صحيح وخطأ فلفظ عالم بالنحو مطلع على شواهد العربية ولاسيما فى القرآن . ومن هنا لم يذكر كلمة «أشياء» الا ممنوعة من الصرف ، وهى مصروفة فى قول بعض القياسيين من النحاة لأنها جمع شيء . فهى أفعال جمع فعل وليست فعلاء مؤنث أفعل التى تمنع من الصرف ، فمن المواضع التى وردت فيها الكلمة قوله : « حرمت بالمشيب أشياء حلت » وقوله . « قبحاً لأشياء يأتىالبحترى بهـا » وقـوله :

فيك أشياء لو وجـدن قديماً ... نظمتها المـلوك فى التيجان

وقـوله :

فيك أشياء من يواليك مسر ... ور بهـا والعـدو منها مغيظ

وقـوله :

واليك الشكاة منها ومن أشـ ... ياء تبتز ذا الحجا معقـوله

وقـوله :

ياحور ما للحبيب يفعل بى أشـ ... ياء لا يسـتحلها الحـرج

وقـوله :

وفيه أشـياء صـالحات ... حماكها الله والرسـول

وانما تابع المفسرين فى هـذا ولم يتابع القياسيين من النحاة لأن كلمة أشياء وردت فى سورة المائدة ممنوعة من الصرف ، اذ جاء فى الآية : « يأيها الذين آمنوا لاتسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم »

بفتح الهمزة في أشياء ، وتعليل المفسرين لذلك « ان أشياء هنا اسم جمع كطرفاء غير أنه قلبت لامه فجعلت لفعاء ، وقيل افعلاء حذفت لامه — جمع لشيء كهين أو شيء كصديق فخفف » وهذه المخالفة للنحاة القياسيين هي كما ترى أدل على العلم منها على الخطأ ، فلم يكن ابن الرومي ممن يسهل وقوعهم في الخطأ النحوي والا ظهر منه ذلك في مواضع شتى مع اطالته واكثاره وجرأته على تذليل النحو لمراده . ونقول جرأته لأننا لانعد من خطأ الجهل قوله :

دعني وايا أبي علي الأعور المعور الخبيث

اذ لايخفى على المبتدىء أن «ايا» ضمير فصل يتصل بالضمائر الموصولة ولا يتصل في الكلام الفصيح بالأسماء . فابن الرومي اذا وصل الضمير المفصول بالاسم لايفعل ذلك جهلا بالقاعدة التي يعلمها المبتدئون وانما يفعله وهو مجترىء عليه عالم بمكان هذه الكلمة من الخطأ والصواب ، وعلى ذكر التجوز في صرف الممنوع ومنع المصروف نقول ان ابن الرومي كان من أقل الشعراء تجوزاً في « عروضه » وأكثرهم حرصاً على أوزانه . ولابأس بأن نذكر له هنا بيتين قالهما في مرض وفاته ورواهما عنه أبو عثمان الناجم وهما:

أبا عثمان أنت قريع قومك وجودك للعشيرة دون لومك
تمتع من أخيك ، فما أراه يراك ولا تراه بعد يومك

فقد ذكرهما المعري في رسالة الغفران فعاب عليهما أنهما مقيدان وقال « وما علمت أنه جاء عن الفصحاء هذا الوزن مقيدا الا في بيت واحد يتداوله رواة اللغة » ، والبيت :

كأن القوم عشوا لحم ضأن فهم نعجون قد مالت طلاهم

وهذا البيت مؤسس ، والذي قاله ابن الرومي من غير تأسيس ،

والحق أنه لاخلل في وزن البيتين من حيث العروض ، وانما كان للمعري في نقده هذا أشبه بالفقهاء منه بالأدباء ، ولو اختل البيتان

أشد خلل لما قيست بهما صناعة ابن الرومى فى جميع شعره . لأن المرء لايقاس بنظم مرتجل يلقى به القاء وهو يجود بنفسه .

***

وقد تلاحظ على ابن الرومى تعبيرات كالتى تسمى فى عصرنا هذا بالتعبيرات الافرنجية فى مثل البيت

كما لو هجاكم شاعر حل قتله
كذاك فأوفوا مادحا دية القتل

وقد يلاحظ ذلك فى اكثاره الهتفات مثل قوله « ضلة ! ضلة» « سوءة . سوءة » و « فى سبيل الشيطان منك نصيبى » الى أشباه ذلك من اللفظات الكثيرة فى تعبيرات اللغات الأوربية . فيرد على الخاطر أنه كان — لهذا — يعرف الاغريقية ويتأثر بها فى أسلوبه، أو يرد على الخاطر أن هذه التعبيرات من أثر العجمة فى سليقته والعادة فى لسانه . ولكنها ملاحظة لاتستلزم هذه النتيجة ولا نستطيع أن نعززها بملاحظات أخرى من قبيلها . ومن السهل جدا أن نقول أن أمثال تلك التعبيرات القليلة سرت الى ابن الرومى من دراسة الكتب المترجمة ومعالجة التدليلات المنطقية فى كلامه ومساجلاته ، وأن الهتفات مألوفة فيمن كان له مزاج كمزاجه المتوفز عربيا أو أعجميا بلا خلاف . ذلك أسهل من القول باللغة الأعجمية الذى استضعفناه فيما تقدم من الكلام على تعليم الرجل ومعلوماته .

***

فى أى باب من أبواب الشعر كان ابن الرومى يجيد خاصة ؟

سؤال لابد أن يخطر لنا فى معرض الكلام على صناعته وأساوبه وأرى أن الكثيرين سيقولون — أو قد قالوا — انه هو باب الهجاء لأنه اشتهر به وشاع أنه مات بسببه ، فلنعلم اذن أنهم مخطئون فى هذا الحكم لأن ابن الرومى كان يجيد فى أبواب الشعر كلها على حد سواء ويعطى قصائده جميعا بمقدار واحد من عنايته واتقانه .

وخذ مثلا أقواله في الحكمة وهي أقل ما اشتهر به تجد له مئات من الأبيات التي تسير مسير الأمثال وتخرج من عداد تلك الأفكار المطروقة التي يتفيهق بها من يحبون الاشتهار بالبيت الحكيم والمثل السائر ، ولو أننا رجعنا الى أبياته التي مرت بنا في هذا الكتاب لما ألفينا بينها تفاوتا في الطبقة بين غرض وغرض وباب وباب ، وانما اشتهر بالهجاء لأن الهجاء أشهر وأسير لا لأنه يجيد فيه أكثر من اجادته في المديح أو في الغزل أو الصفات ، فلو أن الألسن تتساير بالوصف البارع كما تتساير بالهجاء اللاذع لغطى وصف ابن الرومي على هجائه لكثرة ما قال وأجاد في الوصف حتى خلال قصائد الهجاء .

وأغرب من هذا الاستواء في طبقة القول أنك تقرأ الأبيات التي مرت بك في هذا الكتاب فتحسب أنها نظمت كلها في عمر واحد ولا تدري أيها شعر الشباب وأيها شعر الكهولة والشيخوخة الا ماينذب فيه شبابه ويتبرم بسنه ، فانظر مثلا الى الأبيات التالية :

قل لأيوب والكلام سجال ... والجوابات ذات يوم تدال
اسكتوا بعدها فلاتذكروا الشـ ... ـؤم ، حياء . فأنتم الآجال
انا شؤمي فيما تقولون عزا ... ل ، ولكن شؤمكم قتال
بالذي أدرك المؤيد منكم ... وابن سعدان تضرب الأمثال
زرتموه والصالحات عليه ... مقبلات فأدبر الاقبال
حين درت له أفاويق دنيا ... ه دلفتم له فكان الفصال
ان شؤما حلت به عقدة المـ ... ـلك لشؤم تزول منه الجبال
ليس بدعا من الحوادث أن يعز ... ل وال وتخفق الآمال
انما البدع أن تزول أمور ... لم يكن يهتدي اليها الزوال
كالذي حاق بالمؤيد منكم ... بعد ما نوطت به الآمال
ذاك شؤم يا بني أم شيخ ... يمكن القائلين فيه المقال
ذاك شؤم فيه سمام الأكاعي ... ناجز النقد ، ليس فيه مطال
ذاك شؤم كالسيل عفى على القـ ... ـطر جلال كما يكون الجلال
ذاك شؤم لو جاور البحر يومـ ... ـين لأمسى وليس فيه بلال

فهذه قطعة نظمها فى نحو الثلاثين من عمره ، لأنها نظمت فى نكبة « المؤيد » . فقابل بينها وبين القطعة التالية التى نظمها وهو فى الخامسة والخمسين.

كبرت وفي خمس وخمسين مكبر
وشبت ، فألحاظ المها عنك نفر
اذا ما رأتك البيض صدت وربما
غدوت ، وطرف البيض نحوك أصور
وما ظلمتك الغانيات بصدها
وان كان من أحكامها ما يجور
أعر طرفك المرآة وانظر فان نبا
بعينيك عنك الشيب فالبيض أعذر
اذا شنئت عين الفتى وجه نفسه
فعين سواه بالشناءة أجدر

أو قابل بينها وبين هذه القطعة التى نظمها قبيل وفاته على لسان العزيز :

أيادى بنى الجراح عندى كبيرة — وأكبر منها أنها لا تكدر
هم القوم ينسون الأيادى منهم — عليك ، ولكن المواعيد تذكر
وان كنت قد أهملت بعد رعاية — وأغفلت حتى قيل أشعث أغبر
وقلدت شغلا ضره لى معجل — سريع ، وأما نفعه فمؤخر
أروح وأغدو فيه أنصب عامل — وأصفره كفا ، فكم أتصبر !

. . . .

أيعطش أمثالى وواديك فائض — ويجدب أمثالى وواديك أخضر
أبى ذاك أن الطول منك سجية — وأنك بيت الحمد بالطول تعمر
وانك لم تؤثر على الحق لذة — بحكم هوى ؛ فالحق عندك مؤثر
وما زلت تختار الأمور بحكمة — فأفضلها الأمر الذى تتخير

فانظر حين تقرن هذه الأبيات بعضها ببعض هل ترى بينهـا من تفاوت في الصناعة أو اختلاف في روح الشعر ونسج الـكلام وطريقة التركيب وتناول المفردات ؟ فهي وغيرها من قصائده التي نظمت من العشرين الى الستين طبقة واحدة من هذه الناحية لاتستطيع أن تتحقق فيها مزية سن على سن ولا فترة على فترة . وتعليل ذلك صعب في الشعراء المطبوعين غير ابن الرومي، أما هو فلا صعوبة في تعليل هـذا الاستواء في تركيبه والتشابه في روحه ونسجه ، لأنه ينسج من غزل واحد وبضاعة واحدة ، وهي الشعور الجـديد أو شـعور الطفـولة الفنية التي لازمته في حياته من المبدأ الى النهاية فلم يتغـير فيـه الا القليل بعـد ما درس نصيبه من اللغـة والعلم واستوفى مادته من الفن والصياغة، وكأنه الشجرة التي نضجت مبكرة وبلغت تمامها ورسخت في تربتهـا ، فثمرتها اليوم كثمرتها بعد سنوات عشر أو بعد عشرين وثلاثين ، ولا عيب في ذلك الا أن تكون الثمرة بسراً لاخير فيـه. أما اذا كانت ثمرة جنية كأطيب الثمر في النضرة والحلاوة فالتبكير اذن أصـلح من التـأخير والبقـاء على طبقة واحـدة أحب وأكمل من التغيير .

فالكلمة الأولى والأخيرة في هذا العبقري النادر أنه كان شاعرا في جميع حياته حيا في جميع شعره ، وان الشعر كان لأناس غيره كساء عيد وحلة موسم ولكنه كان له كساء كل يوم وساعة بل كان له جسما لاتكون بغـيره حيـاة .

خاتمــة

بالكلام عن صناعة ابن الرومى تمت الصورة التى استخرجناها له من مجموعة شعره ومتفرق أخباره . وحسبنا أن تتم هـذه الصـورة لنكون قد بلغنا الغاية من وضـع هذا الكتـاب وأقمنا ـ فى عرض الطريق ـ أوضح الأدلة المحسوسة على وحدة المقاييس بين تعبيرات الشعر وتعبيرات الحياة . ونحسب أننا قد أقمنا هذا الدليل فى وقت الحاجة اليه عند قراء الأدب الغربى بيننا ، قبل قراء الأدب العربى وحده بفرعيه من قديم وحديث . لأننا نعيش فى عصر شـاع فيـه بين كثير من الأوربيين أن الشعر شىء بمعزل عن خوالج الحياة ، واننا لاينبغى أن ننتظر منه مطلبا آخر غير الرونق والطلاوة ، وما الى ذلك من ظواهر قسامة لاتتجاوز البشرة الى ما وراءها من قلوب ونفـوس وضمائر .

وغير عجيب أن يشيع هذا الرأى القائل بين الأوربيين فى العصر الذى نحن فيه وهو عصر السآمة و « الفردية » وآداب الصـالونات والمجالس . اذ ماذا تنتظر من شعر يقرؤه انسان قد سئم المثـل العليا وكذب بالاغراض الرفيعة وفترت فيه قوة العقيدة ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرؤه انسان تفرض عليـه « الفـردية » أن يظل فردا معزولا بين أفراد معزولين ؟ وماذا تنتظر من شعر يقرؤه انسـان أنيق لا يريد أن يسمع من جليسه فى الصالون أو النادى أو القهوة الا شقشـقة لسان وأحاديث فراغ ؟ انك لاتنتظر من هذا الانسان أن يتطلب فى الشـعر ما يتطلبه الانسـان الذى تنشـط نفسه للعقيـدة ولو نشاط المكافحة والثوران أو يطلبه الانسان الذى تتصل بينه وبين الأحياء من حوله وشائج دم لاتزال تنقل منه اليهم كما تنقل اليـه ، أو يتطلبه الانسان الذى يحس أن الكون مجال حياة وأسرار يولد فيه مخلوقا حيا عريق الأصول فى آباد ليس لها نهاية ، لاعضوا فى « صالون » أو جليسا فى قهوة أو سمير فى سـهرات مجـون .. كلا ! انك لا تنتظر من انسان

السآمة والفردية والصالون أن يقرأ شعرا كالذى يقرؤه انسان النشاط القلبى والوشائج الآدمية والكون الأبدى المستهول الوضوح والخفاء على السواء ، فغير عجيب كما قلنا أن يشيع رأى أصحاب الرونق والطلاء فى هذا العصر ، وما بقى فيه للانسان من مطلب عزيز متفق عليه غير مطلب الراحة الملساء والهدوء الناعم من مزعجات الجهاد .

فاذا كنا ، مع استخراج صورة ابن الرومى من شعره ، قد وفقنا لاظهار الوحدة العامة بين الشعر والحياة أو بين الفن والحياة كلها — فذلك حسبنا من مقصد جدير بالالتفات خليق أن يتقرر بيننا قبل أن يشيع فى أذواقنا رأى السأم والأثرة واناقة المتبطلين .

لكننا نرجو أن نكون قد وفقنا لارضاء التاريخ الى جانب ارضاء التصوير وارضاء الوحدة بين الشعر والحياة ، وحسبنا فى هذا أيضا أننا سندع ترجمة ابن الرومى هنا خيرا مما تسلمناها من شتات الماضى صحة فى الأخبار ورجحانا فى الاحتمالات ، ومن هذه الأخبار أخبار تتعلق بمولده ووفاته : وأخبار أخرى تتعلق بأخلاقه ومعيشته ؛ ومنها أخبار تلقاها الناقلون بالتسليم وجرت فى التراجم مجرى المقررات ولا مصدر لها الا خطأ عارض فى طبع بعض التواريخ . كالخبر الذى ينقل عن ابن خلكان ويقال فيه أن المتنبى روى عن ابن الرومى شعره وبينهما ما بينهما من بعدى الزمان والمكان .. فيأخذه الناقلون ويقبله منهم من يقبل ويحار فيه من يحار ؛ وانما هو اسم «المسيبى» حرفه الطابعون الى اسم « المتنبى » فسرى الخطأ سريانه فى الكتب الحديثة بلا شذوذ ... وغير ذلك بكثير ليس يعنينا فى صدد هذه الخاتمة أن نحصيه وما شاكله ونحا نحوه فى جميع المصادر والمنقولات لأننا نقصد الى تصحيح ما لاح لنا خطؤه ولا نقصد الى احصائه على المخلصين .

***

وبعد فمن تمام التعريف بابن الرومى أن نختم كتابنا بمختارات له

لم نعتمد فيها الدلالة التاريخية التى توخيناها فى شواهد الفصول السابقة ، ولا ريب أن هذه الشواهد معرض حسن تبدو فيه شاعرية المترجم فى نواح كثيرة منوعة . ولكننا نعتقد أن المختارات التى تنشر لذاتها لا لموقعها من الترجمة أحرى أن تتمم المعرفة بشاعريته من جميع نواحيها وهاهى أولاء تلك المختارات معروضة فيما يلى لتدل على معدن شعره لا على أحسن مافيه :

الطبيعة والحياة

(الربيع شباب الطبيعة)

ضحك الربيع الى بكى الديم ... وغدا يسوى النبت بالقمم
ما بين أخضر لابس كمما ... خضرا ، وأزهر غير ذى كمم
متلاحق الأطراف متسق ... فكأنه قد طم بالجلم (١)
متبلج الضحوات مشرقها ... متأرج الأسحار والعتم
تجد الوحوش به كفايتها ... والطير فيه عتيدة الطعم
فظباؤه تضحى بمنتطح ... وحمامه تضحى بمختصم
والروض فى قطع الزبرجد والـ ... ياقوت تحت لآلىء تؤم
طل يرقرقه على ورق ... فكأنه در على لمم
حشد الربيع مع الربيع له ... فغدا يهزز ثابت الجمم (٢)
والدولة الزهراء والزمن المز ... هار حسبك شافيى قرم
ان الربيع لكالشباب وان الـ ... صيف يكسمه لكالهرم
أشقائق النعمان بين ربى ... نعمان ! أنت محاسن النعم
غدت الشقائق وهى واصفة ... آلاء ذى الجبروت والعظم
ترف لأبصار كحلن بها ... ليرين كيف عجائب الحكم
شعل تزيدك فى النهار سنى ... وتضىء فى محلولك الظلم
أعجب بها شعلا على فحم ... لم تشتعل فى ذلك الفحم
وكأنما لمع السواد الى ... ما احمر منها فى ضحى الرهم(٣)
حدق العواشق وسطت مقلا ... نهلت وعلت من دموع دم
هاتيك أو خيلان غالية ... أضحت بها الوجنات فى ذمم
يا للشقائق انها قسم ... تزهى بها الأبصار فى القسم
ما كان يهدى مثلها تحفا ... الا تطول بارىء النسم

---

(١) يطمه بالجلم يطوه بالمقص
(٢) جمع جمة والمقصود بها هنا رءوس الشجر
(٣) المطر الخفيف الدائم

(السحاب)

متهلل زجـــل ، تحـن رواعد في حجـزتيه ، وتستطير بروق
ســدت أوائله سـبيل أواخـر لم يدر ســائقهن كيف يسـوق
فسـجا ، وأسـعد حاليه بدرة منه ــ سـواعد ثروة وعـروق
وتنفست فيه الصـبا فتبجست منه الكلى ، فأديمـه معقـوق
حتى اذا قضيت لقيعــان الملا عنه حقـوق بعـدهن حقـوق
طفقت رواياه تجـــر مزادهـا فوق الربى، ومزادها (١)مشقوق
وتضاحك الروض الكئيب لصوبه حتى تفتـق نوره المرتـوق
وتنسمت نفحـــاؤه فكأنه مسك تضـوع ، فأره مفتوق
وتغــرد المـــكاء فيـه كأنه طرب تعـلل بالغنـاء مشـوق

(روضة)

وروضة عـذراء غـير عانسـة جادت لهـا كل سـماء راجسة

رائحـــة بالغيث أو مغالسه

فأصبحت من كل وشي لابسـة خضراء ما فيهـا خـلاة يابسة
ضـاحكة النـوار غير عابسة كأنهـا معشـوقة مؤانســة
فيهـا شموس للبهـار وارسة كأنهـا جمـاجم الشـمامسة
تروقك النـور منهـا الناكسة بعين يقظى وبجيـد ناعســة

لؤلؤة الطـل عليها فارسـة

وخرم في صـيغة الطيالسة يحكى الطواويس غدت مطاوسة
كأنمـا تلك الفـروع المائسـة تغمسـها في اللازورد غامسة
وصـفوة النعمـان والقوابسة من ناصـع الحمرة ريا قالسة
تـكاد تحت الظلمات الدامسـة تهـوى اليهـا كل كف قابسـة

---
(١) المزاد مايوضع فيه الزاد

النرجس

يا حبــــــذا النرجس ريحــانة ... لأنف مغبـــوق ومصـــــبوح
كأنه من طيب أرواحـــــــه ... ركب مــن روح ومن روح
يا حسنه فى العــين يا حسنه ! ... من لامــح للشــرب ملمــوح
كأنمــــا الطــل على نــوره ... ماء عيــون غــير مســـفوح

الهاجرة في الصحراء

وهاجرة بيضاء يعذى بياضــها ... ســوادا كأن الوجه منــه محمم
أظــل اذا كافحتهـــا وكــأننى ... بوهاجها دون اللثـــام ملثــم
بديمومة لا ظل فى صحصحانها ... ولا ماءلكن قورها(١) الدهرعوم
ترى الآل فيها يلطم الآل مائجــا ... وبارحهــا المسموم للوجه الطم

خابط الليل فى الفيافى

وليلـ غشاليلمن الدجن فوقهـ ... فليس لنجم فى غواشــيه منجم
عفا جلبــه آى الهدى من سمائه ... وأعلامه من أرضــه فهى طسم
لبست دجاه الجــون ثم هتكته ... بوجناء ينميها غرير وشــدقم (٢)
عــذافرة تنقض من كل زجــرة ... كماانقض مردى(٣)المنجنيقالململم
يخوض عليها لجــة الهول راكب ... هو السيف الا أنه لا يثــلم
نجيب من الفتيــان فوق نجيــة ... منالعيس، فى يهماء والليل أيهم
فريدين، يمضيهاوتمضيه فىالدجى ... كسمراء يمضيها وتمضــيه لهذم
يريهاالهدى حدساً،وتنجو برحله، ... ودون الهدى سد من الليل مبهم
على ظهرمرت (٤) ليس فيه معرج ... ولكن مخب للركاب ومسعم (٥)
ينــوح به بوم وتعــزف جنــة ... فيعوىلهاسيد ويضبحسمسم (٦)
يخال بهـا من رز هــذا وهذه ... اذا اختلف الصوتان عرس ومأتم
تعســـــفته اما لخفض أنــاله ... واماسآم الخفض، والخفضيسأم

---

(١) اصاغر الجبــال
(٢) فحلان مشـهوران من الابل
(٣) المردى حجـ... ـى به
(٤) ارض قفر لانبات بها
(٥) السعم السريع السـير
(٦) ثعلب

الاســـفار

أذاقتنى الأســـفار ماكره الغنى ... الى ، وأغرانى برفض المطـالب
فأصبحت فى الاثراء أزهد زاهد ... وان كنت فى الأثراء أرغب راغب
حريصا جبانا ، أشتهى ثم انتهى ... بلحظى جناب الرزق لحظ المراقب
ومن راح ذا حـرص وجبن فانه ... فقير أتاه الفقر من كل جـانب
تنازعنى رغب ورهب كلاهمـا ... قوى : وأعيانى اطلاع المغـايب
فقــدمت رجلا رغبة فى رغيبة، ... وأخرت رجـلا رهبة للمعـاطب
أخاف على نفسى وأرجو مفازها، ... وأســتار غيب الله دون العواقب
الا من يرينى غايتى قبل مذهبى! ... ومن أين والغايات بعد المذاهب

سفر البر

ومن نكبة لاقيتها بعد نكبــة ... رهبت اعتساف الأرض ذات المناكب
وصبرى على الأقتار أيسر محملا ... على من التغرير بعـد التجارب
لقيت من البـر التباريح بعد ما ... لقيت من البحر ابيضاض الذوائب
سقيت ـ على رى بهألف مطرة ... شغفت لبغضيها بحب المجـادب
ولم أسقها ، بل ساقها لمكيـدتى ... تحامق دهر جد بى كالملاعب
الى الله أشكوسخف دهرى فانه ... يعابثنى مذ كنت ، غـير مطايب
أبى أن يغيث الأرض حتى اذا ارتمت ... برحلى أتاها بالغيوث السواكب
سقى الأرض من أجلى فأضحت مزلة ... تمايل صاحيها تمايل شــارب
لتعويق سيرى أو دحوض مطيتى، ... واخصاب مزور عن المجد ناكب
فملت الى خـان مرث بنـاؤه ... مميل غريق الثوب لهفان لاغب
فلم ألق فيه مسـتراحا لمتعب ... ولا نزلا ، ايان ذاك لساغب!
فمازلت فى خوف وجوع ووحشة ... وفى سهر يستغرق الليل واصب
يؤرقنى سقف كأنى تحتــه ... من الوكف تحت المدجنات الهواضب
تراه اذا ما الطين أثقـل متنه ... تصر نواحيــه صرير الجنـادب
وكم خان سفر خان فانقض فوقهم ... كما انقض صقر الدجن فوق الأرانب

ولم أنس ما لاقيت أيام صحوه　　من الصر فيه والثلوج الأشاهب
ومازال ضاحي البر يضرب أهله　　بسوطي عذاب جامد بعد ذائب
فان فاته قطـــر وثلج فـانه　　رهين بسـاف تارة وبحاصب .
فذاك بلاء البر عندى شـاتيا،　　وكم لى من صيف به ذى مثالب
ألا رب نار بالفضـاء اصطليتها　　من الضح يودى لفحها بالحواجب
اذا ظلت البيـداء تطفـو أكامها　　وترسب فى غمر من الآل ناضب
فدع عنك ذكر البر ، انى رأيته　　لمن خاف هول البحر شر المهارب
كلا نزليـــه صيفه وشـتاؤه　　خلاف لما أهواه غـير مصـاقب
لهاث مميت تحت بيضاء سـخنة　　ورى مفيت تحت أسحم صائب
يجف اذا ما الريق أصبح عاصبا،　　ويغدق لى والريق ليس بعاصب
فيمنع منى الماء والبرح جـاهد،　　ويغـرقنى والرى رطب المحالب
ومازال يبغيني از .وف مـواربا　　ـيحوم على قتلي ـ وغير موارب
فطورا يغادينى بلص مصـلت ،　　وطورا يمسيني بورد الشوارب
الى أن وقاني الله محذور شره　　بعـــزته ، والله أغلب غـالب
فأفلت من ذؤبانه وأســـوده　　وخـرابه افـلات أتوب تائب

السفر بحرا ب..جلة

وأما بلاء البحر عنـــدى ف..　　طوانى على روع من الروح واقب(١)
ولو ثاب عقلى لم أدع ذكر بعضه　　ولكنه من هـوله غـــير ثائب
ولم لا؟ ولو ألقيت فيه وصخرة　　لوافيت منــه القعر أول راسب
ولم أتعلم قط من ذى سـباحة　　سوى الغوص،والمضعوف غير مغالب
فأيسر اشفاقى من المـــاء أننى　　أمر به فى الـكوز مر المجانب!
وأخشى الردى منه على كل شارب　　فكيف بأمنيـه على نفس راكب
أظل اذا هــــزته ريح ولألأت　　له الشمس أمواجا طوال الغوارب
كأنى أرى فيهن فرســـان بهمـة　　يليحون نحوى بالسيوف القواضب
فان قلت لى قد يركب اليم طاميا　　ودجلة عند اليم بعض المذانب(٢)

(١) غائر او مستكن

(٢) المذنب مسيل الماء الى الارض

فلا عذر فيها لامرىء هاب مثلها، وفى اللجة الخضراء عذر لهائب
فان احتجاجى عنك ليس بنائم وان بيانى ليس عنى بعازب
لدجلة خب ليس لليم ، انهـا تراءى بحلم تحته جهل واثب
تطامن حتى تطمئن قلوبنـا ، وتغضب من مزح الرياح اللواعب
وأجرافها رهن بـكل خيانة وغدر ، ففيها كل عيب لعائب
يرانا — اذا هاجت بها الريح هيجة تزلزل فى حوماتها بالقوارب —
نوائل(١) من زلزالها نحو خسفها، فلا خير فى أوساطها والجوانب
زلازل موج فى غمار زواخر ، وهدات خسف فى شطوط خوارب
ولليم أعذار بعرض متونه وما فيه من آذيه المتراكب
ولست تراه فى الرياح مزلزلا بما فيه — الا فى الشداد الغوالب
وان خيف موج عيذ منه بساحل خلى من الأجراف ذات الكباكب
ويلفظ مافيه ، فليس معاجلا غريقا بغت يزهق النفس كارب
يعلل غرقاه الى أن يغيثهم بصنع لطيف منهم خير مصاحب:
فتلقى الدلافين الكريم طباعها هنالك رعالا عند نكب النواكب
مراكب للقوم الذين كبا بهم ، فهم وسطه غرقى وهم فى مراكب
وينقض ألواح السفين فكلها منج لدى نوب من الكسر نائب
وما أنا بالراضى عن البحر مركبا ولكننى عارضت شغب المشاغب

(١) وال من الشىء الى الشىء لجأ

الطرد والقنص

(صـــيد الطير)

وقد أغتدى للطير والطير هجـــع ... ولو أوجست مغداى مابتن هجما
بخلين تمــا بى ثلاثة اخـــوة ... جسومهم شتى وأرواحهم معــا
مطيعين أهواء توافت على هوى ... فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا
اذا ما دعا منــا خليل خليله : ... بأفديك . لبـــــاه مجيبا فأسرعا
كأن له فى كل عضو ومفصـــل ... وجارحة قلبا من الجمر أصـــمعا
فثاروا الى آلاتهم فتقـــلدوا ... خرايط حمرا تحمل السم منقعــا
محملة زاداً خفيفاً منـــاطه ... من البندق الموزون قل وأقنعــا
وقد وقفوا للحائنات(١) وشمروا ... لهن الى الأنصــاف ساقا وأذرعا
وجدت قسى القوم فىالطيرجدها ... فظلت سجودا للرماة وركعـــا
فظل صحابى ناعمين ببؤســـها ... وظلت على حوض المنية شــرعا
طرايح من سود وبيض نواصـــع ... تخال أديم الأرض منهن أبقعــا
تؤلف منهــا بين شتى ، وانمــا ... نشتت من ألافها ما تجمعـــــا
فكم ظاعن منهن مزمع رحــــلة ... قصرنا نواه دون ماكان أزمعـــا
وكم قــادم منهن مرتاد منــزل ... أناخ به منــا منيـــخ فجعجعــا
كأن بنـــات الماء فى صرح متنـــه ... اذا ما علا روق الضحى فترفعــا
زرابى كسرى بثها فى صـــحانه ... ليحضر وفــداً أو ليجمع مجمعا
تريك ربيعا فى خريف ، وروضة ... على لجة : بدعاً من الأمر مبدعا

---

(١) للطير الحائنات

أدوات القتل

الرماة

لهم عدة تكفيهم كل عدة : بنات المنايا والحنى المـــوتر
يزلون عن أكباد كل حنيـــة خفافا مع الآجال تعلو وتقصر
نواها نواهم فى المنايا ، كأنما مواقعها فيما يشاءون تقـدر
لها ألســن ما تستفيق لهاتها يكاد لعاب الموت منهن يقطر

سيف

خيرما استعصمت به الكف عضـب ذكر حـده ، أنيث المهـــز
ما تأملتـــه بعينيـــك الا أرعدت صفحتاه من غير هــز
مثله أفزع الشجاع الى الدر ع فعـــالى به على كل بـز
ما يبـالى أصممت شـفرتاه فى محز أو جازتا عن محـز

مجالس الشراب واللهو

القيان والأتراك

(فى مجلس القاسم)

أظل اذا شاهدت يوم نعيمه — كأنى فى الفردوس فوق الأرايك
بمرءى من الدنيا جميل ومسمع — لدى ملك بالحق ، لا متمالك
تحت الحسان المحسنات كئوسه — بمدح له قد سار جم المسالك
من الوضح اللعس الشفاه كأنما — يفهن بأفواه الظباء الأوارك
يرفعن أصواتا لدانا وتارة — ينمنمن وشيا غير وشى الحوائك
كفلن لنا لما اصطففن حيالنا — بترحيل اضياف الهموم السوادك(١)
فما برحت تهدى الينا عجائب(٢) — عجائب تصبى كل صاب وناسك
فتاة من الأتراك ترمى بأسهم — يصبن الحشا فى السلم لا فى المعارك
كأن زمير القاصبات أعارها — شجاه وسجع الباكيات الضواحك
ظللنا لها نصبا تشك قلوبنا — بذاك الشجا الفتان لا بالنيازك
وما « جلنار » بالمقصر شأوها — ولا المتعدى قصد أهدى المسالك
لطيفة قد الشدى تسند عودها — الى ناجم فى ساحة الصدر فالك
تطامن عن قد الطوال قوامها — وأربى على قد القصار الحواتك
ورقاصة بالطبل والصنج كاعب — لها غنج مخنث ، وتكريه فاتك
أتيح لها فى جسمها رفد رافد — وان نالها فى خصرها نهك ناهك
اذا هى قامت فى الشفوف أضاءها — سناها فشفت عن سبيكة سابك

***

سبايا اليهن استباء عقولنا — ممالك ملكن اقتدار الممالك

---

(١) اللازمة (٢) اسم جارية

السوداء الحسناء

(فى مجلس عبد الملك بن صالح)

. . . .

سوداء لم تنتسب الى برص الشقـ ... ـر ولا كلفـة ولا بهـق
ليست من العبس الا كف ، ولا ... الفلح الشفاه ، الخبائث العرق
بل من بنات الملوك ناعمة ... تنشر بالـدل ميت الشبق
فى لين سمورة تخيرها الفـر ... اء ، أو لين جيد الدلق (١)
تذكرك المسك والغوالى والسـ ... ـك ذوات النسيم والعبق
هيفـاء زينت بخمص محتضن ... أوفى عليه نهـود معتنق
غصن من الآبنوس ألف من ... مؤتزر معجب ومنتطق
يهتز من ناهـديه فى ثمـر ... ومن دواجى ذراه فى ورق
أكسبها الحب أنها صبغت ... صبغة حب القلوب والحدق
فانصرفت نحوها الضمائر والأبـ ... ـصار يعتنق أيمـا عنق
يفتر ذاك السواد عن يقق ... من ثغرها كاللآلىء النسق
كأنها والمزاح يضحكها ... ليل تفرى دجاه عن فلق
سمحاء كالمهرة المطهمة الـدهـ ... ـماء تنضو أوائل السبق

الشراب فى الخمائل

وصفراء بكر ، لا قذاها مغيب ... ولا سر من حلت حشاه مكتم
ينم على الأمرين فرط صفائها ... وسورتها حتى يبوح المجمجم

هو الورس فى بيض الكئوس ، وان بدت
لعينـك فى بيض الوجوه فعندم

مذاق ومسرى فى العروق كلاهما ... ألذ من البرء الجديد وأنعم
اذا نزلت بالهم فى دار أهـله ... غدا الهم وهو المرهق المتهضم
أقامت ببيت النار تسعين حجة ... وعشراً يصلى حولها ويزمزم

---

(١) حيوان يقرب من السنور فى الحجم

سقتنى بهابيضاء ، فوها وكأسها   شبيها مذاق عنـد من يتعلم
لدى روضة فيها من النور أعين   ترقرق دمعا ، بل ثغور تبسـم

يضـاحك روق الشمس منهـا مضاحك
مدامعــه من واقـع الطـل سـجم

كمستعبر مسـتبشر بعد حـزنة   لبين خليط قوضوا ثم خيمـوا
يغازلنى فيهـا غزالان منهمـا   ربيب الفيافى والربيب المتـوم
اذا نصـبا جيديهما فكلاهما   سواء وأبريق لدى مقـدم (١)
ثلاثة أظب نحرها غير واحـد   لذى اللهو فيها كلهـا متنعـم
غزال ، وأبريق رذوم : وغـادة   تحـرك من أوتارها وتنغـم

(١) المقدم الذى عليه القدام وهو شبه مصـفاة

الموسيقى والغناء

فى وحيد المغنية

يا خليـــــلى تيمتنى وحيـــد ... ففؤادى بهـــا معنى عميـــد
غادة زانهـــا من الغصـــن قد ... ومن الظبى مقلتـــان وجيـــد
وزهاها من فرعها ومن الخـــد ... ن ذاك الســـواد والتـــوريد
أوقـــد الحسن ناره فى وحيد ... فوق خد ما شـــابه تخـــديد
فهى برد بخـــدها وســــــلام ... وهى للعاشقين جهـــد جهيـــد
لم تضر قط وجهها وهو مـــاء ... وتذيب القلوب وهى حـــديد
ما لما تصـــطليه من وجنتيهـــا ... غير ترشـــاف ريقهـــا تبريد
مثل ذاك الرضـــاب أطفأ ذاك ... الوجد لولا الأباء والتصريد (١)

***

وغـــرير بحســـنها قال : صفها! ... قلت : أمران ، هـــين وشديد
يسهل القول انها أحسن الأشـــ ... ياء طـــرا ويعسر التحـــديد
شمس دجن ، كلا المنيرين — من شمس وبدر — من نورها يستفيد
تتجـــلى للنـــاظرين اليهـــا ... فشـــقى بحســـنها وســـعيد
ظبيـــة تســـكن القلوب وترعا ... ها ، وقمرية لهـــا تغـــريد
تتغنى ، كأنهـــــــا لا تغنى ... من سكون الأوصال ، وهى تجيد
لاتراها هنـــاك تجحـــظ عـــين ... لك منهـــا ، ولا يدر وريـــد
من هـــدو وليس فيـــه انقطاع ... وســـجو وما به تبليـــــد
مد فى شأو صـــوتها نفس كاف ... كأنفـــاس عاشـــقيها مـــديد
وأرق الدلال والغنج منـــــه ... وبراه الشـــجا فـــكاد يبيـــد
فتـــراه يمـــوت طـــورا ويحيا ... متـــلذ بـــسيطه والنشـــــيد
فيه وشى ، وفيـــه حلى من النـ ... غم مصـــوغ يختال فيه القصيد

---

(١) صرد الرجل سقاه دون الرى

طاب فوها وما ترجع فيه . كل شيء لهـا بذاك شـهيد
ثغب (١) ينقع الصدى ، وغناء عنده يوجد السرور الفقيـد
فلها الدهر لاثم مسـتزيد ولها الدهر سـامع مستعيد
في هـوى مثلها يخف حليم راجح حلمه ، ويغوى رشـيد
ما تعاطى القلوب الا أصابت بهـواها منهن حيث تريد
وتر العزف في يديهـا مضاه وتر الرجف فيه سـهم شديد
واذا أنبضته للشرب يـوما أيقن القوم أنهـا ستصـيد
معبد في الغناء وابن سـريج وهي في الضرب زلزل وعقيد
عيبها أنهـا اذا غنت الأحـرا ر ظلوا وهم لديهـا عبيـد
واستزادت قلوبهم من هواها برقاها ، وما لديهم عبيـد

***

وحسان عرضن لي، قلت: مهلا عن وحيد فحقهـا التوحيـد
حسنها في العيون حسن وحيد فلها في القلوب حب وحيـد
ونصيح يلومني في هـواها ضل عنه التوفيق والتسديد
لو رأى من يلوم فيه؛ لأضحى وهو المستريث والمسـتزيد
ضلة للفؤاد يحنـو عليهـا وهي تزهد حياته وتكيـد
سحرته بمقلتيهـا فأضحت عنده والذميم منهـا حميـد
خلقت فتنة غنـاء وحسنا ما لهـا فيهما جميعا نديد
فهي نعمى ، يميد منهـا كبير وهي بلوى، يشيب منها وليد
لي حيث انصرفت منها رفيق من هواها، وحيث حلت قعيد
عن يميني وعن شمالي وقدامي وخلفي ، فأين عنـه أحيد ؟
سـد شـيطان حبها كل فج ان شيطان حبهـا لمـريد
ليت شعري اذا أدام اليهـا كرة الطرف مبدىء ومعيـد
أهي شيء لا تسأم العين منه؟ أم لهـا كل سـاعة تجديد؟
بل هي العيش لايزال متى اسـتـ عرض يملي غرائبا ويفيـد

(١) الغدير لا تصيبه الشمس فيبرد الماء

منظر ، مسمع ، معـان من اللهـ ... ـو ، عتـاد لمـا يحب عتيـد
لايدب المـلال فيها ، ولا ينـ ... ـقض من عقـد سـحرها توكيد
حسنها فى العيون حسن جديد ... فلهـا فى القلوب حب جـديد

***

أخـذ الله ياوحيـد لقـلبى ... منك ما يأخـذ المديل المقيـد
حظ غـيرى من وصلكم قرة الـ ... ـعين ، وحظى البكاء والتسهيـد
غـير أنى معلل منـك نفسى ... بعدات خـلا لهـن وعيـد
ما تزالين نظـرة منـك مـوت ... لى مميت ، ونظـرة تخليـد
تتـلاقى ،فلحظة منـك وعدٌ ... بوصـال ، ولحظـة تهـديد
قد تركت الصـحاح مرضى يميـ ... ـدون نحـولا وأنت خوط يميد
ضافنى حبك الغـريب ، فألوى ... بالرقاد النسيب فهـو طـريد
عجباً لى ، ان الغـريب مقيم ... بين جنبى ، والنسيب شـريد
قد مللنـا من سـتر شىء مليح ... نشـتهيه ، فهـل له تجـريد!
هو فى القلب وهو أبعد من نجـ ... ـم الثريا فهـو القريب البعيد

رثاء بسـتان المغنية

انا الى الله راجعـون لقـد ... غال الردى سـيرة من السـير
ما أولع الدهـر فى تصـرفه ... بكل زين له ومفتخـر
يعـدو على نفسـه فيسلبها ، ... الا عتـاد المعـد ذى النمر
كم ملبس لايعـاب هتـكه ... عن جلدة منـه شثنة الوبر (١)
أودى ببسـتان وهى حلتـه ... فقد غـدا عـاريا من الحبـر
أطار قمـرية الغنـاء عن الأر ... ض فأى القـلوب لم يطـر
لله ما ضـمنت حفـيرتها ... من حسن مرأى وطهـر مختبر
أضحت من الساكنى. حفائرهم ... سكنى الفوالى مداهن السرر
مطيبى كـل تـربة خبثت ... ومؤنسيها بشر مجتـور

(١) الشثن الغليظ

يا حر صدرى على ثلاثة أمواه هريقت فى الترب والمدر
ماء شباب ونعمة مزجا بماء ذاك الحياء والخفر
لو يعلم القبر من أتيح له لاتحفر القبر غير محتفر
أو لأباها ، فصان حينئذ عن رمسه درة من الدرر
ان ثرى ضمها لأفضل محجو ج لصب وخير معتمر
أقسمت بالغنج من ملاحظها وسحر ذاك السجو والفتر
لو عقرت حول قبرها بقر الأنس مكان القلاص والمهر
والدر نظم على الترائب منهن ، وأشكاله من العتمر
وانتحرت فى فنائه بهم الحرب وصيد الملوك من مضر
ثم سقيت الدماء تربتها لم أشف مافى الفؤاد من وحر
نعمك يا نفس فانحرى أسفاً فان هذا أوان منتحر
ما حسن أنتذوب مهجتها ومهجتى لم ترق ولم تمر
لا ينكر الدهر بعد مهلكها هلك ذوات الجلال والخطر

***

بستان يا حسرتا على زهر فيك من اللهو ، بل على ثمر
بستان لهفى لحسن وجهك والاحسان ، صارا معاً الى العفر
بستان أضحى الفؤاد فى وله يانزهة السمع منه والبصر
بستان مامنك لامرىء عوض من البساتين ، لا ولا البشر
بستان أسقيت من مدامعنا الدمع ؛ وأعقبت عقبة المطر
بل حق سقياك أن تكون من الصهباء ، صهباء حمص أو جدر
بل من رحيق الجنان يقطب بالمسك ، سلالاته بلا عسكر
بل من نجيع القلوب يمزج بالعطف وصفو الوداد لا الكدر
يا نعمة الله فى بريته أصبحت أحدى فواقر الفقر
يا غضة السن يا صغيرتها أمسيت أحدى المصائب الكبر
أنى اختصرت الطريق يا سكنى الى لقاء الأكفان والحفر
أنى تجشمت فى الحوادث ما جشمت من كره ذلك السفر
أحميك من مورد قصدت له لاينتهى ورده الى صدر

ياشمس زهر الشـــموس ، يا قمر الأقمـار حسناً يا زهرة الزهر
أبعد ما كنت باب مبتهـــج للنفس أصبحت باب معتبـر
أصبحت كالترب غـير راجحـة به ، وقد ترجحين بالبـــدر
أصابنا الدهر فيـك أكمل ماكنـ ـت ؛ فمـا رزؤنا بمجتبــــر
لم تقتحمك العيـون من صـغر ولا قلتـك النفوس من كبـر
فكيف تسلوك والأسى أبـدا فى كبر ؛ والسـلو فى صـغر
كل ذنوب الزمان مغتفــــر وذنبه فيـك غـير مغتفـــر
تبتـل العـود عنـد فقدكم وازدجـر اللهـو كل مزدجـر
وغاب عنـا السرور بعـدكم واحتضر الهم حين محتضـر
وفاض ماء النعيم يتبعـــكم وانهمر الدمع كل منهمـــر
فان ســعنا لمزهـر وتـرا حن ، فهاتيك عـولة الوتـر
أما ولؤم البـلى وقســـوته لقـد محا منـك أحسن الصور
يابشرا صـــاغه المصـــور من نور على سـنة من الفطـــر
بل من شعاع العقول حين ترى الغيـ ـب بعـين الـذكاء والعبــر
لا تحســبونى عنيت بعـدكم عنكم بشمس الضحى ولا القمر
لا تحســبونى أنست بعـدكم الى هديل الحمـام فى الشجر
لا تحســبونى استرحت بعدكم الى نسـيم الشـمال بالسـحر
لا تحسبوا العين بعدكم سرحت فى مسرح من مســارح النظـر
يأبى لهــا ذاك أن ناظـــرها فى شـغل بالسـهاد والعبـر
وكيف بالنـوم للمباشر أطـرا ف حمـات الحيات والابـر
سقيا ورعيا لعيشـــة معـكم أصبحت من عهـدها بمفتقـــر
أمتعنى دهـــرها بغبطتـــه على الذى كان فيـه من قصر
كانت ليـاليه كلهـــا سـحرا وكان أيامهن كالبـــــكر
لهـــو أطفنـا بيكر لـذته وما فضضنا خواتم العـــذر
ولم ننـل من جنـــاه نهمتنا وان حظينا بـســونق الزهــر
وكم قد شربت الرضاب فى قبل كانت، ولكن شربت بالغمر (١)

---

(١) الأقدح الصغيرة

جـدى فم فيه لؤلؤ وجنى نحـ ـل بمـاء السحاب فى النقر
غنـاؤه يشـتكى حـرارته وريقـه يشتكى من الخصر
كنتم لنـا فتنة من الفتن الـ ـغر بلا شـهرة من الشـهر

***

كأننى ماطلعت مقبـلة على يـوما بأملح الطـرر
فى كفك العود وهو يؤذن بالا حـ ـسان ايذان صـادق الخبر
اذ مشـيكم مذكرى غناءكم مشى الهوينى سواكن البقـر
واذ فسـادى بكم يـذكرنى « لنفسدن الطواف فى عمر » (١)
كأن عينى ماأبصرتك ضـحى فى مجلسى ـ والوشاة فى سقر ـ
كأنهـا ما رأتك كالملك الأصـيد فى التـاج يوم مبتهـر
يا أحسن العالمين حـاسرة وأكمل النـاس عند معتجـر
كأنهـا ما رأتك صـادحة والصـدح الورق عكف الزمر
يسمعن ، أو يستفدن منك شجا والتمر يمتـار من قرى هجـر
كأننى ما اقترحت ما اقتـرحت نفسى ، فسـاعفتنى بلا زور (٢)
كأننى ما اسـتعدت مقتـرحى يوما فـكررته بـلا ضـجر
وصـنت خـداً كسـاه خالقه الحسن ، فصعرته عن الصـعر
ولو تكبرت كنت معـذرة ؛ والمسـك مالا يعـاف بالذفر
كأننى ما نعمت منـك بمرتـا ح نعيـم ولا بمبتـكر
رضيت من منظـر بطيف كـرى يمـرو ، ومن مسـمع بمدكر
لولا التعـزى بذاك آونـة لانفطـر القلب كل منفطـر (٣)

***

(١) يشير الى قول عمر بن ابى ربيعة من ابيات له

« ابصرتهـا ليـلة ونسـوتها يمشـين بين المقـام والحجر
قالت لهـا أختهـا تعـاتبها لافسـدن الطـواف فى عمـر »

ولعل بسـتان كانت تغنى هـذه الابيـات

(٢) الزور البـل

(٣) اى لولا التعزى بوصلها فى الخلد .

ما انتهك الدهر قبلكم لذوى ... اللهو حريما فى البدو والحضر
أبكيك بالدمع والدماء بل ... التسهاد بل بالمشيب فى الشعر
بل بنحول العظام محتقرا ؟ ... ذاك وان كان غير محتقر
بل باجتناب الشفاء بل بتوخى الـ ... نفس ما يتقى من الضرر

***

لا أسأل الله حسن مصطبر ... فانه عنك لؤم مصطبر
وحزن نفسى عليك من كرم ... وهو على من سواك من خور
وقد يعزى الفؤاد أنك فى ... جنة عدن غداً وفى نهر
سيشفع الحور فيك أنك منـ ... من بذاك الدلال والحور

هجاء ابى سليمان المغنى

ومسمع لا عدمت فرقته ... فانها نعمة من النعم
يطول يوم اذا قرنت به ... كأننى صائم ، ولم أصم
اذا تغنى النديم ذكره ... أخذ السياق (١) الحثيث بالكظم
يفتح فاه من الجهاد كما يفـ ... تح فاه لأعظم اللقم
مجلسه مأتم اللذاذة والقصـ ... ف ، وعرس الهموم والسدم (٢)
ينشدنا اللهو عند طلعته: ... « من أوحشته البلاد لم يقم (٣)
كأننى طول ما أشاهده ... أشرب كأسى ممزوجة بدمى
تشهده فرط ساعتين فينـ ... سيك عهوداً لم تؤت من قدم
يريك ماقد عهدت فى أمسك الأدنى ، كشىء فى سالف الأمم
عشرته عشرة تبارك فى الأعـ ... مار لولا تعجل الهرم
اذا الندامى دعوه آونة ... تنادموا كأسهم على ندم
نبرد ، حتى يظل ينشدنا : ... هل بالديار الغداة من صمم !
يستطعم الشرب أن يقال له ... «أحسنت!» والقوم منه فى وكم (٤)

---

(١) الاحتضار
(٢) الهم مع الندم
(٣) كناية عن اللهو ان يستوحش فيرحل
(٤) شدة الحزن والجزع

وكيف للقوم بالتصنيع ؟ لا كيف ، ولو صوروا من الـــكرم
يظهـــر فى وجهـــه اســـاءته كأنها مســـحة من الحمـــم
يسود من قبـــح ما يجيء به حتى كأن قـــد أسف بالفحـــم
يرتاح منـــه الى الأذان كمـــا يرتاح ذو شـــقة الى عـلم
يشـــدو بصوت يســـوء سامعه تبـــارك الله بارىء النســـم
أبح فيـــه شـــذور حشرجة منظـــومة فى مقاطع النغم
نبـــرته غصـــة ، وهـــزته مثـــل نبيب التيوس فى الغنم
لو قدس الله ذو الجـــلال بـــه لم يرفـــع الله طيب الـــكلم
يفـــزع الصـــبية الصـــغار به اذا بكى بعضـــهم ولم ينـــم
يقسو له القلب — حين يسمعه — عـــلى أحبـــائه بـــلا جـــرم
أحـــلف بالله لا شريك لـــه فانهـــا غـــاية من القســـم
ما عرف الله قبـــله أحـــداً ما فضـــل نعمـــائه على النقم

هجو شـــنطف

شنطف ياعوذة الســـموات والأر ض وشمس النهـــار والقمـــر
ان كان ابليس خالقـــة بشراً فأنت —عندى— من ذلك البشر
صورك المـــارد اللعين فأعطتـــ ك يداه مقـــابح الصـــور

هجو كتيزة

شاهدت فى بعض ماشاهدت مسمعة كأنمـــا يومهـــا يومان فى يوم
تظل تلقى على من ضـــم مجلسها قولا ثقيلا على الأسماع كالنوم
لهـــا غنـــاء يثيب الله ســـامعه ضعفى ثواب صلاة الليل والصوم
ظللت أشرب بالأرطال لا طـــربا عليه بل طلبـــا للســـكر والنوم

مناعم الخوان

طلاب المأدب

(قصيدة فيها وصف ودعابة قالها فى أبى شيبة بن الحاجب وكان قد دعاه واستتر عنه)

نجاك ياابن الحاجب الحاجب، وأين ينجـو منى الهـارب!
أبعـد احرازك ايمـاننا هاربتنـا واعتـذر الحاجب؟
يا عجبـاً اذ ذاك من حـالة دافعنـا فيهـا هو الجـاذب
حقاً لقـد أوليتنـا جفـوة يمحـل منهـا البلد العاشب
أنظر بعين العـدل تبصر بها أنك عن منهـاجه نـاكب

***

لهفى وقـد جاءتك جفـالة كل مغـذ ساغب لاغب
من كل شذان الحشـا لهسم(١) يأكل مـالا يأكـل الحـاسب
فـكاه كالعصرين من دهره كلاهمـا فى شـأنه دائب
ذى معـدة ثعلبها لاحس وتارة أرنبهـا ضـاغب
تعـلوه حمى شره نافض لكن حمى هضـمه صـالب
كأنمـا الفـروج فى كفـه فريسـة ضرغامهـا دارب
وان غـدا الشبوط قرناً لهم فخد شـبوطهم التـارب
أقسـمت لـونك ، لاقيتهم نابك من من أضراسهم نـائب

***

أبشر بـكر عاجـل اننى بالثـأر فى أمثـالها طـالب
لا تحسبنى عنـك فى غفـلة عودى وشيك أيهـا الصاحب،

---

(١) لهسم أكل جميع ما على المـائدة

قلت لصحبي حين راوغتهم: « لاتحزنوا ، قد يشهد الغائب
سيصنع الله لنا في غد ان كان أكدى يومنا الخائب
كروا على الشيخ بتطفيلة عن عزمة كوكبها ثاقب
وان زواه منكم جانب . فلا يفتكم ذلك الجانب
جوسوا عليه الأرض واستخبروا حتى يروح الخبر العازب
لا تنجون منكم فراريجه لا وهب المنجي لها الواهب
لا تفلتن منكم شبابيطه لاأفلت الطافي ولا الراسب
جدوا فقد جد بكم لاعبا وقد يجد الرجل اللاعب
وليكن الكر على غرة والصيد في مأمنه سارب
مقالة قمت بها خاطبا وقد يصيب الغرة الخاطب

***

فاعتزم القوم على غارة ساند فيها الراجل الراكب
يهدي أبو عثمان كردوسها (١) هذاك ، ذاك الطاعن الضارب
يرقل والراية في كفه قد حفها الرامح والناشب

***

والقوم لاقوك فأعدد لهم ما يرتضي الآكل والشارب
يسر فراريجك مقرونة بها شبابيطك يا كاتب
تلك التي مخبرها ناعم تلك التي منظرها شاحب
واذكر بقلب غير مستوهل يعروه من ذكرى القرى ناخب
أنك من جيران قطربل وعندك اللقحة والحالب
فاسق حليب الكرم شرابه اذ ليس من شأنهم الرائب
أحضرهم البكر التي ما اصطلت نارا ، فكل خاطب راغب
تلك التي مابايتت راهبا الا جفا قنديله (٢) الراهب
تلك التي ليس لها مشبه في الكاس الا الذهب الذائب

---

(١) طائفة الخيل

(٢) كناية عن اشراقها والاكتفاء بسناها

أو أمها الكبرى (١) التى لم يزل … لليل من طلعتها جانب
حققها بالشمس أن ربيت … فى حجرها ، والشبه الغالب
أعجب بتلك البكر محجوبة … مكروبة يجلى بها الكارب
مغلوبة فى الدن مسلوبة … لها انتصار غالب سالب
بينا ترى فى الزق مسحوبة … اذ حكمت أن يسحب الساحب
تقتص من واترها صرعة … ليس لها باك ولا نادب
الا حمام الأيك فى أيكة … أو عازف للشرب أو قاصب
ذات نسيم مسكه فائح … وذات لون ورسه خاضب
هاتيك هاتيك على مثلها … حام ولاب الحائم اللائب
والنقل والريحان من شأنهم … فلا يعب فقدهما عائب
ولا تنم عن نرجس مؤنس … يضحك عنه الزمن القاطب
ريحان روح منهب عطره … والروح اذ ذاك هو الناهب
لم يقلح الصيف له صفحة … ولا سقاه عوده الشاسب (٢)
وزخرف البيت ، كما زخرفت … روضة حزن جادها هاضب
واجلب لهم حسناء فى شدوها … ـ لكل ما سرهم ـ جالب
محسنة ليست بخطاءة … طائرها الهادل لا الناعب
بيضاء خوداً ردفها ناهد … غيداء رودا ثديها كاعب
مملوكة بالسيف مغصوبة … لها دلال مالك غاصب
تستوهب الجيد اذا أتلعت … من ظبية أفزعها طالب
نعيم من نادمها دائم … وبرح من فارقها واصب
كأنها والبيت مستضحك … والعود فى قبضتها صاخب
أدمانة تنزب فى روضة … جاوبها خشف لها نازب (٣)
واصبب عليهم تحفاً جمة … يحمى بهن الموعد الكاذب
واغرم لهم من بعد ذا كله … ما نقل الملاح والقارب

---

(١) أو لا شبه لها لا امها الكبرى وهى الشمس التى تمزق طلعتها الظلام

(٢) اليابس

(٣) غزالة تصوت فيجاوبها ولدها ـ كناية عن مجاوبة العود لغناء المغنية

وتب من الذنب الذي جئته ... فقد يقال (١) المذنب التائب
كيما يقولوا حين ترضيهم: ... يا حبذا المنهزم الثائب

***

اعتب بيوم صالح فيهم ... ليس على أمثاله عاتب
ولا يكن يوماً اذا ما انقضى ... صيح به : لا رجع الذاهب
عجل لهم ذاك ولا تهجهم ... ولا يتب منك بهم واثب
فليس من يأدب اخوانه ... مؤدبا للقوم بل ادب
أخلفنا نوءك موعوده ... فلا تصبنا ريحك الحاصب
حاشاك آن يلقاك مستمطر ... ومزنك الصاعق لا الصائب

اللوزينج

(وهو حلواء تشبه القطائف تؤدم بدهن اللوز)

لا يخطئني منك لوزينج ... اذا بدا أعجب أو عجبا
لم تغلق الشهوه أبوابها ... الا أبت زلفاه أن يحجبا
لو شاء أن يذهب فى صخرة(٢) ... لسهل الطيب له مذهبا
يدور بالنفخة فى جامه ... دوراً ترى الدهن له لولبا
عاون فيه منظر مخبراً ... مستحسن ساعد مستعذبا
كالحسن المحسن فى شدوه ... تم فأضحى مطربا مغربا
مستكثف الحشو ولكنه ... أرق قشراً من نسيم الصبا
كأنما قددت جلابيبه ... من أعين القطر الذى قببا
يخال من رقة خرشائه (٣) ... شارك فى الأجنحة الجندبا
لو أنه صور من خبزه ... ثغر لكان الواضح الأشنبا
من كل بيضاء يحب الفتى ... أن يجعل الكف لها مركبا
مدهونة زرقاء ، مدفونة ... شهباء ، تحكى الأزرق الأشهبا
ملذ عين وفم ، حسنت ... وطيبت حتى صبا من صبا

---

(٢) يفغر له

ذيق لهـا اللوز فـلا مـرة ... مـرت على الـذائق الا أبى
واتقـد السـكر نقـاده ... وشـاوروا في نقـده المذهبا
فلا اذا العـين رأتهـا نبت ... ولا اذا الضرس علاها نبـا

الشـبوط

فلا يبعد الشـبوط من متلبس ... طهارته الحسنى ، ومن متجرد
اذا نش في سفوده عند نضجه ... وأخرج من سرباله المتـورد
فتى رعى مرعى بدجلة مخصبا ... أبى أن يراه زائد غـير محمـد
الى أن أصابته من الدهر نوبة ... وقد صار أقصى منية المتجود
فأصدره الصياد عن خـير مورد ... وأورده الشـواء أخبث مورد
وجـاء به الحمـال أطيب مطعم ... الى الطيب المنفـاق غير المصرد
ويا حبـذا امعاننا فيه ناضجاً ... كما جـاء من تنـوره المتوقد
واني لمشـتاق الى عود مثـله ... وان كنت أبدي صفحة المتجلد

الدجـاجة

وسـميطة صـفراء دينـارية ... ثمناً ولوناً زفها لك حزور (١)
عظمت فكادت أن تكون أوزة ... ونوت فـكاد اهابهـا يتفطر
ظلنـا نقشر لحمها عن جلدها ... وكأن تبـرا عن لجـين يقشر

(١) غـلام حزور بلغ القـوة

الفواكه

(فواكه ايلول)

لولا فواكه أيلول اذا اجتمعت من كل نوع ورق الجو والماء
اذن لما حفلت نفسي متى اشتملت على هائلة الجالين غبراء

(الموز)

انه (الفوز) مثل مافقده (الموت) لقد بان فضله لا خفاء
ولهذا التأويل سماه (موزا) من أفاد المعاني الأسماء
رب فاجعله لي صبوحا وقيلا وغبوقاً وما أسأت الغذاء
وأرى — بل أبت — أن جوابي: « لاتغالط ، فقد سألت البقاء »
نكهة عذبة وطعم لذيذ شاهدا نعمة على نعماء
لو تكون القلوب مأوى طعام نازعته قلوبنا الاحشاء
أنني للحقيق بالشبع السائغ من أكله وان كان ماء

كرمة بعنب الرازقي

ورازقي مخطف الخصور كأنه مخازن البلور
لم يبق منه وهج الحرور الا ضياء في ظروف نور
لو أنه يبقى على الدهور قرط آذان الحسان الحور
له مذاق العسل المشور ونكهة المسك مع الكافور

وبرد مس الخصر المقرور

باكرته والطير في الوكور — وعذر اللذات في البكور —
بفتية من ولد المنصور املا للعين من البدور
حتى أتينا خيمة الناطور قبل ارتفاع الشمس للذرور

فانقض كالطاوى من الصقور ... بطاعة الراغب لا المجبور
ثم جلسنا مجلس المحبور ... على حفافى جدول مسجور(١)
أبيض مثل المهرق المنشور ... أو مثل متن المنصل المشهور
ينساب مثل الحية المذعور ... بين سماطى شجر مسطور

فنيلت الأوطار فى سرور

وكل ما نقضى من الأمور ... تعلة عن يومنا المنظور

ومتعة من متع الغرور

---

(١) ملآن

المرأة والحب

النسـاء

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفـاح ورمان (١)
وفوق ذينك أعنـاب مهـدلة ... سود لهن من الظلماء ألوان (٢)
وتحت ذلك عنـاب تلوح بـه ... أطرافهن قلوب القوم قنوان (٣)
غصون بان عليها ـ الدهر ـ فاكهة ... وما الفواكه ممـا يحمل البـان
ونرجس بات سارى الطل يضربه ... وأقحوان منـير النور ريان (٤)
ألفن من كل شيء طيب حسـن ... فهن فاكهـة شتى وريحـان
ثمار صـدق اذا عاينت ظاهرها ... لكنها حين تبلو الطعم خطبان (٥)
بل حلوة مرة ، طوراً يقـال لها ... شهد، وطوراً يقول الناس ذيفان (٦)
ياليت شعرى ـ وليت غير مجدية ... الا استراحة قلب وهو أسوان
لأى أمـر مراد بالفتى جمعت ... تلك الفنون فضمتهن أفنـان ؟
تجاورت فى غصون لسن من شجر ... لكن غصون لها وصل وهجران
تلك الغصون اللواتى فى أكمتها ... نعم وبؤس وأفراح وأحـزان
يبلو بهـا الله قـوماً كى يبين له ... ذو الطاعة البر ممن فيه عصيـان
وما ابتلاهم لأعنـات ولا عبث ... ولا لجهل بما يحويه ابطـان
لكن ليثبت فى الأعنـاق حجته ... ويحسـن العفو، والرحمان رحمان
ومن عجائب مايمنى الرجـال به ... مستضعفات لنـا منهن أقـران
مناضـلات بنبـل لاتقـوم له ... كتـائب الترك يزجيهن خاقان
مستظهرات برأى لايقـوم لـه ... قصير عمرو ، ولا عمرو ووردان

---

(١) (الأغصان) اشارة الى القدود و (التفاح) الخدود و (الرمان) النهود

(٢) كرم الأعناب اشارة الى مسترسل الشعور

(٣) (العناب) البنان المخضوب

(٤) (النرجس) اشارة الى الأعين و (الأقحوان) الثغور الناصعة الثنايا

(٥) جمع اخطب مر ويقال أمر من تقبع الخطبان

(٦) سم .

من كل قاتلــة قتــلى ، وآسرة أسرى وليس لها فى الأرض أثخان
يولين ما فيه اغــرام ، وآونة يولين مافيه للمشــغوف سلوان
ولا يدمن على عهـــد لمعتقــد أنى ؟ وهن كما شبهن بســتان
يميل طــوراً بحمــل ثم يعدمه ويكتسى ثم يلفى وهــو عريان

امتزاج روحين

أعانقها ، والنفس بعــد مشوقة اليها : وهل بعد العناق تدان ؟
وألثم فاها كى تموت حــزازتى فيشتد ما ألقى من الهيمـــان
وماكان مقدارالذى بى من الجوى ليشــفيه ما ترشــف الشفتان
كأن فؤادى ليس يشــفى غليله سوى أن يرى الروحين تمتزجان

لمحة التوديع

رب كعاب فى حجاب لم تزل ، مثل الغــزال عنقــا ومــكتحل
لم تكتحل مقلتها سوى الكحل ولا تحلى جيدها سوى العطــل
مازلت منهــا فى مطــال وعلل حتى اذا ما قـــدر البين نزل
خلست منهــا نظــرة على وجل آخــرها أولهــا من العجــل
ثم أجنتهـــــا غيابات الــكلل

الشباب الراحل

أبين ضــلوعى جمــرة تتــوقد على مامضى ؟ أم حسرة تتجدد؟
خليلى مابعــــد الشباب رزية يجم[1] لها ماء الشــئون ويعتــد
فلا تلحيا ان فاض دمع لفقــده فقل له بحر من الدمع يثمــــد
ولا تعجبــا للجلد يبكى، فربما تفطر عن عين من المــاء جلمــد
شــباب الفتى مجلوده وعزاؤه فكيف ؟ وانى ؟ بعــده يتجــلد
وفقد الشباب الموت،يوجد طعمه صراحا ، وطعم الموت بالموت يفقد
رزئت شبابى عــودة بعــد بدءة وهن الرزايا بادئات وعـــــود
سلبت سواد العارضين وقبــله بياضهما المحمــــود اذ أنا أمرد
وبدلت من ذاك البياض وحسنه بياضــا ذميما لايزال يســود

لشتان مابين البياضين : معجب   أنيق، ومشنوء الى العين أنكد
تضاحك فى أفنان رأسى ولحيتى   وأقبح ضحاكين شيب وأدرد (١)
وكنت جلاء للعيون من القــذى   فقد جعلت تقذى بشيبى وترمد
هى الأعين النجل التى كنت تشتكى   مواقعها فى القلب ، والرأس أسود
فما لك تأسى الآن لمــا رأيتهــا   وقد جعلت مرمى ســواك تعمد
تشكى اذا ما أقصــدتك سهامها   وتأسى اذا نكبن عنــك وتكمد
كذلك تلك النبل من وقعت به   ومن صرفت عنه من القوم مقصد(٢)
اذا عدلت عنــا وجدنا عــدولها   كموقعها فى القلب، بل هو أجحد
تنكب عنــا مرة ، فكأنمــــا   منكبهــا عنا الينا مســـــدد
كفى حــزنا أن الشــباب معجل   قصير الليــالى ، والمشيب مخلد
اذا حل ، جارى المرء شاو حياته   الى أن يضم المرء والشيب ملحد
أرى الدهر أجرى ليله ونهــاره   بعدل، فلا هذا ولا ذاك سرمــد
وجار على ليــل الشباب فضامه   نهار مشيب سرمد ليس ينفــد
وعزاك عن ليل الشــباب معاشر   فقالوا نهار الشيب أهدى وأرشد
وكان نهار المرء أهــدى لســعيه   ولكن ظل الليــل أندى وأبرد
أأيام لهوى هل مواضيك عود ؟   وهل لشباب ضل بالأمس منشد؟
أقول وقد شابت شواتى، وقوست   قناتى، وأضحت كدنتى(٣) تتخدد
ودب كلال فى عظــامى أدبنى   جنيب العصــا أنآد أو أتــأيد
وبورك طرفى، فالشخوص حياله   قرائن من أدنى مدى وهى فرد
ولذت أحاديثى الرجال ، وأعرضت   سليمى وريا عن حديثى ومهدد
وبدل اعجاب الغــوانى تعجبــا   فهن روان يعتبرن وصـــــدد

---

(١) الأدرد من ذهبت أسنانه

(٢) مصاب

(٣) الملحم المكتنز

لما تؤذن الدنيا به من صروفها ... يكون بكاء الطفل ساعة يولد
والا فما يبكيه منها وانها ... لأفسح مما كان فيه وأرغد
اذا أبصر الدنيا استهل كأنه ... بما سوف يلقى من أذاها يهدد
وللنفس أحوال تظل كأنها ... تشاهد فيها كل غيب سيشهد

***

لعبت بأولى الدهر، فاغتال شرتى ... بأخرى حقود ، والجرائم تحقد
فصبراً على ما اشتد منه ، فانما ... يقوم لما يشتد من يتشدد
يذيق الفتى طورى رخاء وشدة ... حوادثه ، والحول بالحول يطرد
ومالى عزاء عن شبابى علمته ... سوى أننى من بعده لا أخلد
وأن مشيبى « واعد » بلحاقه ... وان قال قوم أنه « يتوعد »

دمعة على الشباب

لاتلح من يبكى شبيبته ... الا اذا لم يبكها بدم
عيب الشبيبة غول سكرتها ... مقدار ما فيها من النعم
لسنا نراها حق رؤيتها ... الا زمان الشيب والهرم
كالشمس لا تبدو فضيلتها ... حتى تغشى الأرض بالظلم
ولرب شيء لا يبينه ... وجدانه الا مع العدم

حلم زائل

رأيت سواد الرأس واللهو تحته ... كليل وحلم بات رائيه ينعم
فلما اضمحل الليل زال نعيمه ... فلم يبق الا عهده المتوهم

الأحداث السياسية

مصرع

ابى الحسن يحيى بن احفاد علي

أمامك فانظر أى نهجيـك تنهج ... طريقان شتى : مستقيم وأعـوج
الا أيهذا النـاس طال ضريركم ... بآل رسول الله فاخشوا، أوارتجوا
أكـل أوان للنبى محمـد ... قتيـل زكى بالدماء مضـرج
تبيعـون فيه الدين شر أئمة ـ ... فلله دين الله ، قد كان يمرج(١)

***

بنى المصفى! كم يأكل الناس شلوكم؟ ... لبلواكم ـ عما قليـل ـ مفرج
أما فيهم راع لحـق نبيـه ... ولا خـائف من ربه يتحـرج
لقـد عمهوا ما أنزل الله فيكم، ... كأن كتاب الله فيهم ممجمج (٢)
الا خاب من أنساه منكم نصيبه ... متاع من الدنيـا قليـل وزبرج

***

أبعد المكنى بالحسـين شهيدكم ... تضيء مصـابيح السماء فتسرج
لنا وعلينا ـ لاعليـه ولا له ـ ... تسحسح أسراب الدموع وتنشج
وكيف نبكى فائزاً عنـد ربـه ... له فى جنان الخلد عيش مخرفج (٣)
وقد نال فى الدنيا سناء وصيتة ... وقام مقـاماً لم يقمـه مزلج (٤)
فان لايكن حيـا لدينا ، فانـه ... لدى الله حى فى الجنـان مزوج
وكنا نرجيـه لكشف عمـاية ... بأمثـاله أمثالهـا تتبلج
فساهمنا ذو العـرش فى ابن نبيه ... ففـاز به ، والله أعلى وأفـلج
أيحيى العلى لهفى لذكراك لهفة ... يباشر مكواها الفـؤاد فينضج
لمن تستجد الأرض بعـدك زينة ... فتصبح فى أثوابهـا تتبـرج؟
سلام وريحان وروح ورحمـة ... عليك، وممدود من الظل سجسج
ولا برح القاع الذى أنت جاره ... يرف عليه الأقحـوان المفلج

---

(١) مرج الدين اضطرب وفسد ... (٢) مجمج الكتاب لم يبين حروفه ولم يفد به
(٣) عيش واسـع ناعم ... (٤) زلج فلانا فلا تقـدم

ويا أسفى الا ترد تحيـــة ... سوى أرج من طيب رمسك يأرج
ألا انما ناح الحمائم بعـــدما ... ثويت ، وكانت قبل ذلك تهزج
ألا أيها المستبشرون بيومه ... أظلت عليكم غمة لا تفرج !
أكلكم أمسى اطمأن مهـاده ... بأن رسول الله في القبر مزعج !
فلا تشمتوا وليخسأ المرء منكم ... بوجه كأن اللون منه اليرندج (١)
فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم (٢) ... غداة التقى الجمعان والخيل تمعج
لأعطى يد العانى ، أو ارتد هاربا ... كما ارتد بالقاع الظليم (٣) المهيج
ولكنه مازال يغشى بنحـــره ... شبا الحرب حتى قال ذو الجهل: أهوج
وحاش له من تلـكم ، غير انه ... أبى خطة الأمر الذى هو أسمج
وأين به عن ذاك ؟ لا أين — انه ... اليه بعرقيه الزكيين محـــرج
كأنى به كالليث يحمى عـرينه ... وأشـــباله لايزدهيه المهجهج
كـدأب على في المواطن قبـله ... أبى حسن — والغصن من حيث يخرج
كأنى أراه والرماح تنـــوشه ... شوارع كالأشطان تدلى وتخلج
كأنى أراه اذ هوى عن جـواده ... وعفر بالترب الجبين المشـجج
فحب به جسما الى الأرض اذ هوى ... وحب بها روحا الى الله تعـرج
أأرديتم يحيى ! ولم يطو أيطل (٤) ... طرادا ولم يدبر من الخيل منسج
تأتت لكم فيه منى السوء هينة ... وذاك لكم بالغى أغرى وألهـج
تمدون فى طغيانكم وضلالكم ... ويستدرج المغرور منكم فيدرج

أجنـوا بنى العباس من شـنآنكم
وأوكوا (٥) على ما فى العياب وأشرجوا (٦)

وخلوا ولاة السوء منكم وغيهم ... فأحر بهم أن يغرقوا حيث لججوا
نظار لكم أن يرجع الحق راجع ... الى أهله يوما ، فتشجوا كما شجوا

(١) جلد او طلاء أسود (٢) فلو نزل يحيى بن الحسين لمترك وقلبه منخوف كقلب أبيكم لسلم نفسه للاسر أو لولى هاربا
(٣) ذكر النعـام
(٤) الايطل الخاصرة والمنسج ما بين العرف وموضع اللبد
(٥) أوكى القربة شدها بالوكاء
(٦) اشرج الخريطة : داخل بين شراجها وشدها

على حين لا عـذرى لمتذريكم ... ولا لـكم من حجة الله مخـرج
فلا تلقحوا الآن اللواقح بينـكم ... وبينهـم ، ان اللواقـح تنتـج
غررتم لأن صـدقتم أن حـالة ... تدوم لكم ، والدهر لونان أخرج
لعل لهم فى منطوى الغيب ثائراً ... سيسمو لكم والصبح فى الليل مولج
بمجر تضيق الأرض من زفراته ... له زجل ينفى الوحوش وهزمج(١)
اذا شيم بالأبصار أبرق بيضـه ... بوارق لا يسطيعهن المحمج (٢)
توامضه شمس الضحى ، فكأنما ... يرى البحر فى أعراضه يتمـوج
يؤيده ركنـان ثبتـان : رجله ... وخيل كأرسال الجراد وأوثج(٣)
عليها رجال كالليوث بسـالة ... بأمثالها يثنى الأبى فيمنـج (٤)
تدانوا، فما للنقع فيهم خصاصة ... تنفسـة عن خيلهم حين ترهج
فلو حصبتهم بالفضـاء سـحابة ... لظل عليهم حصـبها يتدحرج
كأن الزجاج اللهـذمياب فيهم ... فتيل بأطـراف الردينى مسرج
يود الذى لاقـوه أن سـلاحه ... هنـالك خلخال عليـه ودملج
فيـدرك ثأر الله أنصـار دينه، ... ولله أوس آخرون وخـزرج
ويقضى «امام الحق» فيكم قضاءه ... تماماً ، وما كل الحوامل تخدج
وتظعن خوف السبى بعد اقامة ... ظعائن لم يضرب عليهن هـودج

***

مه ! لا تعادوا غرة البغى بينـكم ... كما يتعادى شعلة النار عرفج(٥)
أفى الحق أن يمسوا خماصا، وأنتم ... يكاد أخـوكم بطنة يتبعـج
تمشون مختالين فى حجـراتكم ... ثقال الخطى أكفالكم ترجـرج
وليدهم بادى الضوى، ووليدكم ... من الريف ريان العظام خـدلج
ينفـى الألى كظتهم حسراتـكم ... فقد علزوا، قبل الممات، وحشرجوا(٦)

---

(١) الهزمجة اختلاط الصوت
(٢) المحدق النظر
(٣) اوثج اى أشد كثافة والتفافا
(٤) من منج الراكب البعير جذبه بخطامه ليقف
(٥) نبات سهل (٦) علز اخذه القلق او الهلع

وعيرتموهم بالسـواد ، ولم يزل … من العرب الأمحاض آخضر أدعج
ولكنكم زرق ، يزين وجوهكم … بنى الروم! ألوان من الروم نعج
أبى الله الا أن يطيبوا وتخبثـوا … وأن يسبقوا بالصالحات ويفلجوا
وان كنتم منهـم وكان أبوكم … أباهم ، فان الصفو بالرنق يمزج

***

لعمرى لقدأغرق القلوب ابن طاهر … ببغضائكم مادامت الريح تنأج(١)
سعى لكم مسماة سـوء ذميمة … سعى مثلها مستكره الرجل أعرج
فلن تعدموا ـماحنت النيب ـفتنة … تحش كما حش الحريق المؤجج
وقدبدأت ـ لوتزجرون بريحهاـ … بوائجها من كل أوب تبـوج (٢)

***

بنى مصعب ! ما للنبى وأهـله … عدوسواكم ـ أفصحوا أو فلجلجوا
دمـاه بنى عباسـكم وعليهـم … لكم كدماء الترك والروم تهرج
يلى سفكها العوران والعرج منكم، … وغوغاؤكم جهـلا بذلك تبهج
وما بكم أن تنصروا أوليـاءكم … ولكن هنات فى القلوب تنجنج (٣)
ولو أمكنتكم فى الفريقين فرصة … لقد بينت أشياء تلوى وتحنـج
اذن لاستقدتم منهما وتر فارس، … وان ولياكم . فالوشائج أوشـج
أبى أن تحبوهم. يد الدهر. ذكركم … ليالى لا ينفك منـكم متـوج
وأنى على الاسلام منكم لخائف … بوائق شتى ، بابهـا الآن مرتج
وفى الحزم أن يستدبر الناس أمركم … وحبلهم مستحكم العقـد مدمج

***

نظـار فان الله طالب وتـره … بنى مصعب ! لن يسبق اللهمدلج
لعـل قلوبا قد أطلتم غليلهـا … ستظفر يوما بالشـفاء ، فتثلج

---

(١) ناجت الريح اشتدت
(٢) البوائج الدواهى [illegible] أيهـ [illegible]
(٣) تتردد وتتحير

شخصيات واعلام

بطل الشطرنج

(فى ابى القاسم التوزى الشطرنجى)

يا أخى يا أخـــا الدماثة والرقـ ـة والظـــرف والحجى والدهـــاء
أتـــرى الضربـــة التى هى غيب خلف خمسين ضربة فى وحـــاء
ثاقب الرأى نافذ الفـــكر فيها غـــير ذى فترة ولا ابطـــــاء
ويلاقيك ـــــبعة فيـــظلو ن على ظهـــــر آلة حـــدباء
تهـــزم الجمـــع أوحديا وتلوى بالصـــناديد أيمـــا الـــواء
وتحط الرخاخ بعدالفرازين فتزد اد شـــــدة اســـــتعلاء
ربمـــا هالنى وحـــير عقـــلى أخـــذك اللاعبين بالبـــأساء
ورضاهم هناك بالنصف والربع، وأدنى رضـــاك فى الأرباء
واحتراس الدهاةمنك واعصـــا فك بالأقـــوياء والضـــعفاء
عن تدابيرك اللطـــاف اللواتى هن أخفى من مستسر الهبـــاء
بل من السر فى ضـــمير محب أدبتـــه عقـــوبة الأفشـــاء
فأخال الذى تدير على القـــو م حـــروبا دوائر الارحـــاء
وأظن افتراســـك القـــرن فالـ ـقرن منايا وشـــيكة الأرداء
وأرى أن رقعـــة الأدم الأحمـــر أرض عللتهـــــا بـــدماء
غلط النـــاس لست تلعب بالشـــطرنج لكن بأنفس اللعبـــــاء
أنت جديها ، وغـــيرك من يلعب ان الرجـــال غـــير النســـاء
لك مكر يدب فى القـــوم أخفى من دبيب الغـــذاء فى الأعضـــاء
أو دبيب المـــلال فى مســـتهامين الى غـــاية من البغضـــاء
أو مسير القضاء فى ظلم الغيب الى من يـــريده بالتـــــواء
أو سرى الشيب تحت ليل شباب مســــتحير فى لمـــة سحماء
دب فيها لهـــا ، ومنهـــا اليهـــا فاكتســـت لون رثة شـــمطاء
تقتل الشاه حيث شئت من الرقـ ـعة طبـــا بالقتـــلة النــــكراء

غير ما ناظر بعينيــك في الدســ ت ولامقبــل على الرســـلاء
بل تراها وأنت مســـتدبر الظـ ـهر بقلب مصـــور من ذكاء
ما رأينا ســـواك قرنا يولى وهو يردي فـوارس الهيجــاء
رب قوم رأوك ريعــوا فقــالوا هل تكون العيـــون في الأقفاء
والفــؤاد الذكي للمطرق المعــر ض عـــين يرى بهــا من وراء
تقرأ الدست ظاهراً فتــؤديه جميعــا كأحفظ القـــراء

طباع وشمائل

فى يحيى بن على المنجم

رب أكرومة له لم نخلها ... قبله فى الطباع والتركيب
غربته الخلائق الزهر فى النا ... س ، وما أوحشته بالتغريب
ألمعى يرى بأول ظن ... آخر الأمر من وراء المغيب
لا يروى ولا يقلب كفا ، ... وأكف الرجال فى تقليب
يدرك الطلب بالبديهة دون العقب ، ... قبل التصعيد والتصويب
حازم الرأى ليس من طول تجريب ، ... لبيب وليس عن تلبيب
لين عطفه فان ريم منه ... مكسر العود كان جد صليب

فى القاسم

عجبت لمن حزمه حزمه ... تكون يداه يدى حاتم
عجبت لمن جوده جوده ... تكون له عقدة الحازم
عجبت لمن حلمه حلمه ... تكون له صولة الصارم
عجبت لمن حده حده ... تكون له رأفة الراحم
أرى كل ضد الى ضده ... من الخير فى طبعه السالم

رسائل استعطاف وعتب

عتب على سوء مقابلة

قرأت في وجهك عنوانا … آذنني بالغدر ايذانا
تالله أنسى ـ ما ذكرت الصبى … بل ما ذكرت الله لهفانا ـ
يوم التقينا فتجهمتني … تجهم المديون ديانا
وكيف أنسى ذاك مستيقظا … ولست أنسى ذاك وسنانا
ظلمت من بعد فأوهمتني … أنك قد عاينت شيطانا
لاقيتني ساعة لاقيتني … أثقل خلق الله أجفانا
كأنما كنت تضمنت لي … رد شبابي كالذي كانا
أو طم بحر الصين في طرفة … أو كسح أروند وثهلانا
أو كل ما لم يستطع فعله … عيسى ولا موسى بن عمرانا
يا حسن الوجه لقد شنته … فاضمم الى حسنك احسانا
أنت ملول حائل عهده … تصبغك الساعات ألوانا
تصرم ذا الوصل، وتضحى الى … من يجتوى وصلك ظمآنا
حتى اذا واصل، صارمته … أو سمته صدا وهجرانا
وتستلين الدهر ذا خشنة … فظا، وتستخشن من لانا
وتعقد الوعد، فانجازه … خلف اذا انجازه آنا
حتى اذا أنجزته مرة … منته سرا واعلانا
وما أحب الواعدي مخلفا، … كلا، ولا المتن منانا
حذرتني الناس فقد أصبحت … نفسي لا تألف انسانا
أهنتني جدا فأعززتني … رب امرىء عز بأن هانا

الى آل وهب

اتخذتكم درعا وترسا لتدفعوا … نبال العدى عني فكنتم نصالها
وقد كنت أرجو منكم خير ناصر … على حين خذلان اليمين شمالها
فان أنتم لم تحفظوا لمودتي … ذماما فكونوا لا عليها ولا لها

قفوا موقف المعذور عنى بمعزل وخلوا نبـالى والعـدا ونبالهـا
هى النفس اما أن تعيش بغبطة والا فغنم أن تزول زوالهـا

***

طلبت لديـكم بالعتـاب زيادة وعطفاً فأعتبتم باحـدى البوائق
فكنت كمستسق سـماء مخيلة حياً ، فأصابته باحدى الصواعق

***

أأحييتنى بالأمس ثـم تميتنى برفضى واقصائى، وحقى أن أدنى
ولو أننى أحييت ميتـاً عشقته لحسن الذى أثرت فيه من الحسنى

هجـــاء

شيء ليس له وجود

قل لابن بوران ان كان ابن بوران … فان شـــكي فيه جل ايمـــاني :
يا باطلا أوهمتنيه مخـــايله … بلا دليل ولا تثبيت برهـــان
ما أنت الا خيـــال طاف طائفه … وما هجـائيك الا هجر وسنان
قد كنت أحســبه شيئاً فأهجوه … حتى أزاح يقيني فيـه حسباني

(في اسماعيل بن بلبل)

صبرا أبا صقر فـكم طـــائر … خـــر صريعـاً بعـد تحليــق
زوجت نعمى لم تكن كفـــؤها … فصــــانها الله بتطليـــق
وكل نعمى غـير مشـــكورة … رهن زوال بعـد تمحيـــق
لا قدست نعمى تسـربلتهـــا … كم حجـــة فيهـا لزنـديق

كيمياء الجسد

عجب الناس من أبي الصقر اذ ولـ … ـي بعـد « البطـالة » الديوانا
ولعمـــري ما ذاك أعجب من أن … كان علجـاً فصـار من شـيبانا
ان للجـــــد كيمياء اذا مـا … مس كلبـاً أحـاله انســـانا
يفعل الله مايشــاء ، كمـا شـا … ء ، متى شـاء ؛ كائنـا ما كانا

تأبين !!

أقــول اذ هتف الداعي بمصرعه … لبيك ! لبيــك ! من داع بتبيين
نعيت من جمدت غزر العيون له … فلم تفض عبرة من عين محزون
ومن يقل له الداعي بمغفـــرة … وينشـد الناس فيه بيت يقطين
فان تصـبك من الأيام جائحة … لم نبك منك على دنيـا ولا دين
يا منـكراً ونكيراً أوجعـاه فقد … خلوتما بقليل الخير ملعـــون
بعداً وسحقا له من هـالك نطف … مشوه الخلق من نسل الشياطين

اعتزال الهجاء

يامن قسا لما شكو ... ت الى تطوله زمانى
واعتدني — لما رخصـ ... ـت عليه من سقط المعانى
ساصون مالك عن يدى ... وأصون عرضك عن لسانى
آليت لا أهجو طوا ... ل الدهر الا من هجانى
لا بل ساطرح الهجا ... ء وان رمانى من رمانى
أمن الخلائق كلهم ... فليأخذوا منى أمانى
حلمى أعز على من ... غضبى اذا غضبى عرانى
فلاصبرن وأكظمن ... وان لظى غيظى كوانى
لكننى سأحب نفـ ... ـسى اذ قلانى من قلانى
وأريدها كل الارا ... دة اذ أبانى من أبانى
وأرى مكانى ان تعا ... مه من تعامه عن مكانى
حتى يرانى الله كيـ ... ـف صياتنى قدرى وشانى
ويعولنى فعيالتى ... حق عليه كما برانى
وليغذونى بالكرا ... مة انه قدماً غذانى
وساستعين على الفرا ... ق الصبر ان شوق دعانى

صور ممسوخة

يصف نفسه

من كان يبكي الشباب من جزع　　فلست أبكي عليه من جزع
لأن وجهي بقبح صورته　　ما زال بي كالمشيب والصلع
اذا أخذت المرآة ، سلمني　　وجهي ـ ومامت ـ هول مطلعي
شمفت؟ بالخرد الحسان وما　　يصلح وجهي الا لذي ورع
كي يعبد الله في الفلاة ، ولايشـ　　ـهد فيه مساجد الجمع

اكـول

وأما يد البصري في كل صفحة　　فأقلع من سيل وأغرف من رفش(١)
أأوعده بالشعر وهو مسلط　　على الأنس والجان والطير والوحش
ألم أره لو شاء بلع تهامة　　وأجبالها، طاحت هناك بلا أرش(٢)
على أنه ينعي الى كل صاحب　　ضروسا له تأبى على الثور والكبش
يخبر عنها أن فيها تشلما　　وذلكم أدهى وأوكد للجرش
ألم تعلموا أن الرحا عند نقرها　　وتجريشها تأتي على الصلب والهش
فلاتقبلوا ذاك التفارق ،واحذروا　　شباه، ولو أمسى مسجى على نعش

مقارنة

وجهك يا عمرو فيه طول　　وفي وجوه الكلاب طول
مقابح الكلب فيك طرا　　يزول عنها ولا تزول

---

(١) الرفش مايجرب به التراب　　(٢) الارش : الدية

وفيه أشياء صالحات حماكها الله والرسول
والكلب واف وفيك غدر ففيك عن قدره سفول
وقد يحامي عن المواشي وما تحامي ولا تصول
وأنت من بيت أهل سوء قصتهم قصة تطول
وجوههم للورى عظات لكن أقفاءهم طبول
نستغفر الله قد فعلنا ما يفعل المائق الجهول
ما ان سألناك ما سألنا الا كما تسأل الطلول
صمت وعيت فلا خطاب ولا كتاب ولا رسول
مستفعلن فاعل فعول مستفعلن فاعلن فعول
بيت كمعناك ليس فيه معنى سوى أنه فضول

الغث السمين

لنا صديق كلا صديق غث على أنه سمين
من أقبح الناس ، لا أحاشي من كان منهم ومن يكون
اذا بدا وجهه لقوم لاذت بأجفانها العيون
كأنه عندهم غريم حلت عليهم له ديون
وهو على ما وصفت منه متهم وده ظنين

كبرياء الحجاب

وكم حاجب غضبان كاسر حاجب محا الله مافيه من الكسر بالكسر
عبوس اذا حييته بتحية فيالك من كبر ومن منطق نزر
يظل كأن الله يرفع قدره بماحط من قدرى وصغر من أمرى
اذا ما رآنى عاد أعمى بلا عمى وصم سميعا ما بأذنيه من وقر
ومن شيم الحجاب أن قلوبهم قلوب على الآداب أقسى من الصخر
يخافون أن يحظى سواهم بحظهم فهم من سؤال السائلين على وحر

(ثقيل)

كان للأرض مــرة ثقــلان   فلهــا اليــوم ثالث بفــلان
أتقى غصــة اسـمه علم اللســــه فأكنى عن ذكره بالمعـــانى
يا ثقيل الثقــال أقذيت عيـ   نى ليت أنى كمــا أراك ترانى
من يــكن عانيــا بحب حبيب   ففؤادي ببغضك اليــوم عانى

(بارد ثقيل)

يا أبا القاسم الذى ليس يدرى   أرصاص كيــانه ام حــديد
أنت عنــدى كماء بئرك فى الصيـ   ـف ثقيل يعلوه برد شــديد

(فى اخرق)

وأخــرق تضرمه نفخــه   سفاها وتطفئه تفــله
فأخــلاقه تــارة وعــرة   وأخــلاقه تارة ســهله

(اصدقاء كثير والسلام)

ولى أصدقاء كثير والســلا   م على وما فيهم نافــع
اذا أنا أدلجت فى حــاجة   لها مطلب نازح شــاسع ،
فلى أبــداً معهم وقفــة   وتسـليمة وقتها ضــائع
وفى موقف المرء عن حاجـة   تيممهـا شاغل قاطــع
ترى كل غث كثير الفضــو   ل ،مصحفه مصحف جـامع
يحدثنى من أحــاديثه   بما لا يلذ به الســامع
أحاديث هن كمثــل الضريـ   ـع ، آكله أبــداً جــائع
أولئــك لا حيهم مــؤنس   صديقا ، ولا ميتهم فاجــع

تجارب وعظات

الظنون

يا أخي ، أين ريع ذلك اللقاء؟ ... أين ما كان بيننا من صفاء
كشفت منك حاجتي هنوات ... غطيت برهة بحسن اللقاء
تركتني ولم أكن سيء الظن ... أسيء الظنون بالأصدقاء
قلت — لما بدت لعيني شنعا: ... رب شوهاء في حشا حسناء
ليتني ما هتكت عنكن سترا ... فثوين تحت ذلك الغطاء
قلن : لولا انكشافنا ماتجلت ... عنك ظلماء شبهة قتماء
قلت : أعجب بكن من كاسفات ... كاشفات غواشيْ الظلماء
قد أفدتنني — مع الخبر بالصا ... حب — أن رب كاسف مستضاء
قلن : أعجب بمهتد يتمنى ... أنه لم يزل على عمياء
كنت في شبهة فزالت بنا عنـ ... ـك فأوسعتنا من الأزراء
وتمنيت أن تكون على الحـ ... ـيرة تحت العماية الطخياء
قلت : تالله ليس مثلي من ود ... ضلالا وحيرة باهتداء
غير أني وددت ستر صديقي ... بدلا باستفادة الأنباء
قلن : هذا هوى فعرج على الحـ ... ـق وخل الهوى لقلب هواء
ليس في الحق أن تود لخل ... أنه الدهر كامن الأدواء
بل من الحق أن تنفر عنهن ... والا فأنت كالبعداء
ان بحث الطبيب عن داء ذي الد ... اء ؛ لأس الشفاء قبل الشفاء
دونك الكشف والعتاب فقوم ... بهما كل خلة عوجاء
واذا مابدا لك العر (١) يوما ... فتتبع نقابه بالهناء (٢)
قلت : في ذاك موتكن ، وما الـ ... ـموت بمستعذب لدى الأحياء
قلن : ما الموت بالكريه اذا كا ... ن بحق فلا تزد في المراء

(١) العر الجرب

(٢) القطران

(طينة النـاس)

واعلم بأن النـاس من طينـة ... يصدق فى الثلب لهـا الثـالب
لولا عـلاج النـاس أخـلاقهم ... اذن لفـاح الحمـأ اللازب

(اعتزال الناس)

ذقت الطعوم فما التذذت كراحة ... من صحبة الأشرار والأخيـار
أأحب قـوماً لم يحبـوا ربهم ... الا لفـردوس لديه ونـار

(المعدم فى امان)

ماراح مغبـونا بصـفقة خاسر ... من باع متعـة فائت بأمـان
أمن امرىء من رزء شيء فاتـه ، ... والمدركـوه مراقبو الحـدثان
وكفى عـزاء لامرىء من فائت ... ألا يخـاف عليـه صرف زمان

(القناعة)

اذا ما كسـاك الله سربال صحة ... ولم تخل من قوت يحل ويعذب
فلا تغبطـن المترفين فانهـم ... على حسب ما يكسوهم الدهر يسلب

(من هو الكريم ؟!)

ليس الكريم الذى يعطى عطيته ... على الثنـاء وان أغلى به الثمنا
بل الكريم الذى يعطى عطيتـه ... لغير شيء سوى استحسانه الحسنا

(جزاء الاحسان)

ولقـد كافأ بالنعمى امـرىء ... كافأ النعمى باخـلاص الـوداد
ان يكن نـول نيـلا من يـد ... فلقـد نول نيـلا من فـؤاد

(الدرهم والسيف)

لم أر شـيئا صـادقا نفعـه ... للمـرء ، كالدرهم والسـيف
يقضى له الدرهم حـاجاته ... والسيف يحميـه من الحيف

(الشرير)

وليس بشرير ضليع بحجة ... رمى باطلا بالحق حين يخاصم
ولا واسم عرض امرىء كان ناله ... بسوء — وان لامته فيه اللوائم
وما بى زهد فى التفضل : أنه ... لفضل ، ولكن للرجال شكائم
ولكنما الشرير من عم شره ، ... وسولم بدءا فأتلى لا يسالم
وعاد باذعان له وتودد ... أخوه فلم تنفعه تلك التمائم
وكافأ احسانا بسوء ولم يزل ... يراجم بالمكروه من لا يراجم

(الظلم)

لانتقام المظلوم أربى على الظا ... لم ، من ظلمه على المظلوم
صاحب الظلم ان تأملت كالرا ... تع فى المرتع الوبيل الوخيم
يجتلى أمره فيعلم أن قد ... باع ليل الكرى بليل السليم (١)
فهو من لوم نفسه حين يخلو ... فى عرام وفى عذاب أليم
قد أمرت حياته وشجته ... برحاء النديم والتنديم
لو تجافى الخصيم عنه وأغضى، ... لكفاه بنفسه من خصيم

(الملام)

لاتكثرن ملامة العشاق ... فكفاهم بالوجد والأشواق
ان البلاء يطاق غير مضاعف ... فاذا تضاعف كان غير مطاق
لا تطفئن جوى بلوم انه ... كالريح تغرى النار بالاحراق

(السلو)

أبت نفسى الهلاع لرزء شيء ... كفى شجوا لنفسى رزء نفسى
أتهلع وحشة لفراق الف ... وقد وطنتها لحلول رمس

---

(١) الملدوغ

(الصبر)

أرى الصبرمحمودا وفيهمذاهب، فكيف اذا مالم يكن عنه مذهب!
هناك يحق الصبر، والصبرواجب، وما كان منـه كالضرورة أوجب
هو المهرب المنجى لمن أحدقت به مكاره دهر ليس منهن مهـرب
لبوس جمال ، جنـة من شماتة، شـفاء أسى ، يثنى به ويشـوب

(اغراء المشيب)

وتولى الشـباب فازددت ركضا في ميـادين باطلى اذ تـولى
ان من سـاءه الـزمان بشيء لأحق امرىء بأن يتسـلى

(الفنـاء)

اذا اختط قـوم خطـة لمـدينة تقاضـتهم أضعـافها للمقـابر
وفي ذاك ما ينهاهم أن يشيدوا وأن يقتنوا الا كـزاد المسـافر

(الحرب الأهلية)

وما قتل بعض الحي بعضا بناهك قواه اذا ماجاه حي يحـاربه
ومالطم بعض الموج في البحربعضه يمانعـه تغـريق من هو راكبه

(يجنون الحرب وغيرهم وقودها)

رأيت جنـاة الحرب غير كفاتها اذا اختلفت فيهاالرماح الشواجر
كذاك زناد النـار عنهـا بنجوة ولكنمـا تصلى صلاها المساعر

(الاغضاء الا عن الخلصـاء

يا أبا القاسم الذى كنت أرجـو ه لدهـرى قطعت متـن الرجاء
لا أجـازيك عن غـرورك ايا ى غرورا وقيت سـوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وما ذا ك لبخـل عليـك بالاغضـاء
أنت عيني ، وليس من حق عيني غض أجفـانها على الاقـذاء

الشعر

(دفاعه عن شعره)

قلت لمن قال عرضت على الأخفش (١) ما قلته فما حمده
قصرت بالشعر حين تعرضه على مبين العمى اذا انتقده
ماقال شعراً ، ولا رواه ، فلا ثعلبه كان ، لا ولا أسده
فان يقل أنني رويت ، فكالدفاتر جهلا بكل ما اعتقده
أرمت زيني بأن تعرضني لمدحه ، فالذليل من عضده
أم رمت شيني بأن تعرضني لثلبه ؟ فالسليم من قصده (٢)
انشدته منطقي ليشهده فغاب عنه عمي وما شهده
وقال قولا بغير معرفة افكا ـ فما حل افكه عقده
شعري اذا تأمله الانسان ذو الفهم والحجى عبده
لكنه ليس منطقا بعث اللـه به آية لمن جحده
ولا أنا المفهم البهائم والطير سليمان قاهر المرده
ما بلغت بي الخطوب رتبة من تفهم عنه الكلاب والقرده
وحسب قرد أراه يحسدني أن يسكن الله قلبه حسده
لا خفف الله عنه من حسدي وزاده الله فوقه كمده
ولا تزل صورتي اذا طلعت لناظريه قذاه بل رمده

(حملة على البحتري)

الحظ أعمى ..لا ذاك لم نره للبحتري بلا عقل ولا أدب
قبحا لأشياء يأتي البحتري بها من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها حين يصغي السامعون لها ممن يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب، أو هذر البناة اذا أضحوا على شعف الجدران في صخب
وقد يجيء بخلط فالنحاس له وللأوائل ما فيه من الذهب

---

(١) هو علي بن سليمان الاخفش

(٢) الذليل من آزره الاخفش والسليم من قصده الاخفش بسوء

يسيء عفـا ، فان أكدت وسائله | أجاد لصا شديد البأس والكلب
عبد يغـير على الموتى فيسلبهم | حر الكلام بجيش غير ذي لجب
ما ان تزال تراه لابسـا حـللا | أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب
شـعر يغير عليـه باسلا بطلا ، | وينشد النـاس اياه على رقب
يقول مسـتمعوه الجاهلون به : | أحسنت ياأشعر الحضار والعيب
والحكم فيه مبين غـير ملتبس | لو ريم فيه خلاف الحق لم يصب
اذا أجاد فأوجب قطـع مقـوله | فقد دهى شعراء الناس بالحرب
وان أسـاء فأوجب قتله قـوداً | بمن يميت اذا ابقى على السلب

التـأسى

خليـلى قـد عللتمـانى بالأسى | فأنعمتمـا لـو أننى أتعـلل
وما راحة المرزوء فى رزء غيره | أيحمـل عنـه بعض ما يتحمل؟
وضرب من الظلم الخفى مـكانه | تعـزيك بالمرزوء حـين تأمـل
لأنك يأسـوك الذى هو كلمه | بلا جرم ،لو أن جورك يعـدل

حلم اليقظة

المرء فى حال التيقظ هاجـم | يرنو الى الدنيـا بمقلة حالم
وأخو الحجـا أبدا يجاهد طبعه | فتراه ـوهو محاربـ كمسالم

التـكلف

فى الناس ذو حلم يسفه نفسـه | كيما يهـاب وجـاهل يتحـلم
وكلاهمـا نعب يحـارب شيمة | غلبت فآض بحملهـا يتـألم

الدهر الشاعر

الناس كالشعر تلقى الأرض جائشة | بالجمع يزجى، وخير منهم رجلى
والدهر شـاعر آفات يفـوه بها | للناس يفكر تارات ويرتجـل

الحزم

اذا طرف من حبلك انحـل عقده … تداعت وشيكا بانتقاض مرائره(١)
فلا تغفلن أمرا وهي منه جـانب … فيتبعه في الوهي لا شـك سائره

الاصـــدقاء

عـدوك من صديقك مستفاد … فلا تستكثرن من الصحاب
فان الـداء أكثـر ما تراه … يحول من الطعـام أو الشراب
اذا انقلب الصـديق غدا عدوا … مبينا والأمور الى انقـلاب
ولو كان الكثـير يطيب كانت … مصاحبة الكثير من الصـواب
وما اللجج المـلاح بمرويات … وتلقى الرى فى النطف العذاب

جمع المـال

المـال يكسب ربه مـالم يفض … فى الراغبين اليـه ـ سوء ثنـاء
كـالماء تأســن بئره الا اذا … خبط السقاة جـمامه بدلاء

فى الثقال

ليس حمد الجفون فى مرها النـ … ـوم ولا نفيها أذى الأقـذاء
انما حمـدها اذا هى حـالت … بين طـرف العيـون والبغضاء

المنـا

حـركـ منـاك اذا همـ … ـمت فانهـن مـراوح
لا تيـأسن فان رز … ق الله غـاد رائح

حظه من الشعر

ويح القـوافى مالهـا سفسفت … حظى كـأنى كنت سـفسفتها

(١) أمر الحبل فتله شديدا ، والمرير من الحبال ما اشتد فتله

ألم تكن هـــوجا فســـددتها؟ ألم تكن عـــوجا فثقفتهــــا
كم كلمـــات حكت أبــرادها وســـطتها الحســن وطرفتها
ما أحســنت ان كنت حســنتها ما ظــرفت ان كنت ظـــرفتها
أنحت عــلى حظى بمبـــراتها شــكرا ، لأنى كنت أرهفتهــــا
فرققتــــه حين رققتهــــا ، وهفهفته حـــــين هفهفتهــــا
وكثفت دون الغنى ســــدها حتى كـــأنى كنت كثفتهــــا
أحلف بالله لقــــــد أصبحت فى الرزق آفتنى وما أفتهــــا
لم أشــــكها قط بتقصـــيرة فيهــا ، ولا من حيفة حفتهــــا
حرمت فى ســـنى وفى ميعتى قـــراى من دنيـــا تضـــيفتها
لهفى على الدنيـــا وهل لهفــة تنصف منهـــا ان تلهفتهــــا
كم آهــة لى قد تأوهتهــــــا فيهـــــا ، ومن أف فأففتهــــا
أغــدو ولا حـــال تســنمتها فيهــا ، ولا حـــال تردفتهــــا



فهرست